عَرَبٌ بِلَا رَبْ
الإلحاد وحرية المعتقد
في الشرق الأوسط
براين ويتاكر

عرَبٌ بِلا رَبْ

الإلحاد وحرية المعتقد في الشرق الأوسط

براين ويتاكر

Brian Whitaker

الإشعار القانوني

تمّ نشر هذا الكتاب لأول مرة باللغة الإنجليزية سنة 2014 تحت عنوان "Arabs Without God" وهو متوفر بنسختين ورقيّة والكترونية على موقع Amazon.com.

ونُشرت الترجمة العربية للكتاب بموجب ترخيص (CC BY-NC-ND 4.0 Creative Commons) ما يعني أنّ بالإمكان نسخها وتوزيعها في أيّ شكل، لكن لأغراض غير تجارية فقط. يمكن الاطلاع على الشروط والأحكام الكاملة هنا:

https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/legalcode

المحتويات

مقدمة..... 5

الجزء الأول: طرقٌ إلى الإلحاد

الفصل الأول: إنكار الله وهدمُ المجتمع 9

الفصل الثاني: الإلحاد في التاريخ العربي..... 41

الفصل الثالث: كتابُ الله..... 61

الفصل الرابع: خسارتهم لِدينهم 80

الفصل الخامس: الإلحاد والجنس (النوع) والميول الجنسيّة 101

الجزء الثاني: حماية الدين

الفصل السادس: امتيازات الدِّين 123

الفصل السابع: مسلمٌ للمرة الأولى مسلمٌ دائماً 140

الفصل الثامن: الحقّ في الإساءة والتسبّب بالصّدمة والإزعاج..... 159

الفصل التاسع: طعمُ الحريّة؟..... 173

الفصل العاشر: سياسات الإلحاد 196

المصادر والملاحظات 213

مقدمة

يسودُ اعتقادٌ في الدول الغربية أن العرب جميعهم مسلمون ومتعصبون دينياً، لكن الواقع أكثرُ تعقيداً من ذلك، فالمسلمون ليسوا عنصراً واحداً فقط، بل هم مذاهبُ شتّى، فمنهمُ السنّة والشّيعة والسّلفيّون والوهّابيّون والزّيديّون والصّوفيّون والعلويّون والإباضيّون والإسماعيليّون وغيرهم؛ كما أنّ كلُّ عربيٍّ ليس مسلماً بالضرورة، فهناك الملايين من المسيحيين العرب، وأعدادٌ أقلَّ من الدروزِ واليهود، يُضافُ إلى هذا المزيج عددٌ متزايدٌ من العرب الذين أعلنوا إلحادَهم مؤخراً، أو انضموا إلى اللاأدريّين[1]، أو المشكّكين بالدِيْن، وخصوصاً من فئة الشباب.

وقد يتواجد غير المؤمنين في الشرق الأوسط، مَنْ هم في الخفاء في الغالب، ولكنْهم في الفترة الأخيرة بدأوا بالظهور والإفصاح عن آرائهم مستفيدين من الخدمات التي وفرتها وسائل التواصل الاجتماعي من جهة، والانتفاضات التي أطاحت بالطغاة العرب، وشجّعتهم على رفع أصواتهم من جهة أخرى.

في البلدان التي يهيمن الدين فيها على معظم جوانب الحياة اليومية، يسبّبُ التحدي العلني للإيمان والدِيْن صدمةً للأسرة والمجتمع وحتى للحكومات، وقد تَعرّضَ العديد ممن أقدموا على هذا التحدي للاعتقال لمجرد البوح بأفكارهم، واضطُر آخرون للعيش في المنفى، ناهيك عن تلقي بعضهم تهديداتٍ بالإعدام،

[1] اللاأدرية هو الاعتقاد بأن وجود الله والميتافيزيقيات أمورٌ لا سبيل إلى معرفتها، وكلمة "اللاأدري" تعني "بلا دراية أو بلا علم"، وبعبارةٍ أخرى هي فلسفة أو مذهبٌ لاديني يعتقد باستحالة التعرف على وجود الله أو التوصل لهذا الإيمان ضمن شروط الحياة الإنسانية.

ولذلك يُفضّل غالبية هؤلاء عدمَ البوح بمعتقداتهم والتعبيرَ عنها خوفاً من ردود أفعال الأسرة والأصدقاء وأرباب العمل.

تُمثّل هذه الأصوات المعارضة للمعتقدات والتقاليد السائدة مشكلةً للمجتمع المحافظ الذي اعتاد الامتثالَ للعادات والتقاليد، وبدرجة أكبر تُسبّبُ تلك الأصوات مشكلة للأنظمة الاستبدادية التي تُؤسِسُ شرعيتها المزعومة على أسسٍ ومؤهلاتٍ دينية، وهي ظاهرة يُرجَّحُ أنْ تنموَ رغم الجهود التي تُبذل لقمعها.

لقد أصبح الشباب العربي اليوم أكثر اطّلاعاً على العالم الخارجي من الأجيال السابقة، وذلك بفضل الإنترنت والقنوات الفضائية والاختلاط مع ثقافات أخرى نتيجة العيش في الغُربة؛ وغالباً ما يُعبّرون عن استيائهم عند مقارنة الوضع في بلدانهم بالوضع في البلدان الأخرى، فيأتي رفضهم للدين كرَدِ فعلٍ على الواقع الذي يعيشونه، وواحداً من مطالبهم بإجراء تغييرات سياسية واجتماعية واسعة.

وقد كان الدينُ أحدَ أسباب موجة السخط التي اعترت الشباب العربي، وهو أمرٌ لا مفرَّ منه لأنّ الدِّين في الدول العربية – بعيداً عن كونه مسألة شخصية – أصبح مُسيَّساً إلى حدٍّ كبير ومسؤولاً عن الكثير من القيود الاجتماعية التي تُتسبب في الكثيرَ من الإحباط، وخاصةً بين الشباب.

لا يهدفُ هذا الكتاب إلى الترويج للإلحاد أو إلى توجيه انتقادات معينة للإسلام بوصفه الدينَ السائدَ في المنطقة، وإنما يهدف إلى دراسة قضيةِ الإلحاد كظاهرة اجتماعية، وتسليط الضوء على أسبابها وعواقبها، ومناقشة حقّ غير المؤمنين في أن يعاملوا كما تُعامل الأغلبية في المجتمع.

لايزال الدين يُعامَل عموماً كواحد من المقدسات، ليبقى إنكاره أو مواجهته التحديَ الأكبر مقارنةً بأي قيدٍ أو مُحَرَّمٍ آخر رغم ما شهده الخِطاب العامّ في الدول العربية من انفتاحٍ كبيرٍ خلال السنوات القليلة الماضية، وما رافق ذلك من تحطيمٍ لكثيرٍ من المحرمات السائدة – حيث أصبح التكلم اليوم ممكناً وعلى الملأ في مواضيعَ لم يكن الخوض فيها متاحاً أبداً قبل عقدٍ من الزمن.

يُثيرُ ما سبقَ ذكرهُ تساؤلاتٍ هامةً حول أفضل السبل للضغطِ في سبيل إحداث التغيير، فبعض الشباب غير المؤمن ممن قابلتهم بغرض تأليف هذا الكتاب يمكن وصفهم كناشطين يشكّكون في الدّين بجميع أشكاله، ويتَحدّونه علانيةً، كما أنّ هنالك آخرين ممّن يريدون حياةً هادئةً وحسب، ولا يرون حاجةً للإعلان عن إنكارهم للديْن؛ ولكنهم في المقابل يرفضون أنْ يتمّ إجبارهم على الامتثال للقواعد والآراء التي يفرضها عليهم المؤمنون؛ إلّا أن كِلَا الصّنفين يواجهان صعوباتٍ كثيرةً في ذلك، وقد يصطدمون ببعض القوانين المعمول بها في بلادهم.

ونتيجةً لذلك يواجهُ غيرُ المؤمنين من العرب صراعَيْن منفصلين، أحدهما صراعهم مع الدّين نفسه، والآخر مع المجتمعات والحكومات التي ترفض قبول فكرة إنكارهم للدّين؛ ويشترك هؤلاء (أي غير المؤمنين) مع الملايين من العرب المتديّنين، ومع الأقليّات الدّينيّة خصوصاً، في سعيهم لنيل حقوقهم وحريّاتهم الشخصيّة؛ كحريّة المعتقد وحريّة التّعبير وحريّة الضّمير.

وقد يجدُ مَنْ لا يمتثلُ للمعتقدات والتقاليد السّائدة في الشّرق الأوسط والعالم العربيّ تحديداً نفسه ضحيةً لقوانين التجديف والرّدّة، أو قد يتعرض للتّحامل والتّمييز الطّائفيين.

ورغم أنّ المؤمنين وغير المؤمنين هم على طَرفَي نقيض فيما يتعلق بمعتقداتهم الدينية، إلا أنّهم قد يجدون أنفسهم في خندقٍ واحد في معركتهم لنيل حرية المعتقد، لذا فإن مساحةً كبيرة من هذا الكتاب تخطّت موضوع الإلحاد لتناقش موضوع الحريّة الدّينيّة وهو ما يهمّ المؤمنين وغير المؤمنين على حد سواء.

لكن بالرغم من ذلك تلْقى معتقدات الأقليّات الدينية قبولاً أكثر من الإلحاد في العالم العربي، وهناك بعض الاعتراف بالتنوع الديني؛ على الأقل فيما يخصّ الأديان السماوية بالرغم وجود بعض التحامل والتعسّف والتمييز ضد أفراد هذه الأقليات، إلا أن الكفرَ الصريحَ بالله يُقابَل من جهة ثانية بنفورِ عامة الناس من

الملحدين، ومن هذا المنطلق، تمثّل المعاملة التي يتلقاها غيرُ المؤمنين الاختبارَ الأصعبَ فيما يتعلق بحرية المعتقد في الدول التي يهيمن فيها المتدينون على مؤسساتِ الدولة، فلا نستطيع أنْ نقول أنّ الحرية تحققت فعلاً إلا عندما يصبح الملحد مقبولاً بين العامة وحين يُحترم كإنسانٍ عادي.

الجزء الأول: طرقٌ إلى الإلحاد

الفصل الأول: إنكار الله وهدمُ المجتمع

في بَلدةِ قلقيلية الفلسطينية، خطرت فِكرَةٌ غريبةٌ لوليد الحسيني، وهو شابٌ في الخامسة والعشرين من عمره حين رأى أنّ الوقت قد حان لأن يكون لله صفحة خاصة به على موقع "فيسبوك"، فأنشأ تلك الصفحة وأطلق عليها تسمية "أنا الله"، وأعلن فيها ساخراً أنّه الله، وأنه في قادمِ الأيامِ سوف يتواصل مباشرةً مع عباده من خلال موقع "فيسبوك"؛ لأن قروناً من الزمن مرّت دونَ أن تصل رسالته رغم أنه أرسل رُسلاً لذلك.

إحدى الإرشاداتِ الإلهيةِ التخيليةِ التي كتبها ونشرها الحسيني بأسلوب مشابه لأسلوب القرآن تحرمُ شرب الويسكي ممزوجاً بالبيبسي، حيث قال أنّ "الله" أمرهم أنْ يمزجوا الويسكي بالماء بدلاً من البيبسي، وفي منشور آخر للحسيني، ينَصَحُ الله عباده بتعاطي الحشيش.

لم تكنِ السلطات الفلسطينية مسرورةً بنشاط الحسيني الحائز على شهادة جامعية من قسم تقنيّات الاتصالات، وبعد أيام قليلة من نشره تلك المقولات الساخرة تم اعتقاله بينما كان يلعب الورق في أحد المقاهي حيث دخل عنصران من الشرطة السرية إلى المقهى واعتقلاه، ووُضع في السجن عدة أشهر، قضى جزءاً منها في الحبس الانفرادي. يعيش الحسيني الآن في منفاه في فرنسا بعيداً عن عائلته وأصدقائه.

وقد واجه آخرون مصيراً مشابهاً لمصير الحسيني بسبب منشورات معادية للدين نشروها على شبكة الإنترنت؛ أحد هؤلاء هو ألبير صابر، وهو مصري سافر إلى سويسرا على إثر زجّه في السجن بتهمة

"التهجم على الإسلام والمسيحية، وازدراء الشعائر والمقدسات الدينية والسخرية منها فضلاً عن إهانة الأنبياء،" بعد تخليه عن الديانة المسيحية مفضّلاً الإلحاد.

وهناك أيضاً الطالب المغربي قاسم الغزالي الذي كان في المدرسة الثانوية وراح ينشر منشورات عن الإلحاد على شبكة الإنترنت دون الكشف عن هويته؛ إلى أنْ تم كشفه عن طريق مُدرسِّهِ الذي وجّه له تهمة "زعزعة الدين"؛ مما دفع بزملائه إلى قذفه بالحجارة؛ كما أنّ إمام القريةِ منعه من دخول المسجد، فقرر قاسم التواريَ عن الأنظار إلى أنْ حصل على اللجوء في سويسرا، مثله في ذلك مثل ألبير صابر.

أمّا الحسيني، فتُعتَبَرُ حالةُ تحولِه إلى الإلحاد حالةً نموذجية بجميع المقاييس، فقد وُلِدَ في فلسطين لعائلة كانت "مسلمة عادية"، على حد وصفه؛ لكنّه أخذ يطرح في المدرسةِ الإعداديةِ أسئلةً عديدة من قبيل "هل نحن مخيّرون في تصرفاتنا أم مسيّرون؟" فوجد الحسيني نفسه ودون قصد أمام مسألة حرية الإرادة والقضاء والقدر، وهي المسألة الذي شغلت بالَ علماء الدين لقرون طويلة، إنْ كان الله كُلِّيَّ المعرفة فإنه يستطيع التنبؤ بالأعمال الشريرة قبل حدوثها، وإن كان كُلِّيَّ القدرة، فإنه يستطيع أن يمنعها من الحدوث؛ إذاً، إنْ كان الخير صفةَ الله، فَلِمَ يرضى الشرَّ لخَلْقِهِ ثم يعاقبُهم عليه؟ وتقول إحدى آيات القرآن: "وما تشاؤون إلا أنْ يشاء الله رب العالمين (سورة التكوير: الآية 29).

طرح الحسيني تساؤلاته أمام مُعَلِّمِهِ في المدرسة، فكان الجواب أنْ طرحَ مثل هذه الأسئلة حرام. يقول الحسيني: "لم أحصل على إجابة عن أسئلتي، فذهبت إلى إمام البلدة وسألته السؤال ذاته، لكنني حصلت منه على الإجابة وردة الفعل ذاتهما، وهي: "لا يجوز طرح مثل هذه الأسئلة." تعتبر هذه الإجابة هي الشائعة في المجتمعات السلطويّة؛ كما أنّ عرباً كثيرين ممن تركوا الدين سمعوا الإجابة ذاتها، وهذا ما دفعهم للبحث عن الإجابة، وكانت هي العامل الرئيس في دفع بعض الشباب المسلم أنْ يسلك طريق الإلحاد.

ازداد فضول "الحسيني" يوماً بعد يومٍ، فراحَ يُفتِّشُ عن الإجابة باحثاً في الكتب؛ يقول الحسيني:

"ذهبتُ إلى مكتبةِ المدرسةِ، وإلى المكتبةِ العامةِ الموجودةِ في مدينتي التي بإمكانك أنْ تجد فيها الكثير من الكتب الدينية، ولكن يستحيل العثور على أي كتاب ينتقد الدين. لقد قضيتُ نحو أربعةِ أعوامٍ في البحث، وكلما تعمقت بشكل أكبر كلما اكتشفتُ أموراً لم أكن أعرفها من قبل، وبدأتُ بالابتعاد عن الدين شيئاً فشيئاً حتى تركتُ الإسلام في السنةِ الأولى من الجامعة."[1]

ربما لبساطته، لم يجد "الحسيني" أيَّ شيءٍ غريبٍ في القرار الذي اْتخذه، حيث كان على درايةٍ أنّ كثيراً من الكتاب الفلسطينيين المشهورين طرحوا أسئلةً تخصُّ الدين من بينهم إدوارد سعيد (الذي أعلن بصراحة أنه لا أدريّ)، والشاعر محمود درويش والروائي غسان كنفاني (الذي كان عضواً بارزاً في الجبهةِ العامةِ لِتحرير فلسطين)، لكن عندما أخبر الحسيني زملاءَهُ في الجامعة أنه ترك الإسلام، شعر بالصدمة إزاء ردة فعلهم حيث قالوا له: "هذا لا يجوز، هذا حرام، افعل ما تشاء ولكن لا تتخلى عن الإسلام." قَصَدَ "الحسيني" بعض الشيوعيين باحثاً عندهم عن شيءٍ منَ التشجيع، ولكن ردة فعلهم كانت متشابهةً حيث قالوا له: "لا يجوز لك ترك الإسلام، نحن لا نأخذ من الشيوعية إلا طريقتها في القتال."

لم تثنه ردودُ الفعل تلك عن هدفه، فأنشأ مجموعةً من المدوّنات إحداها باللغة العربية تدعى "نور العقل" ومُدَونَةٌ أخرى باللغة الإنكليزية سمّاها "الملحد الفخور"، يقول الحسيني: "بدأتُ بالكثير مِنَ النقاشات في تلك المدونات، كلُّ ما كنت أصبو إليه كان الوصولَ إلى الحقيقة، ولم تكن النقاشات كثيرةً، ولم يتابعني أحد في بادئ الأمر". وكتب "الحسيني" في إحدى المدونات منشوراً في أواخر شهر آب/أغسطس سنة 2010، قبل شهرين من اعتقاله:

"يسألني المسلمون عادةً لِمَ تخليت عن الإسلام؟ الشيء الذي صدمني هو عدم قَبُولِ المسلمين فكرة أنّ تركَ الإسلام هو خيارٌ متاحٌ لكل شخصٍ، ولكل شخصٍ الحقُّ في اختياره، كما أنهم يعتقدون أن كلَّ من يتخلى عن الإسلامَ هو عميلٌ أو مخبرٌ للدولِ الغربيةِ وبشكلٍ أساسيٍ عميلٌ لإسرائيل، وبأن من يترك الإسلام يحصل على مبالغ مالية كبيرة من حكومات تلك الدول لقاء الخدمات السرية التي يقوم بها. لا يستوعب المسلمون أنّ الناس أحرارٌ في أفكارهم ومعتقداتهم بالشكل الذي يرونه مناسباً. أردتُ التوضيح بكتابتي لهذا المقال أنّ الديانتين المسيحية واليهودية ليستا أفضل من الإسلام، وعلى القارئ ألا يظن أنني أرفض الإسلام وحده من بين الديانات الأخرى، بل أعتبر أنّ جميع الديانات أساطيرٌ تعصف بالعقل، وركامٌ من الهراء تتنافس."[2]

اتُهِمَ الحسيني بإهانة الإسلام، والتهجم على الديانات، والتحريض على الصراع الديني، واستغرق الأمر أربعةَ أشهرٍ ليتم تحويله إلى المحاكمة. يقول الحسيني أنه حضر أمام المحكمة أكثر من عشر مراتٍ؛ وفي كل مرة كان يتم تأجيل النطقِ بالحكم. ويعتقد أنّ سبب اعتقاله سياسيٌ أكثر من كونه دينيا؛ ألا وهو نتيجة التنافس بين السلطة الفلسطينية في الضفة الغربية وحركة حماس الإسلامية في قطاع غزة، حيث وجّهت حماس اتهاماتٍ للسلطة الفلسطينية بأنها لم تكن متديّنة بالقدر الكافي، لذلك أخذت السلطة الفلسطينية على نفسها محاولة إظهار بعض الاستحقاق والشرعية الدينية.

يضيف الحسيني:

"خلال الأشهر الأربعة الأولى لم أكن أنام سوى ساعتين أو ثلاث ساعاتٍ في كل ليلةٍ، وأقضي بقية الوقت أجيب عن تساؤلاتهم واقفاً على قدميّ، وكانت أسئلتهم: من كان يدفع لك؟ هل تتعامل مع الموساد (المخابرات الإسرائيلية)؟ هل تعمل مع آخرين؟ كان جوابي

لا، كل ما أقوم به هو كتابة مقالاتي وأفكاري، هذا كل شيء. كما اعتقدوا أنني أحصلُ على تمويل من بعض الحكومات فتحققوا من حسابي المصرفيّ. بقيت طيلة تلك الشهور الأربعة على هذه الحالة وحيداً طوال الوقت."

"ادّعوا أنهم اعتقلوني خشية أن يقتلني شخصٌ ما؛ لكنّ ذلك كان جزءاً من الحملة الإعلامية التي أطلقوها لتبرير احتجازي. قلتُ لهم: كيف تقومون بحمايتي؟ إن كنتُ موجوداً هنا من أجل سلامتي، فَلِمَ لا تسمحون لي بالنوم إذاً؟ ولماذا تسألونني كل هذه الأسئلة؟ ولماذا تأخذونني إلى المحكمة؟"

أُطلِقَ سراحُ الحسيني بعد احتجاز استمرّ عشرة أشهرٍ، وطُلِب منه ألا يستخدم الإنترنت وألّا يُجري اتصالاتٍ بهاتفه النقال، كما كان عليه أنْ يراجع مخفر الشرطة في كل مساء.

لم تكن تلك نهاية المشكلة لآنّ السلطات الفلسطينية كانت تعتقل الحسيني في كل مرة يتم فيها نشر أيَّ شيء يهاجم الإسلام لأنه أصبح موضعَ شُبهة، فيقول: "كانوا يعتقلونني في أمسيات الخميس لأن المحكمة تأخذ عطلة في يومي الجمعة والسبت فأقضي الوقتَ في المعتقل، ويطلقون سراحي يوم الأحد معلنين براءَتي وهكذا؛ إلى أنْ أخبرتني صِحَفِيَةٌ أمريكية في القدس كنت على تواصل معها أنه ربما يجب عليّ التفكير بالسفر."

سافر الحسيني بعد ذلك إلى الأردن براً وطلب المساعدة من السفارة الفرنسية، ويقول: "علمتُ أنّ فرنسا كانت تمارس ضغوطاً على السلطة الفلسطينية بعد أنْ سمعوا بقصتي، فحصلتُ بعد بضعة أيام على تأشيرة تسمح لي بالعمل والعيش في فرنسا."

تعرّض ألبير صابر الملحد المصريّ المنحدر من عائلةٍ مسيحيةٍ قبطية إلى النفي أيضاً بِسَبَبِ منشوراته على شبكة الإنترنت. يقول صابر: "بدأت بالحديث عن الدين والسياسة عندما كنت في السنة الجامعية

الأولى؛ حيث كان لدي صفحة بموقع "Geocities" على شبكة الإنترنت؛ نشرتُ بعض المقالات فيها بهدف مشاركة أفكاري."

عندما انتشرت آراؤه في جامعة بني سويف راح الإسلاميون يهددونه، وتعرض بحسب زعمه لثلاث محاولات اغتيال، وعندما أخبر صابر حَرَسَ الجامعة بذلك؛ نصحوه بتركِ دراسته بدل أن يأمنوا له الحماية، وقالوا له: "عليك ألا تأتي إلى الجامعة مرةً أخرى، نحن لا نستطيع أن نحميك أو ندعمك، عليك أن تغادر الجامعة." أخذ صابر بنصيحتهم وأنتقل إلى جامعة أخرى محولاً دراسته من الفلسفة إلى علوم الكمبيوتر، لكن متاعبه تجددت بعد ثورة 2011 في مصر عندما لفتت منشوراته على الإنترنت انتباهَ الإسلاميين من جديد، وأراد الكثيرون في حينها تناقل الأشياء السيئة عنه.

في سنة 2012 سَبَّبَ انتشار مقطع فيديو مدته 14 دقيقة تم إنتاجه في الولايات المتحدة بعنوان "براءة المسلمين" مظاهراتٍ في الكثير من الدُوَلِ المسلمة، وتم محاصرة السفارة الأمريكية في القاهرة من قبل المتظاهرين، كما انتشرت موجاتُ شغبٍ في العالم خلّفت نحو 50 قتيلاً.

يُظهر الفيلم عداءً واضحاً للمسلمين، وقد نُشِرَ على موقع يوتيوب بهدف الترويج لفيلمٍ طويل، ووصفته مجلة "Vanity Fair" في أحد مقالاتها بأنه "ليس إلا فيلم هواة؛ حيث تبدو حواراته غَيرِ مترابطة؛ كما أنّ الطريقة التي حُرر فيها الفيلم تبدو متقلبة، وأداؤه ميلودرامياً حتى في اللقطات الصامتة. من الواضح أنّ هدف الفيلم كان الإساءة إلى المسلمين عن طريق تصويرِ النبي محمدٍ بأنه مجرمٌ متعطشٌ للدماء، وزيرُ نساءٍ ومنجذبٌ جنسياً للأطفال وذو رغباتٍ جنسيةٍ متنوعة."[3]

أثارت الأخبار التي تم تداولها عن الفيلم إشاعاتٍ كثيرة في مصر؛ فقد ذكرت بعض المواقع الإسلامية أنّ مقطع الفيديو هذا هو ترويجٌ لفيلمٍ طويلٍ مدته ساعتان سيُعرض مجاناً بجميع دور السينما في الولايات المتحدة الأمريكية بتاريخ الحادي عشر من أيلول (الذكرى السنوية لهجمات أيلول/سبتمبر 2001). يقول

صابر إن الكثير من أصدقائه سألوه عن الفيلم، ويضيف أن الشائعاتِ التي درات حول الفيلم غيرُ صحيحة، فأراد أنْ يوضح الصورة، فقال:

"قمت بمشاركة هذا الفيلم على الإنترنت لشرح قصته الحقيقية، وليس بهدف إهانة المسلمين، حيث أنّ الفيلمَ كان مجرد قصةٍ مزيفةٍ، وأنّ مقطع الفيديو الذي نُشِرَ رديءَ التصوير أكثر من كونه فيلماً وذو جودة منخفضة؛ كما أنّ القصة كانت بالغة السوء."

بعد أيام قليلة انتشرت صورة صابر، ورقم هاتفه، وعنوان منزله على شبكات التواصل الاجتماعي، فيقول:

"راح الناس يتصلون بي ويرسلون لي رسائل يهددوني فيها بقتلي وبمعاقبتي من قبيل: "سوف نأتيك إلى منزلك." كما زعموا أنني أسيءُ إلى الإسلامِ، وأشياءَ أخرى مشابهةٍ. أجبتهم أنّ هذا غير صحيح، وبأنني لا أسيء للإسلام، وأنّ لدي مدونةً وبإمكانهم قراءة كتاباتي ومشاهدة مقاطع الفيديو التي قمت بنشرها، وشرحت لهم بأنّ كل ما أقوم به هو المقارنة بين الأديان لأنني درست الفلسفة والديانات؛ وهذا سبب مناقشتي لها."

اجتمع حشدٌ من نحو 200 إلى 300 شخص أمام منزل صابر، مما استدعى اتصاله بالشرطة؛ لكنهم لم يهتموا بذلك بادئ الأمر، ولكن وبعد مضي نصف ساعة بدأ الحشد بتحطيم باب منزله، فاتصل الجيران بالشرطة مرات عدة، واعتقلت الشرطةُ صابر فور وصولهم، واتُّهموه تحت المادة 98 من قانون العقوبات المصري التي تجرِّمُ استخدام الدين "لشحن الأفكار المتطرفة بنية إحداث العصيان، أو إهانة ديانةٍ إبراهيمية، أو إضعافِ الْلُحمة الوطنيةِ،" ووفقاً لعريضة الاتهام ذُكر أنّ صابر قام "بإهانة الله، والتشكيك بكتب الديانات الإبراهيمية، وإنكار وجود الله وخلقه للبشر،" وتمت إدانته، وحُكِمَ عليه بالسجن لثلاث سنواتٍ، ليُفْرَجَ عنه بكفالة مالية سافر بعدها إلى سويسرا.

من الصعب تجنب الدين في الشرق الأوسط، حتى بالنسبة لمن يحاولون ذلك، فمآذن الجوامع تصدَح بالأذان للصلاة، كما أنّ لِحى الرجال، وخُمُرَ النساء، والاستخدام المستمر للمصطلحاتِ الدينيةِ في الأحاديثِ اليوميةِ تظهر مقدار الالتزام الديني في هذه المنطقة.

إنّ لمعظمِ الدول العربية ديانةٌ رسميةٌ وقوانين تمت صياغتها تبعاً لمفاهيمَ دينية، ويُعتبر الانتماء الديني في بعض الدول أمراً بالغَ الأهمية لدرجة ذِكره في الهويةِ الشخصيةِ؛ كما أنّ الخياراتِ مقصورة على الديانات المعترَفِ بها رسمياً؛ وفي بعض الأحيان ليس هنالك مجالٍ للاختيار بين الديانات أصلاً، حيث تقرر الدولة ديانة الفرد تبعاً لدين والديه، كما يُعتبر تغيير ديانة الفرد من ديانةٍ إلى أخرى أمراً صعباً، وربما غير قانوني، كما أنّ الزواج في مراسمٍ لا دينيةٍ يمكنُ أنْ يكونَ مستحيلاً دونَ السفر إلى الخارج.

لاستحواذَ الدين على الناس في الشرق الأوسط جذورٌ تاريخية؛ فقد وُلدت ثلاث دياناتٍ رئيسيةٍ في هذه المنطقة؛ هي الإسلامُ والمسيحيةُ واليهودية. تدّعي جميع هذه الديانات أنّها على علاقةٍ خاصةٍ مع كائنٍ عظيمٍ يتصف بأنه أزلي كلّيّ القُدرَةِ ومطلقُ الحكمةِ؛ لكنّ البشر العاديين لا يستطيعون رؤيته. تُنافس هذه الديانات التوحيدية بعضها بعضاً بالرغم من القواسم المشتركة فيما بينها؛ كما أنّ هنالك تنافساً بين الطوائفِ الموجودةِ في الديانة الواحدة، وتأويلات متضاربة لإرادة الله من قبل أولئك الذين يدّعون معرفة الحقيقةِ المطلقةِ، مما أدى إلى سفك الكثير من الدماء على مرّ العصور.

في الدول التي تَمتازُ بالتنوع الديني كلبنان وسورية والعراق، يتم التقسيم الطائفي تبعاً للجغرافيا ومكان الولادة والمعتقد، وتتم الإشارة إلى القرى والبلدات والأحياء تبعاً للطائفة السائدة فيها: فهناك السنية والشيعية والمارونية والدرزية والعلوية...إلخ. إن السؤال الذي يسأله اللبنانيون مثلا عندما يريدون التعرفَ على بعضهم بعضاً: "من أي منطقة أنت؟" يُعتبر الطريقة المؤدبة للسؤال عن الديانة أو الطائفة أو الآراء السياسية أحياناً.

هذا لا يعني أنّ العرب ذاتهم لم يطرحوا تساؤلات عن الدين وتأثيره القوي في الشرق الأوسطُ، حتى من بين الذين لديهم ميولٌ دينية. إنّ الدعوة إلى حرية المعتقد والدولة العلمانية والقضاء على الطائفية لا تعني بالضرورة أنّ من يدعو لذلك يفتقر إلى الإيمان، وقد ازدادت النقاشات التي تخص هذه المواضيع بعد اندلاع الثوراتِ العربية.

ولكن ماذا عن هؤلاء الذين يريدون الهروبَ من الدّين هروباً كلياً؟ إنّ العرب غير المؤمنين والملحدون واللاأدريون هم جزء من ظاهرةٍ جديدةٍ، ولكن أعدادهم في ازدياد، وقد ارتفع صوتهم مؤخراً وبدأوا بالظهور بفضل الإمكانيات التي أتاحتها شبكة الإنترنت، وهم لا ينادون بحرية الدين فحسب بل بالتحرر من الدين كلياً، وهذه خطوة أكثر راديكالية بكثير.

إنّ الإيمان بالله أو عدم الإيمان به، وممارسة الشعائر الدينية أو عدم ممارستها هي مسائلُ داعبتْ أحياناً عقول الملايين من الناس قبل اتخاذ القرار بسنوات. يُعتبرُ هذا الأمر قراراً شخصياً في مناطقَ كثيرة من العالم ولا يحق لأحدٍ التدخلَ فيه، ولكن في المجتمع العربي يُعتبَر التصريح العلني بالكفر بالله، أو برفض الدين أمراً صادماً، أو خطيراً في بعض الأحيان، ونتيجةً لذلك اختار الكثيرون إبقاء إلحادهم طي الكتمان لعدم إغضاب أسرهم.

ويتبنى من لديهم الجرأة للمجاهرة بإلحادهم اللغةَ التي يستخدمها المطالبون بحقوق المثليين جنسياً، ويقولون إنّ هذا الأمر سيتكشّف ويبرز أكثر في المستقبل. هنالك تشابه بين الإلحاد والمثلية الجنسية؛ حيث تُعتبر من المحرمات في المجتمع العربي ولها ذات العواقب في حال الإعلان عن أيّ منها، ويمكن أن يؤدي ذلك إلى النفي من قِبَلِ العائلةِ والأصدقاءِ والمجتمعِ المحليِ، فضلاً عن الاصطدام بالقانون.

من الطبيعي أن تقلق العائلات المتدينة عندما تعرف أنّ أحد أحبائهم قد قُدِّرَ له أنْ يُعاقبَ بالدخول إلى الجحيم، وبالنسبة للعربي الذي ترك الإسلام؛ هناك بعض التعقيدات الأخرى التي عليه مواجهتها، فالدين

في الوطن العربي لا يُعتبر مجرد مسألة إيمانٍ أو كفر، ولا يُنظَر إليه بالضرورة على أنّه حريةٌ شخصية، كما أنّ للإسلام مناحٍ اجتماعية قوية مبنية على مصطلح الأمة، وأقصدُ بها مجتمع عموم المؤمنين، ويميل هذا المجتمع إلى النفورِ من التعبير عن الحرية الفردية، والشذوذ عنه، حيث يجب على الأفراد أنْ يتجمعوا ويتصرفوا – أمام العامة على الأقل – بطرقٍ تتماشى مع روحِ المجتمعِ الإسلامي، وعندما يتصرفُ الفردُ بشكلٍ لا يتوافقُ مع قواعدِ السلوكِ العامة – وخاصةً إذا ما جاهر بذلك – فسيُنظَرُ إليه على أنه مُدَمِرٌ لتماسك المجتمع وتضامنه.

زِدْ على ذلك أنّ الدينَ في الشرق الأوسط غالباً ما يشكلُ مكوناً أساسياً في شعورِ الناسِ بالهويةِ؛ ففي استطلاع رأيٍ أُجري في ستّ دولٍ عربيةٍ وَجَدَ المستطلعون في أربعٍ منها وهي الأردن والمغرب والسعودية والإمارات أنّ مصطلحَ "الهويةِ الإسلاميةِ" يتقدم على مصطلحِ "الهويةِ الوطنيةِ"، و"الهوية العربيةِ"، أما في مصر ولبنان فقد أتت "الهوية الوطنية" في المقدمة بحسب الاستطلاع نفسه[4]. إنّ هذا الأمر يضفي بُعْداً سياسياً لدور الدين في المجتمع العربي، حيث يُعتَبرُ الإحياء الإسلامي وصعود الحركاتِ الإسلامية في أواخر القرنِ العشرين إحدى الوسائل الدفاعية، أو بمعنىً آخر، تُعتبرُ ردةَ فعلٍ على تهديدٍ حقيقيّ من الخارج عموماً، ومن الغرب خصوصاً.

تعود بداياتُ هذه النزعة إلى الهزيمة المدويّة التي تلقاها العرب في حرب 1967 ضد إسرائيل، حيث كان لتلك الهزيمة صدمة نفسية كبيرة، واعتبر الإسلاميون انتشارَ القوميةِ والعلمانية والابتعادَ عن الطريقِ المقدّسِ أحد أهمَّ أسباب تلك الهزيمة، وقد عززت الكثير من الأحداث اللاحقة الأخرى فكرةَ أنّ وقوف الله إلى جانب المسلمين تجعل خسارتهم في حروبهم أمراً مستحيلاً، ومن الأمثلة على ذلك الثورة الإسلامية في إيران ونجاح "المجاهدين" في دحر القوات السوفييتية في أفغانستان في أواخر الثمانينياتِ من القرنِ العشرين وانسحاب إسرائيل من جنوبِ لبنان الذي اعتبرته حركةُ المقاومةِ الشيعية "حزب الله" انتصاراً لها.

إنّ التركيزَ على المظاهر الخارجية هو أحدُ نتائجِ اعتبار الدين سمةً من سمات الهويةِ، فلكي نربط الدين بالهوية ربطاً وثيقاً، لا بدّ من التعبير عن الدّين بشكل واضح، ومن العلامات المميزة لذلك هو ازديادُ عدد النساء اللواتي يرتدين الحجاب مقارنةً بعددهنّ في خمسينيات وستينيات القرنِ العشرين، كما يؤدي ذلك إلى التركيز على أدقّ تفاصيل الشعائرِ الدينيةِ، فغالباً ما توصف قواعدُ السلوك الصحيحةِ في الإسلام بأدقِ تفاصيلها وبالاستناد إلى أبسط أدلة من القرآن، وينطبق هذا الأمر على مستوى المجتمع بمحاولاتٍ لوضع قواعدَ إسلاميةٍ واضحةٍ في المجال العام؛ إما من خلالِ الاقتداء بالأقران، أو عن طريقِ فرضها بالقوة.

أضِفْ إلى ذلك مشكلة الرُهاب من الإسلام (الإسلاموفوبيا) والتي انتشرت خصوصاً بعد هجماتِ تنظيم القاعدة في نيويورك وواشنطن في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر سنة 2001، كما أنَّ تصويرَ كلّ مسلمٍ على أنّه إرهابيٌ مُحتمل، وحَجزَ المشتبهِ بهم في معتقل "غوانتنامو"، والاعتداءاتِ المتكررةَ ضد المسلمين، والتمييز الممارَس بحقهم أدى إلى خلق حساسيات كثيرة، وعزز من المزاعم القائلة بأنّ المسلمين عموماً معرضون للاعتداء. وفي مناخٍ كهذا سوف تُفهم محاولات التشكيك بالقرآن وتعاليمه على أنها ضربٌ من التحريض.

إنّ ما سبقَ يوقعُ العربَ الذين يقرّرون الإلحاد في مشاكلَ جمّة، فهناك الصراع الفكري بين الإيمان والإلحاد، لكن لا يمكن ببساطةٍ فصلُ هذا عن المشاكل الأخرى المرافقة للدين في الشرق الأوسط. إنَّ العرب الذين يتخلون عن الإسلام يُتّهَمون بأنهم يخونونَ هويتهم وثقافتهم، والملحدون عندما يؤكدون على حقهم في الإلحاد فهم يؤكدون على حقهم في حرية التفكير والاعتقاد، وهو حق يملكه الجميع، حتى الأفراد الأكثر ورعاً وتقوى.

يُعتبر جميعُ المواطنين في المملكة العربية السعودية مسلمين رسمياً سواءً راق لهم ذلك أم لم يرق، ويُمنع ممارسة أيّةِ ديانة أخرى هناك، وتحاول السلطات السعودية أنْ تصور المملكةَ على أنها بلدٌ وَرِعٌ وتقيّ إلى حدٍّ يُفرَضُ فيه على أصحاب المحالِّ التجارية إغلاقُها في أوقات الصلاة، كما يتوجب على السعوديين التقيُّدَ بقوانينِ اللباسِ والسلوك الإسلامي. غير أنّ استطلاعاً للرأي أجراه معهد "WIN/Gallup International" الدولي زعزع مزاعم المملكة بالقداسة، وقد دار الاستطلاع حول الدينِ والإلحادِ، وشمل 57 دولةً من بينها المملكة العربية السعودية، وأظهر أنّ 19% ممّن تمَّت مقابلتهم في السعودية قالوا أنهم غير متدينين كما وصف 5% منهم أنفسَهم أنّهم مقتنعون بالإلحاد[5]، وقد كانت نسبة الذين عرَّفوا عن أنفسهم في المملكة العربية السعودية بأنهم ملحدون، الأعلى بين جميع الدول الإسلامية التي شملها الاستطلاع. توضح هذه الأرقام – إنْ صحَّتْ – أنّ ربعَ سُكان المملكة على الأقل ممن يسكنون في المدن التي أُجري فيها الاستطلاع ليس عندهم أيَّ اهتمامٍ معيّن بالدين، وأنّ شخصاً من بين كلِّ عشرين شخصاً ليس ملحداً فحسب وإنما على استعداد للإفصاح عن إلحاده أمام القائم على استطلاع الرأي ذاك؛ رغم اعتبار الاعتراف بالإلحاد واحدةً من الجرائم التي يُعَاقَبُ عليها بالإعدام في المملكة العربية السعودية.

وعلى إثر الاستطلاع راح رجال الدّين في المملكة يفكرون مليّاً في كيفية وضع حدٍّ لانتشار الإلحاد بدلاً من مناقشة نتائج الاستطلاع كما يُفترَضُ بهم فعله، واستهلَّتْ مقالةٌ نُشِرَت في صحيفة "الوطن" السعودية بما يلي:

> "علينا محاربة ظاهرة الإلحاد عن طريق إطلاقِ مبادراتٍ تقضي عليها في براعمها، وذلك قبل أنْ تستفحل في قلوب أبنائنا وبناتنا، ولا يمكننا تنفيذ ذلك إلا بإطلاق حملةٍ وطنيةٍ شاملة. إنَّ الشباب السعودي ينغمسون في مستنقع الإلحاد المظلم عند تصَفّحِ مواقعِ

التواصلِ الاجتماعي فيقرؤون ما يكتبه الملحدون؛ كما أنَّ الطلابَ المبتَعثين الذين يدرسون في الجامعات الغربية يخوضون حواراتٍ حول الإلحاد مع أساتذتهم."

واختُتمَتِ المقالة بالدّعوة إلى وضع خطّةٍ استراتيجيّة وطنيّةٍ لمحاربة الإلحاد وحماية الدّين حيث تقول:

"ما يحدث اليوم في الساحة من جهودٍ للتصدي للملاحدة الجدد، إنما هي مبادراتٌ فردية محدودة، والقضية تحتاج لوقفة المجتمع كلّه، لا أنْ تُترَكُ لفُرادى الدعاةِ واجتهادات طلبة العلم العشوائية على فضلها ونفعها وخيريّتها، ولكنها محدودة التأثير. لا بد لهذا الملفّ من استراتيجيّةٍ وطنيّةٍ تتبناها المؤسسات الشرعية في بلادنا وتقوم بدورها وواجبها في حماية دين الله، فكما قمنا بحملة ضد التطرّف الديني، وكشف منابعه وجذوره، علينا اليوم كمجتمع التصدي لظاهرة التطرف المضاد المتمثل في هؤلاء الملاحدة الجدد. لعلَّ وزارة الشؤون الإسلامية ووزيرها الفاضل معالي الشيخ صالح آل الشيخ، يتبنى هذه المسؤولية، عبر وضع استراتيجيات كُبْرى، لحمْلة مركّزة ضد الإلحاد القادم، والاستعانة بخبراء متخصصين في التخطيط، إنْ كان بإنشاء مراكز متخصصة في محاورة الشباب، وإشهارها إعلاميا كي يسهل الوصولُ إليها، أو ببث برامج تلفازية في القنوات العامة .... أميل إلى إنشاء قناة فضائية متخصصة، والتركيز على إنتاج برامج علمية تناقش بأسلوبٍ عصريّ كل الشُّبَهِ التي يلقيها شياطين الإلحاد على شبابنا... إنّ معالجة الداء في بداياته أسهل بكثير قبل أنّ يستفحل كالسرطان في الجسم، ونندم حينها على عجزنا، ولات ساعة مندم."[6]

قد تبدو دعوة كاتب المقال إلى معاملة الإلحاد معاملةَ الإرهاب أمراً مثيراً للسخرية بعض الشيء، لكن السلطات السعودية كانت قد بدأت بدراسة هذهِ الفكرةِ بجدية، حيث أعلنت في شهر كانون الثاني/يناير

سنة 2014 عن قانونٍ فضفاض جديدٍ ضدّ الإرهاب يحظُر الدعوة إلى الإلحاد بأيّ شكلٍ كان، كما يحظر التشكيك في أساسياتِ الدين الإسلامي التي بُنيت عليها المملكة[7].

تعتبر مساواةُ الإلحاد بالإرهاب في المصطلحات السعودية أمراً فيه بعضُ المنطقِ لأن الإلحاد يشكل تهديداً للمبادئ الأساسية للدولة السعودية، فالقانونَ الأساسي لسنة 1992، أو ما يشبه الدستور، يربط وبقوة ما بين الإسلام والدولة:

المادة الأولى (1): "المملكةُ العربية السعودية" دولةً إسلاميةً ذاتَ سيادةٍ تامة، دينها الإسلامُ ودستورها كتابَ اللهِ تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم...

المادة السادسة (6): يبايع المواطنون الملكَ على كتاب الله تعالى، وسنة رسوله، وعلى السمع والطاعة...

المادة السابعة (7): يستمد الحكمُ في المملكة العربية السعوديةُ سلطتَهُ من كتاب الله تعلى، وسنة رسوله.

المادة الثامنة (8): يقوم الحكم في المملكة العربية السعوديةُ على أساس العدل والشورى والمساواة وفق الشريعة الإسلامية.

المادة التاسعة (9): الأسرة هي نواة المجتمعِ السعوديِ، ويربّى أفرادها على أساس العقيدة الإسلامية.

المادة الحادية عشرة (11): يقوم المجتمع السعودي على أساسٍ من اعتصامِ أفرادِه بحبل الله، وتعاونهم على البرِّ والتقوى، والتكافل فيما بينهم، وعدم تفرقهم...

المادة الثالثة عشرة (13): يهدف التعليم إلى غرس العقيدة الإسلامية في نفوس النَّشْء...

المادة الثالثة والعشرون (23): تحمي الدولة عقيدة الإسلامَ، وتُطَبِقُ شريعته، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتقوم بواجب الدعوة إلى الله[8].

لا يستطيع الملحدون تقبُّلَ ذلك إذا ما أرادوا التمسك بمبادئهم، كما لا تستطيع المملكة قَبُولَ الإلحاد دونَ تغيير الأساسات التي بُنيت عليها، ومن الصعب تَوقُّعُ حلٍ لهذه المشكلة دونَ إحداث تغيير سياسيٍ جذريٍ.

تَعْلمُ الحكومة السعودية أنّ بإمكانها التأثير في تفكير الناس لكنها لا تستطيع التحكم به تحكماً مطلقاً، لذا فهي تستمر في فرض قواعدَ سلوكٍ إسلامية وفي نفس الوقت تُسْكِتُ أصوات غير المؤمنين، غير أنّ بعض رجال الدين يشككون في نجاح ذلك على المدى الطويل.

يقول غازي المغلوث الأستاذُ في قسم الثقافةِ الإسلاميةِ في جامعة الأحساء في حديثه لصحيفة Saudi Gazette: "سيكون لقمع الملحدين ومهاجمتهم نتائجُ عكسيةٌ على الأرجح، حيث سيؤدي ذلك إلى تصرف الشبابِ بعنف، فضلاً عن زيادة تعلقهم بالإلحاد، ولذا فمن المهم جداً أن نحاورهم وتناقشهم بطريقة ودية، فالفوز بالقلوب أهم من احتلال المدن."؛ في حين دعا يوسف الغامدي أستاذ العقيدة في جامعة أم القرى إلى الدخول في حوارات "مقنعة ومؤثرة" مع هؤلاء الشباب، ويرى أنّ "الإلحادَ ظاهرةٌ فكرية لا سلوكية، لذا يجب التعامل معها بطريقة فكرية.[9]

كما أنّ السعوديين راحوا يتساءلون عن سبب ظهور الإلحاد في المملكة، فبعضهم ألقى بكامل اللوم على التأثير الغربي والاختراعات الحديثة مثل ألعاب الفيديو، لدرجة أنّ أحدهم يرى "أنّ أعداء الإسلام يستخدمون هذه الحيلة لتضليل الأطفال السعوديين عن طريق الألعاب التي تروّج للإلحاد والشّرك وتهدف إلى حرفهم عن دينهمِ."[10]

إحدى النظريات الأخرى، والتي تبدو معقولةً أكثر، ترى أنّ سبب ابتعاد السعوديين عن الدين هو الطريقة التي يُدَرَّسُ فيها هذا الدّين والمواقف الرجعية وغالباً الرجعية بشكل هزليّ، والتي تصدر عن الكثير من رجال الدين في المملكة، فقد أشار أحد الكتّاب في صحيفة المدينة إلى إجبار طلاب المدارس على حفظ قوائم طويلة من المحرمات، ولكن عندما يتركون المدرسة يجدون أنّ الكبار يخرقون هذه القوانين باستمرار. يقول الكاتب:

"بينما يكبر أطفالنا يشاهدون تناقضاً كبير بين ما يتعلمونه في المدرسة، وبين ما يشاهدونه في الحياة العملية؛ فهم يشاهدون البالغين يرتكبون يومياً تصرفات تتنافى مع الإسلام، فمثلاً يلاحظ الطفل والدَه يتكاسل عن الذهاب إلى المسجد لأداء الصلاة عند سماعه الأذان؛ غير أنّ هذا الطالب يتعلم في المدرسة أنّ عدم تأدية الصلاة على وقتها يعتبر نوعاً من الكفر، كما يتعلم الطلاب والطالبات أنّ الترفيه حرامٌ، في حين أنّهم يشاهدون عدداً كبيراً من الرجال والنساء الذين يذهبون إلى حدائق التسلية أو حتى يسافرون خارج المملكة لغرض الترفيه."[11]

يعتقد الملحدُ السعوديُّ عمر هادي أنَّ نسبة المرتدين عن الدين ربما تكون أعلى مما ظهر في استطلاع الرأي الذي أجراه معهد "WIN/Gallup International"؛ رغم أنّ بعض الذين جاهروا بتخليهم عن الدينَ قد قاموا بذلك "كردة فعل عكسية" للقيود المشددة التي يفرضها المجتمع السعودي على المواطنين، ويرى عمر، (اسمه مستعار)، أنه إذا ما انتقل ذاتُ الأفراد إلى بلاد الغرب فلربما يعودون إلى الإسلام من جديد، ويضيف قائلاً:

"إنّ الشكوك التي انتابتني هي في ازدياد بسبب الطريقة التي تعلمنا بها، ورغم المحاولات المتكررة لتقديم الشرح الكافي لكنها لم تكن منطقية، وحينئذ أمرونا أن نغلق أفواهنا وأن

نقبل الأمر كما هو. عليهم إقناعُنا من خلال تدريس الدين بطريقة فيها لباقة أكثر، ربما تنجح هذه الطريقة مع أغلب الناس، ولكن سوف يبقى هناك بعضٌ ممن لن يقتنعوا البتة. أنا أفهم المعضلة التي تواجههم، ففور شروعهم في إصلاحه سيبدو الدين بشرياً أكثر من كونه إلهياً وبالتالي سيفقد قداسته."[12]

ويضيف عمر أن الكثير من رجال الدين السعوديين فقدوا كثيراً من مصداقيتهم عندما رفضوا الاختراعات التكنولوجية بادئ ظهورها، ومن ثم تراجعوا عن ذلك عندما أثبتت تلك الاختراعات جدواها وفائدتها للناس. فيقول:

"أعلن الكثير من رجال الدين السعوديين قبل عشرين عاماً مضتْ أن جميع أنواع التصوير محرمة، وأنّها ذنبٌ، وسوف تحشر في النار إذا التقطت صورة لك. أعرف كثيرين ممن قاموا بالفعل بحرق جميع صورهم، لكن بعد مضي عشرين عاماً ظهر رجال الدين هؤلاء على التلفاز وفي الصحف المطبوعة وهم يقولون: ربما لا يُعتبر التقاط الصورِ ذنباً عظيماً. ماذا إذاً عن الأشخاص الذين قاموا بحرق صورهم؟"

يُظهِر أغلب علماء الدين تطرفاً وعدوانية شديدة أمام أي اختراع جديد في بادئ الأمر، وينطبق هذا على الهواتف النقالة المزودة بكاميرا وعلى أشرطة الكاسيت ومشغلات الفيديو. يقول عمر: "لديَّ نسخةٌ من فتوى تحريم استخدام الهواتف المزودة بكاميرا، لكن الجميع يملك اليوم هذه الهواتف، إنّ هذا التناقض في كيفية التعامل مع الاختراعات الحديثة هو ما يدفع إلى الشك في كل شيء آخر يقوله رجال الدين هؤلاء."

في يومنا هذا، تلْقى العبارات التي يطلقها علماء الدين اهتماماً عند جمهورٍ أكبرَ من ذي قبل، وهي تكشف لديهم جهلاً أو انفصالاً عن الواقع، حيث تتناقل وسائل الإعلام الرسمية عن المواقع الإلكترونية الدينية تلك العبارات مما يؤدي إلى أخذها من قبل القارئين على محمل الجد. تنقل وسائل الإعلام

السعودية أحياناً تصريحاتِ رجال الدين بتجرد، وأحيانا بآراء متناقضة، ولكن يبدو أنّ هذه التصريحات المرفقة بالتقارير تقدم نوعاً من التسلية، مما يظهر رجال الدين هؤلاء بصورةٍ مُضحكة، وما أنْ يتم نشر كلماتهم على وسائل الإعلام الرسمية حتى تصبح تحت رحمة وسائل التواصل الاجتماعي.

أثناء انتشار فايروس "كورونا" في المملكة العربية السعودية، نشرت جريدة الحياة تصريحاً لعبد الله العمراني، وهو أحد مشايخ مدينة تبوك ادّعى فيه أنه اكتشفَ علاجاً للفايروس أثناء أبحاثه في "الطب النبوي." رفض العمراني البوح عن طبيعة العلاج ولكنه أضاف قائلاً إنه استعمله لعلاج الإيدز وسرطان الدم (اللوكيميا)[13] ونجح العلاج، على إثر ذلك اقترح مستخدمو موقع تويتر على العمراني أن يترك الطب ويتفرغ للدين، أثناء ذلك، تساءل رجلُ دينٍ سعوديٌ بارزٌ حول ما إذا كان بالإمكان اعتبار المتوفين نتيجةً لمرض "كورونا" شهداء أم لا، لكنه أعلن بعد ذلك أنهم لا يعتبرون شهداء إلا في حال أعلنت منظمة الصحة العالمية أن الفايروس أصبح وباءً.

في مناسبةٍ أخرى، ادّعى الشيخ صالح بن سعد اللحيدان، وهو أحدُ المعارضين للحملة التي تسمح للنساءِ السعوديات بقيادة السيارات، بأن بحثاً علميًا قام به أظهر أن قيادة السيارة تؤثر على مبايض النساء كما أنها تؤدي أيضاً إلى تَلَفٍ في الحوض. هذا هو السبب، كما يقول الشيخ، أن النساء اللواتي يقُدْن السيارات بشكل مستمرٍ يلدْنَ أطفالاً مصابين بخلعٍ ولاديٍ بنسب مختلفة. أما قناة العربية، القناة الإخبارية المملوكة من قبل المملكة العربية السعودية، فقد نقلت بدورها تصريحات الشيخ مرفقةً ببعض التصريحات الساخرة المنشورة على موقع تويتر بالإضافة إلى تصريحٍ لرئيس الشرطة الدينية قائلاً: "لا تتضمن الشريعة الإسلامية نصاً يحرم قيادة المرأة للسيارة."[14] وبدوره قام الفنان الكوميدي هشام فجة المولود في السعودية بالتهكم على ادعاءات اللحيدان بخصوص تضرر مبايض النساء وذلك في أغنية أداها برفقة

صديقيه بعنوان "لا أيتها المرأة، لا لقيادة السيارة"؛ وتم غناؤها على موسيقى أغنية "بوب مارلي": "لا أيتها المرأة، لا للبكاء"، وحصدت الأغنية أكثر من 11 مليون مشاهدة عندما نُشِرَتْ على موقع يوتيوب[15].

ووفقاً لمقالةِ رأيٍ نُشرتْ في صحيفة الوطن، تعتبر المحاورات التي يجريها الطلاب المبتَعثون للدراسة في الخارج مع أساتذتهم في الجامعات الأوربية إحدى العوامل الرئيسية الأخرى التي قادت الشباب السعودي إلى "مستنقع الإلحاد المظلم،"[16] ويعتبر هذا التصريح نقداً مبطناً لأحد مشاريع الملك عبد الله: "برنامج الملك عبد الله للمنح الدراسية" الذي لم يستطع نيلَ ودِّ رجال الدين والمتشددين السعوديين. تم افتتاح المشروع سنة 2005 بكلفة سنوية تصل إلى 9 مليار ريال سعودي؛ ويقدم دعماً مالياً لنحو 125000 طالبٍ سعوديٍ للدراسة في جامعات خارجِ حدود المملكة، وتقع أغلب هذه الجامعات في "الولايات المتحدة الأمريكية، وتُقدر نسبةُ الطالبات الإناث في برنامج المِنَح الدراسية بنحو 30%. تم تفسير هذه الخطوة رسمياً على أنها استثمار للمستقبل الاقتصادي في المملكة، أي لخلق قوة عملٍ متعلمةٍ ومتقدمةٍ والتي بالنتيجة تؤدي إلى تخفيف الاعتماد على الخبرات الأجنبية إلا أنها تؤدي أيضاً إلى تعزيز التغيير الاجتماعي من خلال اطّلاع الشباب السعودي على ثقافات أخرى وهو ما يعارضه المحافظون.

قالت صحيفة "Saudi Gazette" في إحدى مقالاتها: "من خلال وجهة نظر الآخرين إلى ثقافتك يمكنك معرفة القيمة الحقيقية لتلك الثقافة". وقال الطلاب الذين شاركوا في برنامج المنح الدراسية للصحيفة أنّ البرنامج ساعدهم على "تَقَبل الأفكار والأشخاص المختلفين" كما أنه علمهم "حقيقة التفكير النقدي،" ولكنه أدى أيضاً إلى زيادة سخطهم عند عودتهم إلى المملكة. كما أن أحد الطلبة الذين درسوا القانون في الخارج علق قائلاً: "تفرض عليّ مهنتي التعامل مع أكثر الأنظمة القانونية رجعيةً في العالم، ذلك النظام الذي يتطور بخطوات بطيئةٍ جداً". كما علّقتْ إحدى الطالبات أنه "من الصعب التأقلم مع الفوضى الموجودة هنا (في المملكة العربية السعودية) بعد الاعتياد على أسلوبٍ آخرَ أكثرَ تحضراً في الخارج."[17]

بدوره شبَّه سعود القبلي، وهو عالِمٌ سياسيٌ وصحفي في جريدة الوطن، برنامجَ البعثاتِ السعودي ببرنامج البعثات التعليمية التي أطلقها محمد علي باشا إلى أوربا في عشرينياتِ القرنِ التاسع عشر والذي ساعد في بناء مصر الحديثة وشكّل فيما بعد الدافع الرئيس لقيامِ النهضة العربية، فيمكن لأي شخص يزور المملكة اليوم أن يرى الشبابَ السعوديَ وقد أصبح أكثرَ ثقةً بنفسه ومنفتحاً بشكل أكبرٍ على العالم وأكثر تقبلاً للمُثُلِ العالميةِ. يقول سعود القبلي: "يُعتَبرُ الشبابُ السعوديُّ قوةَ التغيير الخفيّةِ، ومما لاشك فيه سوف أنها ستغيّر المجتمعَ في السنين القادمة، وكما يبدو أن الحكومةَ تلاحظ هذا التغيير وتستفيد منه على أمل أنْ يأتيَ هذا التغيير بشكل تدريجي بدلاً من أن يُفْرَضَ من الأعلى."[18]

لا شكّ أن الانفتاح الذي وفّره برنامجُ البعثات قد أثَّر في وجهاتِ النظرِ الدينيّة لبعض الطلبة المشاركين في برنامج المنح الدراسية. يقول عمر هادي: "عندما تَكبرُ وتترعرعُ في السعودية يتم تشريْبُكَ فكرة أنَّ غير المسلمين هم كائناتٌ شريرة، وأنهم سوف يذهبون إلى الجحيم، وأن كل فردٍ غيرَ مسلمٍ يتربَّصُ بك، لكن عندما تذهب وتعيش معهم وتأكل وتدرس معهم وتختلط بهم بطريقة طبيعية بسيطة تلاحظ أنهم ليسوا أشراراً. بعد فترةٍ من الزمن يدفعك هذا لأن تقول: "لقد لمستُ الكثير من الكرم واللطف في هؤلاء الناس لدرجةٍ تجعل من الصعب التصديق أنهم سيُحْشَرُوْنَ في جهنم."

دَفَعَتْ مخاوفُ تأثير برنامج البعثات الدراسية على المجتمع السعودي أحدَ المشايخ السعوديين إلى الادّعاء بأنَّ "السفرَ إلى بلاد الكفر لغرضَ العمل أو الدراسة حرامٌ شرعاً، إلّا في حالات الضرورة القصوى وبشروطٍ محددةٍ، وبأن من يموت في تلك البلاد قد يُحشر في جهنم." وبدوره قال الشيخ عبد الله السويلم الذي يعمل في برنامج إعادة تأهيل المساجين المؤيدين للقاعدة لصحيفةِ الحياة أن الشرطَ الأولَ للسماحِ بالسفرِ إلى الخارج هو أنْ يكون الفرد "ذا إيمانٍ راسخ" وأن يتمتع بحصانةٍ دينيةٍ تمنعه من الوقوع في

"الشهوات"، وأضاف السويلم: "إن كلَّ شخصٍ يخافُ على نفسه من الوقوعِ في المحرمات مثل شرب الكحول، عليه ألا يُسافر إلى بلاد الكفر إلا في حالات الضرورة."[19]

تُعتبر المملكة العربية السعودية ضحيةً لما وصفه "آلفن توفلرAlvin Toffler" "بالصدمة المستقبلية"؛ حيث حوَّلَ اكتشافَ النفط المملكةَ، خلالَ بضعة عقود من القرن العشرين، من إحدى أفقر الدول في العالم إلى واحدة من أغناها، وما تزال المملكة تصارعُ لتتكيف مع ذلك التحول، كما يزداد المجتمع السعودي استقطاباً؛ حيث يشن المحافظون حرباً قد تكون خاسرة ضد انقضاض الحداثة؛ وذلك في ظل غياب النقاش الأكثر عقلانية للحفاظ على الوضع الحالي، ودفاعُهم عن ذلك يأتي باستخدام الدّين وبثّ الخوف من الوقوع في الرذيلة وارتكاب المعاصي.

وباتَتْ خاطئةً تلك الفكرةُ التي تقول: "إن الدين هو الأساس للحفاظ على النظام في المجتمع". حيث ذَكَر "فيل زوكرمان "Phil Zuckerman في كتاب "دليل كامبردج للإلحاد" أنّ "الدوَلَ ذاتَ النسبةِ المرتفعةِ من الملحدين تُعْتَبر من أكثر الدول صحةً وغنىً على مستوى العالم." وألقى "زوكرمان" نظرة على الترتيب العالمي للدول فيما يخصّ المعتقد الديني، وقارنه مع مؤشر الأمم المتحدة للتنمية البشرية، وكانت النتائج صادمةً؛ فالدول الخمس والعشرونَ الأعلى ترتيباً في المؤشر، باستثناء إيرلندا، تحوي نسبة مرتفعةً جداً من الملحدين، في الطرف المقابل، تضمنتِ الدول الخمسونَ، الأدنى ترتيباً في المؤشر، نسباً منخفضةً جداً من الملحدين.

وبشكل تفصيلي أكثر، واعتماداً على بيانات أخرى، وجد "زوكرمان" أنّ:

- من بين الأربعين دولةً الأشد فقراً في العالم، جميعُها باستثناء "فيتنام" متدينة بشكل كبير.
- الدول الخمس والثلاثون التي تتضمن أعلى نسبة أمّيّةٍ بين الشباب، جميعُها دولٌ متدينةٌ بشكل كبير.

- معدّل وفيّات الأطفال الرّضّع هي الأقل في الدول غير المتدينة؛ بينما هي الأعلى في الدول المتدينة.
- الدول العشر ذات المستوى الأعلى في المساواة بين الجنسين دولٌ ملحدةٌ، في حين أنّ الدول التي فيها أقل مستويات المساواة هي دولٌ متدينة.
- الدول ذات المعدّلات العالية من جرائم القتل هي دول متدينة، بينما تميل النسبة للانخفاض لتصل إلى درجاتها الدنيا في الدول الأكثرَ علمانية.

يبدو أنّ معدلات الانتحار في الدول المتدينة تسجل مستوياتٍ منخفضةٍ ولكن قد يرجع سبب ذلك جزئياً إلى محرمات دينية تحُول دون تسجيل بعض حالات الموت على أنها انتحار.

يقدم ما سبق دليلاً واضحاً على أنّ انتشار الإلحاد لا يقود إلى انهيار المجتمع، ولا يدّعي "زوكرمان" أنّ الإلحاد هو المسؤول عن المنافع الموجودة في المجتمعات الأقل تديناً، لكنه استنتج أنّ المجتمع السليم يؤدّي إلى انتشار الإلحاد بينما يؤدي انعدام الأمن الاجتماعي إلى انتشار الأيمان بالله.

في عشرينيات القرن العشرين، اشتكى حسن البنّا، مؤسسُ جماعة الإخوان المسلمين، من موجة الإلحاد والخلاعة التي كانت تجتاح مصر، فالأوربيون، كما يقول: "أسسوا مدارسَ ومعاهدَ علميةً وثقافيةً في قلبِ الجسدِ الإسلامي تقوم بزرع الشكِّ والبِدَعِ في نفوس أبناء الأمةِ الإسلاميةِ[20]."

بحلول سنة 1994 تحوّل اللوم إلى القنوات التلفزيونية الفضائية؛ حيث حذّرتْ وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي في الحكومة الإيرانية من أنّ "هذه البرامج من تدبير الإمبريالية العالمية كجزءٍ من خطةٍ شاملةٍ للقضاء على ديننا وقيمنا المقدسة."[21] غير أنّ معظم اللوم اليوم يُلقى على الإنترنت حيث يُزْعَم أنه ذو قدرةٍ كبيرة على نشر الإلحاد، وتمّ أخذ ذلك كحجةً للتحكم بالفضاء الرقمي، ومعاقبة أولئك الذين يسيؤون استخدام الإنترنت ضد الدين.

يُعتبر الإنترنت أداةً ثمينةً للملحدين ولمجموعات أخرى من المعارضين في الشرق الأوسط؛ حيث يُتيح الوصول إلى أفكارٍ ومعلوماتٍ لا يمكن الوصول إليها محلياً بأية طريقةٍ أخرى، كما أنّ الإنترنت يُمكّن الأفراد من التعبير عن أفكارهم علانيةً، بالإضافة إلى تمكينهم من التواصل مع الآخرين؛ إمّا عن طريق الدخول في نقاشاتٍ معهم، أو من خلال التواصلِ مع أفرادٍ لديهم العقلية ذاتها؛ ويحصل هذا التواصل في الشرق الأوسط غالباً خارج حدود القيود الحكومية؛ مفسحاً بذلك المجالَ للجميعِ بصرفِ النظرِ عن حدودِ المكان أو الوطن.

مما لا شكٌ فيه أنّ شبكةَ الإنترنت هي من الأسباب الكثيرة التي سهّلت انتشارَ الفكر الإلحادي، غير أنّ أصحاب هذا الفكر لا يرون في الإنترنت بحد ذاته السبب في انتشار تلك الأفكار، وإنما مجرّدُ وسيلة. إنّ الجهد المبذول لمحاربة الفكر الإلحادي على شبكة الإنترنت لن يعالجَ أسباب التشكيك بالدين، بل قد يؤدي إلى إثارة المزيد من الفضول لدى أصحاب هذا الفكر، كما أنه لن يسعى وراء تلك المواد الإلحادية إلا أولئك الذين يشعرون أنّ فيها ما يتفق مع أفكارهم؛ أضف إلى ذلك محاولات فرض الرقابة خشية أنْ لا يستطيع الدين الفوز بالنقاش بالمنطق والدليل وحدهما.

يعزو رئيس قسم الإعلام في قناة العربية ناصر الصرامي المشكلةَ الأكبر إلى "المواقف التقليدية" والعجز عن تلبية متطلبات الحاضرِ والأجيال الشابة وعدم تقبل الأفكار الجديدة، والاتجاه بدلاً من ذلك نحو القمعِ ولومِ حريةِ التعبيرِ التي ينادي بها الملحدون. يقول الصرامي:

> "لم تأتِ مواقع الإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي بأيّ جديد، بل كشفت ما كان خفياً عنا بسبب طبيعة ثقافتنا أو مستوى وعينا الثقافي والاجتماعي. إنّ موقعي فيسبوك وتويتر جعلا المجهول معلوماً، كما وفّرا منصةً يستطيع الناس من خلالها التعبيرَ عن

مشاعرهم؛ كما أنه لا يوجد تضليلَ فيها ولا رقابة، وهذه هي لحظة بروز الحقيقة التي كنا نتفادى مواجهتها."[22]

إحدى النقاط الأخرى الجديرة بالملاحظة هي أنّ كمية المواد المنتشرة على الإنترنت والتي تعبر عن الإلحاد تعتبر قليلةً إذا ما قورنت بالعدد الكبير من المواقع الدينية ومنها المواقع الإسلامية والمسيحية التي تتجادل فيما بينها حول فكرة أيُّ الأديان هو الدين الحق.

ترى الأستاذة في قسم الأدب الإنكليزي في جامعة الإسكندرية في مصر عُميرة نويرة أن شبكة الإنترنت سلاحٌ ذو حدّين، فقدِ انتشرت بواسطته الكثير من المذاهب والمعتقدات الدينية التقليدية، كما أنّ الإسلاميين وجدوا في الإنترنت مساحة لصوتهم، وهناك عدد كبير من المواقع الإلكترونية التي تدافع عن الآراء المتزمتة والمحافظة.

أقبلَ المسلمون على استخدام الإنترنت بسرعة كبيرة رغم تحذيرات المحافظين ونهيهم عن الاختراعات الحديثة، وفي السنوات الأولى وجد المسلمون صعوباتٍ تقنية في كتابة صفحات الإنترنت باللغة العربية؛ وبحلول سنة 2000 أصبح لدى أغلب الحركات الإسلامية المعروفة؛ كحركة حماس، وطالبان والكثير من المجموعات والأفراد الأقل شهرةً وجودٌ على شبكة الإنترنت، وأحد أسباب ذلك هو اعتبار هذا النشاط نوعاً من أنواع الدعوة، والتي يعتبرها الكثيرون واجباً دينياً، كما أنّ بعضهم أثارته فكرة تمكن شبكة الإنترنت في يومٍ من الأيام من جمع مليار ونيف من المسلمين حول العالم في مجتمع ديني واحدٍ، أو "أمة رقمية" بشكل لم يحدث منذ الأيام الأولى للإسلام[23].

بدأ الشكوكيون (أو المشككين) العرب بالظهور إبّان تطور مواقع التواصل الاجتماعي، ويقول سلطان سعود القاسمي، وهو أَحَدُ كتابِ الصحفِ الإماراتية البارزين:

"قبل عقدٍ من ظهور فيسبوك وتويتر، كان برنامج "بالتوك" قد انتشر في دول الخليج انتشارَ النار في الهشيم وذلك سنة 1998، فقد كان يقدم خدمة الدردشة بالصوت والصورة؛ وما هي إلا أسابيع حتى برزت عدة غرف دردشة في البرنامج كغرفة "الإنسانية" التي كان يشرف عليها كويتي، وغرفة "غير المتدينين"، وكان الغرض من هاتين الغرفتين مناقشة مواضيع محددة. كما أن أحمد بن قريشان، وهو ملحد إماراتي وواحدٌ من المدونين البارزين في الخليج كتب أن "جميع الديانات تكذب" وأن "بإمكان العلمانية تحرير الناس."[24]

يوجد اليوم نحو مائة صفحة على موقع فيسبوك تحتوي على كلمة ملحد في عنوانها، بالإضافة إلى عشرات الصفحات التي تستخدم عبارة الملحدين العرب باللغة الإنكليزية، وتتنوع هذه الصفحات بين النشطة وغير النشطة، كما أنّ لبعضها الآخر آلافاً من المتابعين، إضافةً إلى عدد من المجموعات المغلقة أو الخاصة.

أما خارج حدود الشرق الأوسط، فتمتلكُ منظمات المسلمين السابقين في أمريكا الشمالية وإنكلترا وفرنسا وبلجيكا وألمانيا ونيوزيلاندا والدول الإسكندنافية مواقع إلكترونية خاصةً بها؛ بالمقابل، يملك الملحدون الذين تم نفيهم مؤخراً كوليد الحسيني وقاسم الغزالي وألبير صابر مدوناتهم الخاصةَ بهم أيضاً.

مِن نتائج هذا النشاط على الإنترنت شعورُ الملحدين في الوطن العربي بأنهم أقل عزلةً من ذي قبل؛ يمكنهم أن يستجمعوا شجاعتهم ويتصلوا بالآخرين، رغم أنّ كثيراً منهم ما زالوا يخشون ذلك.

في مقابلة أجراها "ويليم باور" في صحيفة "Your Middle East" مع أحد الملحدين السعوديين، قال الملحد: "إنّ موقعي فيسبوك وتويتر جعلا العثور على أناسٍ يمكن النقاش معهم، فضلاً عمّن لديهم اهتمامٌ بالقيم العلمانية، أمراً سهلاً "، مضيفاً أنّه شعر بالصدمة عندما قابل أشخاصاً في الأربعينيات

والخمسينيات من العمرِ كانوا قد كتموا إلحادهم لعقود، حين قالوا: "إنهم لم يتمكنوا من العثور على أشخاص يشاطرونهم فكرهم سوى في الفترة الأخيرة حين التقوا بالأجيال الشابة ممّن هم في العشرينيات من عمرهم، كما أنهم وجدوا مجموعاتِ تواصلٍ اجتماعيّ يستطيعون من خلالها مناقشة أفكارهم والبوح بها."[25]

وصفت صحيفة "أسوشييتد بريس" حالة نموذجية في مصر بقولها:

> "صرّح مهندس مصري وُلِدَ مسلماً، ويبلغ من العمر 40 عاماً لصحيفة "أسوشييتد برس" بأنه اعتنق الفكر الإلحاديّ فترةً طويلةً، لكنّه أبقاه طيّ الكتمان؛ لكن ما دعت إليه الثورة المصرية من إجراء تغييرات جذريةٍ في البلاد شجعه على البحث عبر الإنترنت عن آخرين يؤمنون بما يؤمن، وفي هذا يقول هذا المهندس: "قبل الثورة، كنت أعيش في عزلةٍ كاملةٍ ولم أكن أعرف أيَّ شخصٍ يفكر كما أفكر، أمّا الآن فنملك من الجرأة ما لم نكن نملك."[26]

ويوضح تقرير الصحيفة من خلال حالة المهندس "الحدود التي يحق للملحد الوصول إليها،" وكأغلب الذين قابلَتْهم صحيفةُ "أسوشييتد بريس"، استخدم المهندس اسماً مستعاراً خوفاً من الانتقام أو التعرض للمضايقة أو الوقوع في مشاكل مع عائلتهِ، كما أنّه لا يكشف عن هويته الحقيقية إلا على شبكة الإنترنت.

ترى مجلة "إيكونيميست" أن مواقع التواصل الاجتماعي توفر لغير المؤمنين قدرة كبيرة على التأثير، لكنّها في نفس الوقت تمنحهم من الشهرة ما يجعلهم أكثر عرضة للخطر، فأغلب منْ لديهم نشاطاتٌ في الإلحاد على الإنترنت واجهوا مشاكلَ جمّةً، واعتُقِلَ بعضُهم بتهمةِ الإساءة للدين. وتعتقد المجلة أنّ السبب الرئيس لذلك هو غياب التسامح الديني، وتضيف: "في خمسينياتِ وستينياتِ القرنِ العشرين سادت العلمانية

والتسامح الكثيرَ من الدولِ الإسلامية، لكن الدين في يومنا هذا طغى على الحياة العامة والحياة السياسية." أمّا سامي زبيدة وهو باحث في كلية "London's Birkbeck College" فيتحدث عن تزايد حدة الاستقطاب في هذه الدول، فهناك ازديادٌ في التدين من ناحية وتزايدٌ للإلحاد والعلمانية في الناحية الأخرى.[27]

واجه الملحدون العرب الذين ينشطون على الإنترنت خطرَ انتقام السلطات؛ كما تعرضوا للمضايقات من قبل الناشطين المسلمين الذين راحوا يخترقون صفحات هؤلاء الملحدين، أو استخدموا ميزة "الإبلاغ عن إساءة" الموجودة في مواقع التواصل الاجتماعي.

يقول الكاتب السويدي الملحد باسم البغدادي، وهو من أصول عراقية:

> "لقد تم تدمير شبكةَ الملحدين العرب ومجموعات النقاش الأخرى وحُذفت بشكلٍ ممنهجٍ بفعل الحملات المنظمة التي شنها الإسلاميون على موقع فيسبوك من أجل الإبلاغ عن هذه الصفحات وعن الملفات الشخصية للمشرفين عليها،" ويضيف البغدادي أنَّ حساباته الشخصية على فيسبوك وتويتر تم تعطيلها عدة مرات بسبب هذه التبليغات، كما أنَّ الكثير من مقاطع الفيديو التي تمَّ رفعها على يوتيوب قد حُذفت بسبب محتواها.
>
> شهدت مواقع التواصل الاجتماعي مثل تويتر ويوتيوب وفيسبوك منذ سنة 2010 نشاطاً محموماً من قبل مجموعاتٍ إسلاميةٍ متطرفةٍ أو سلفية كان لها طريقتان في التعامل مع صفحات الملحدين، فهي إما أنْ تقوم باختراق هذه الصفحات وتدميرها، أو تقوم بحملاتٍ منظمةٍ للإبلاغ عنها، حيث يقوم أفراد تلك المجموعات، وبشكل مستمرٍ، بالتبليغ عن حساباتٍ أو مقاطعِ فيديو ممّا يؤدي إلى تعطيل الحساب أو حذفِ المحتوى من موقع التواصل الاجتماعي تلقائياً بسبب التبليغ عن محتواه."[28]

بالرغم من ذلك استطاعت شبكة "الملحدين العرب" النجاةَ، لتصبح إحدى أكثر المواقع الإلكترونية شهرةً من نوعها[29].

إضافةً إلى ذلك، لجأ الناشطون الملحدون مؤخراً إلى الفيديو، حيث أنَّ "قناة الملحدين العرب" على يوتيوب(Arab Atheist Broadcasting) تقدم برنامج نقاش مدته ساعتان، تُعرَضُ منه حلقة واحدة يوم الجمعة من كلّ أسبوعين، يتبادل من خلاله الملحدون النقاش باستخدام برنامج "سكايب"، وتراوحت مشاهدة مقاطع الفيديو الشائعة ما بين حوالي 3000 إلى 4000 مشاهدة[30]، وهناك أيضاً البرنامجُ الحواري "البط الأسود" "Black Ducks" الذي يقدمه ويخرجه اسماعيل محمد، وهو ملحد مصري، فيقول اسماعيل أنَّ الهدف من البرنامج تشجيعُ الملحدين وغيرِ المتدينين المصريين على الظهور للعلنِ وإخبار العالم بتجربتهم، وسببِ إلحادهم وكيف حدث ذلك[31]، مضيفاً أنّ اسم البرنامج اشتُّقَ من قصة "هان كريستيان أندرسون" Hans Christian Andersen" التي تدور أحداثها عن "البطة الصغيرة القبيحة" التي كانت تُهاجَمُ وتتعرضُ للإساءةِ حتى كبرت بشكل تدريجي لتتحول إلى بجعة بيضاء جميلة.

يوجد في الأردن مجتمعٌ صغير من الملحدين يتواصلون قيما بينهم عن طريق مجموعة على موقع فيسبوك، وقد أُسِّسَتْ هذه المجموعة سنة 2013، وكان فيها 30 عضواً فقط، ليرتفعَ العدد في عامٍ واحدٍ إلى 100 عضو، وتتراوح أعمار أعضاء المجموعة بين 16 و 44 عاماً، وتبلغ نسبة الإناث فيها نحو 40%. يقول مدير المجموعة محمد خضرة: "إن بعض أعضاء المجموعة ملحدون منذ سنوات، في حين تحول بعضهم إلى الإلحاد منذ فترة قصيرة،" ويضيف خضرة: "إنه يعرف نحو 100 ملحد أردني آخر أو أكثر ممن لم ينضموا إلى المجموعة،" ويرى أنّ السبب المانعَ من ذلك أنَّه "ما يزال في الأردن متعصبون، حين يتعلق الأمر بالسياسة أو المثلية الجنسية...الخ"، ولذلك حاول خضرة أنْ يجمع من الناس ذوي العقول المنفتحة، كما أنه يعلم أنّ إلحادَ شخص ما لا يغير عقليته كلياً بالضرورة، فلا يزال هناك مِنَ

الملحدين مَنْ لديهم خوفٌ شديدٌ من المثلية الجنسية، كما أن بعضهم شديدو التطرف في آرائهم السياسية حسب رأيه.

رغم أنّ خضرة كان مستعداً للتعريف عن نفسه في المقابلة حين قال: "وصلت إلى مرحلة لم أعد أكترث فيها لشيء،" إلا أن أعضاء المجموعة بمجملهم ظلوا مجهولين، فغالبيتهم يخشون على عملهم وعلى أسرهم.

على المستوى الحكومي يعتبر الأردن أقل تشدداً من المملكة العربية السعودية في موضوع الإلحاد، رغم أنَّ من يرتدُّ عن الإسلام يُعاقَبُ بالحرمان من الحقوق المدنية أو السّجن بتهمة الكفر، لكنّ المجتمع والأسرة هما المشكلة الرئيسة في الأردن، فالإلحاد، حالُه حالُ الرذيلة، يُعتَبَرُ "جريمةَ شرف" في بعض العائلات وُيعاقَبُ مرتكبوه بالموت قتلاً على يد الأقارب خاصةَ إذا كان الملحد أنثى.

أحد الملحدين، وهو أيضاً مثليّ الجنس وسبق له أن عمل إماماً في أحد المساجد، استطاع الفرار من الموت بأعجوبة بعد ظهوره في برنامج "البط الأسود"، وتكلم فيه عن حياته الجنسية والدينية[32]. يقول خضرة: "لقد حال بينه وبين الموت ساعات قليلة، حيث استطعنا بمساعدة أعضاء المجموعة ووالدته إخراجه من منزله ونقله إلى لبنان." ويضيف خضرة:

> "خَسِرَ أحدُ أصدقائي زوجته عندما أخبرها بأنه ملحد، وأنا نفسي خسرتُ خطيبتي بعد أن صارحتها بإلحادي، لم أستطع الكذب عليها، لذلك أخبرتها بأنني لست مسلماً. تقبلت ذلك بادئ الأمر لكن بعد عدة شهور قالت لي: أنت لا تصلي، أنت لست مسلماً، لذا فلابد أنْ تكون أخلاقك سيئة، وهذه كانت نقطة الخلاف الرئيسة، والتي يُنظَرُ فيها لغير المسلم على أنه سيّء الخُلُق، أو أنَّ مَنْ كان ملحداً فإنه يعيش كالبهائم. هذه هي نظرتهم إلينا حتى سُئلت عدة مراتٍ: "لِمَ لا أنام مع والدتي؟"

في هذه الأثناء، كان على الحكومة الأردنية أن تهادن المعارضة الإسلامية باستلطافهم بين الفينة والأخرى، يضيف خضرة:

"كلما أرادت الحكومة استلطافَهُم في أيةِ قضية تقوم بمحاكمة أحدٍ ما بتهمة الكفر، فقد سجنت الحكومةُ الأردنيةُ الشاعر المسلم إسلام سمحان بعد أن قدمت المعارضة ادعاءاتٍ ضدّه، وتقوم الحكومة بذلك لإبقاء الأمور تحت السيطرة من خلال عدم تلبية مطالب المعارضة الكبيرة لتطبيق الشريعة الإسلامية وإنما تلبية المطالب الصغيرة منها."

تم اعتقال سمحان بتهمة "الإساءة للأنبياء" بعد نشره شعراً اعتبرته المعارضة تجديفياً.[33]

يُعتبر تقديم الدعم هو إحدى مهمات المجموعة الأردنية على موقع فيسبوك، إضافة إلى مناقشة الإسلام والحركات الإسلامية بشكل عام والإسلاميين بشكل خاص، يضيف خضرة:

"إنّ الإسلام ليس تهديداً بحدّ ذاته، فأنا لا أحارب الإسلام بل أحارب الإسلاميين (أي الإسلام السياسي)، رغم أنني أختلف مع المسلمين لكن ليس عندي مشكلة مع إيمانهم بما يرغبون. يمكن للإسلام أو أيّة ديانة أخرى أنْ تسبب الضّرر لأي مجتمع؛ ولكن التهديد الرئيس يكمن في الإسلام المتشدد، ووقوع ترسانةٍ نوويةٍ بيد حاكم متشدد دينياً يكفي لإثبات وجهة نظري، وتعتبر فكرة أنّ الله يريد أمة تمثِّلُه ويأمرها بقتل وتدمير باقي البشرية، هي أخطر ما اشتملت عليه العقيدة الإسلامية، وهذه الفكرة هي ما يعمل لأجلها الإسلاميون اليوم."

غير أنّ خضرة لاقى بعض التشجيع من قبل الكثير من المجموعات الملحدة التي تنمو في دول أخرى من المنطقة حيث يقول: "المجموعات المشابهة لمجموعتي منتشرة في كل مكان الآن، وفي حال استطعنا

إبعاد جماعة الإخوان المسلمون عنا ودافعتْ عنا الدولة الأردنية فسوف تجدنا منتشرين في كل مكان، وحتى ذلك الحين علينا أن نبقى في الخفاء."[34]

أما "مكتبةُ الملحدين العرب" فهي عبارةٌ عن صفحةٍ على موقع فيسبوك تتيح التحميل المجاني لكتب من بينها ترجمات عربية لمؤلفات "باروش سبينوزا"، و"سيفن هوكنغ"، و"هانا آرنت"، و"بيرنارد راسل"، و"كارل ساغان" و"ريتشارد دوكنز[35]"، وكان الملحد العراقي المولد بسام قد ترجم كتاب "دوكنز" المشهور "وَهْمُ الله" ونشره على الإنترنت، وتحوي المكتبة الرقمية آنفة الذكر كتباً لمؤلفين عرب من بينهم الباحث العلماني الجزائري محمد أوركان والفيلسوف المصري مراد وهبة والباحث فرج فودة العدو اللدود للإسلاميين المصريين والذي اغتيل سنة 1992.

أعطت المكتبة فرصةً للعرب كي يصلوا إلى الكتب والأفكار المعارضة للنظام القائم وهو ما يصعب توفيره بأية وسيلة سوى عبر شبكة الإنترنت. بعض هذه الكتب ألّفها كتّاب أجانب وربما تخطت حاجز الرقابة، بالإضافة إلى كتب أخرى قديمة متوفرة على الإنترنت، ولكنها غير متاحة ورقياً حيث إنها كُتبت بواسطة العرب في أزمنة أكثرَ تحرراً، ورغم أنّ هذه الكتب تنشر على الإنترنت دونَ مراعاةٍ لحقوق الملكية الفكرية، إلا أنّ الباحثة عميرة نويرة من جامعة الإسكندرية تشعر بالرضى إزاء ذلك حيث تقول:

> "كثيرٌ من الكتب الورقية غير المتوفرة في المكتبات متوفرةٌ على الإنترنت مجاناً، فعادة ما يقوم أشخاص طيبون بتحويل هذه الكتب إلى كتب الكترونية بواسطة الماسح الضوئي ومن ثم ينشرونها على الإنترنت، وبعض هذه الكتب غير متوفرة بحلتها الورقية في المكتبات، وأعتقد أن هذا أمرٌ جيد، بالرغم من أنّه عملٌ غير مصيبٍ من الناحية الأخلاقية، فبعض الكتب التي تم تأليفها في أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين غير متوفرة في المكتبات، ولا يمكن العثور عليها في أي مكانٍ سوى شبكة الإنترنت، وهذا

شيءٌ عظيمٌ لأننا لو أردنا شراء نسخة ورقية منها لن نستطيع ذلك، لا أعرف إنْ كان انتشار الكتب على الإنترنت سوف يغيّر عقلية الناس، ذلك أنَّ هذا الأمر لم يحدث من قبل، فعندما كنت شابةً كنّا نذهب إلى القاهرة خصّيصاً لشراء الكتب أو انتظار معرض الكتب، أمّا اليوم فأنا لست مضطرة إلى الذهاب إلى أي مكان، وأتساءلُ عن التأثير الذي سيحدثه ذلك في مسائلِ الإيمانِ والإلحادِ على المدى الطويل."

أما عمر هادي، الملحد السعودي، فيعتقد أنْ هذا الأمر سيكون بالغُ الأثر، فرغم وفاة فرج فودة منذ أكثر من 20 عاماً، فإن كتاباته اللاذعة ماتزال حيةً على الإنترنت، ويقول هادي: "ما عليك سوى الذهاب إلى موقع تويتر لتجد ما قاله فرج فودة وقد تم اقتباسه مراراً وتكراراً، وتأثيره لم يندثر بموته، وعندما تُذْكَرُ مقولاته أمام المتدينين تجدهم عاجزين عن الرد عليها باستثناء اقتباساتٍ لآياتٍ من القران."

لا يُعتبر فودة الوحيد في هذا المجال، فقد تشجع هادي وعاد إلى القرنِ العاشرِ وإلى المتنبي الذي يعتبره الكثيرون أفضل الشعراء العرب. يقول هادي:

"إنّ "للمتنبي" عبارة رائعة ينتقد فيها هوس رجال الدين بالمظاهر وكيف أنّ باقي الأمم سوف تضحك علينا لأن همنا الوحيد هو حلق شواربنا وإطالة ذقوننا[36]، كما أنّ لدينا أشياءَ أخرى مثل لعنتنا الكبرى وهي اعتقاد مجموعةً من الناس بأن الله لم يعطِ الحكمة لسواها، وتُظْهِرُ مثلُ هذه الأحاديثِ المأخوذةِ من التاريخ الإسلامي أنَّ نوعاً من المقاومةِ كان دائمَ الحضور."

الفصل الثاني: الإلحاد في التاريخ العربي

لا يوجد في اللغة العربية مرادفٌ دقيقٌ للكلمة الإنكليزية "atheist" والتي تعني (ملحد)، فكلمة "ملحد" في اللغة الإنكليزية مشتقة من كلمتي (a = غير) و(theos = إله) في اللغة الإغريقية القديمة، وتشير صراحةً إلى عدم الاعتقاد بوجود الله أو الآلهة، أما المصطلحات العربية التي شاع استخدامها اليوم كمصطلحي "ملحد" و"الإلحاد" فلها دلالاتٌ أكثر فيما يخص الانحراف عن طريق الإيمان، فكلمة ملحد لا يُقصد بها الملحدون فقط، بل تشمل المرتدين والمهرطقين أيضاً، مما يجعل البحثَ في تاريخ الإلحاد العربي أمراً صعباً، غير أنّ هذا يوحي بأنّ من انتقد الدّين من العرب في الماضي لم يكن يعنيهم الإيمان بالله أو عدمه فقط.

على مرّ التاريخ العربي تجاوز الخوف من الملحدين الحدّ مقارنةً بعدد الملحدين حينها، فرغم قلّة عدد الملحدين المعروفين، إلى حدٍ ما، في التاريخ الإسلامي، إلا أنّ كثيراً من الأطروحات الجدلية العربية هاجمتْ من كان ينكر وجود الله دون ذكر أسمائهم، حيث يُعْتَقَدُ أنَّ أقدمَ عملٍ من هذا القبيل هو كتاب "الردُّ على الملحد" للقاسمِ بنِ ابراهيم، وهو عالمُ دينٍ من الطائفة الزيدية عاش في القرن التاسع الميلادي، وكان شديدَ الحرص على أنْ يستقيمَ المسلمون على الطريق القويم، فألّف كتابين في نفس الموضوع، هما "الإثبات الصغير" و"الإثبات الكبير" يُعلِّم فيهما قُرَّاءَهُ "الردَّ على المهرطقين والملحدين إذا ما طَلب هؤلاء دليلاً على وجود الله".

كتبت "ساره سترومسا Sarah Stroumsa" في كتابها "المفكرون الأحرار في العصور الإسلامية الوسطى":

> "من الطبيعيّ أن نستدلَّ من كلام القاسم على أنَّ المهرطقين والملحدين المقصودين هنا هم من أنكروا، أو على الأقلَ شكّكوا، بوجود الله، وأن القاسم كان قلقاً من قدرةِ هؤلاء الملحدين على الإقناع، غير أنّ خصومه الفعليّين فيما يخصُّ مسألة وجود الله لم يكونوا أفراداً بعينهم، بل ذكرهم كفئاتٍ كالمهرطقين والملحدين والماديين والمشكّكين، دون أنْ يميز بين هذه الفئات بشكلٍ واضحٍ؛ وعبثاً نبحث اليوم عن اسم شخصٍ بذاته متهمٍ بالجحود بوجود الله، فلقد ظلوا مجهولين. أمّا إذا ما برز اسمٌ ما للعلن، فهو حتما

لشخصٍ متهمٍ بهرطقةٍ سيئة كالإلحاد، أو ما يؤدي إليه كما يقول علماء الدّين، وليس لشخصٍ شكّل الإلحاد صُلب الهرطقة التي اتُّهِمَ بها."[1]

رغم أنّ المفكرين الأحرار كانوا موجودين فعلاً في العالم الإسلامي في العصور الوسطى، إلا أنّ "سترومسا" تتساءل فيما إذا كان وصْفُ هؤلاء بالملحدين دقيقاً؛ فالتفسير الأكثر قبولاً هو أنّ للمفكرينَ الأحرارِ في ذلك العصر أولوياتٍ مختلفةً للعمل، لم يكنِ العِلم قادراً حينها على تقديم أفكارٍ بديلة عن أصل الكون أو تطور الأنواع، ولذلك لم يكن من المنطقيّ التشكيكُ بوجود الخالق؛ فكان الطَّعن بالأنبياء والوحيِ الإلهيّ في ذلك الوقت ملائماً أكثر، وهذا ما فعلوه.

تقومُ الشهادتان على عنصرين أساسيين هما: رفضٌ قطعيٌ للشركِ بالله، لا هوادةَ فيهِ (لا إله إلا الله)، وإقرارٌ بأنّ (محمداً هو رسول الله) خاتَمُ الأنبياءِ، وإنْ لم يكنِ الوحيدَ في الإسلام، وآخرُ مَنْ كُلِّفَ برسالةٍ سماويةٍ إلى البشرية جمعاءَ، كما أنَّ الإسلام يعترف بأنبياء الديانات السماوية الأخرى كاليهودية والمسيحية، بمنْ فيهمُ السيّد المسيحُ، حيث يذكر القرآن الكريم أنه "وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (سورة فاطر: الآية 24)." لكن في المقابل لا يعترف أتباعُ الديانتين اليهوديةِ والمسيحيةِ بمحمدٍ كنبي.

في خضمّ ادعاءاتٍ للنبوة المختلَفِ فيها، أصبح التمييز بين الأنبياء الحقيقيين منهم والمدَّعينَ، بالنظر في حججهم وبراهينهم، مسألةً مهمةً لذوي الميول الدّينية وللذين كفرو بجميع الأنبياء، وفي ذلك كتبت "سترومسا":

"وفي سعيهمُ الرامي إلى زعزعة ثقة الناس بمسألةِ النبوة، اتَّخذَ المفكرون الأحرار عدة اتجاهات؛ فمن الناحية النظرية، حاولوا إثبات أنّ النبوة، كفكرةٍ، أمرٌ لا يقبله العقل، ومن الناحية الجدلية، سعى هؤلاء إلى إظهارِ كلِّ من ادعى النبوةَ على مدى التاريخ مظهرَ المتلاعب المحتال."

يرتبط الإسلام بالنبوة أكثر من المسيحية واليهودية بكثير، فتقول "سترومسا" إنَّ ظهور المفكرين الأحرار الرافضين لفكرة النبوة يدل على موقع النبوة المركزي والمهم في الفكر الإسلامي.

أُطلِقت تسميةُ ملحد على شخصيتين بارزتين في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، وهما ابن الراوندي وأبو بكرٍ الرازيّ وكلاهما فارسيان رغم أن الراوندي عاش فترة من الزمن في بغداد، وكان بينهما اختلافٌ كبيرٌ في طبيعة كل منهما، فعلى ما يبدو، لم يكن الراوندي يخجل من هذا الأمر رغم اعتباره فضيحة،

بينما كان الرازيّ عالماً رصيناً وموقراً؛ وقد لخّص الفيلسوف الوجوديّ المصريّ عبد الرحمن بدوي، الذي عاش في القرن العشرين، وجهتي نظرهما على أنها "عقلانية إنكار النبوة"، ورأى أنّ فرضيتهما المشتركة كانت تقوم على أنّ المنطق (أو العقل) كافٍ لتمييز الخير من الشر، لذا لم يكن هناك حاجة لإرسال الرسل الربانيين[2].

ويروي بدوي أنّ الراوندي وصف القرآن بأنه "كلامُ مخلوقٍ لا يعرف الحكمة"، وأنه أنكر معجزاتِ كلٍّ من إبراهيم ومحمد والمسيحِ، واعتبر أنها مجرّد حيلٍ لا أكثر؛ أما انتقادات "الرازيّ" للنبوة والوحي فقد اختفت، ولكنها كانت ظاهرةً في عناوين كتبه التي دارت حول "محتالو النبوة" و"دحض الأديان"، ورغم أنَّ اهتمامه كان ينصبُّ على الإسلام، إلا أنَّه هاجم المسيحية واليهودية والزرادشتية والمانوية، ويبدو أنه ناقش فكرة أنْ لو كان الله حكيماً حقاً، ما كان ليخُصَّ أناساً بالنبوة دون سواهم ثمَّ يؤيدهم بالقدرة على التأثير على الآخرين، ومن ثم يحرّض أتباعَهم للاقتتال فيما بينهم.

كان الرازيّ على ما يبدو مؤمناً بالله حكيماً رحيماً، لكنَّ صراعه كان مع فكرة النبوة والأديان السماوية والتعصب والاستبداد الذي قد ينجم عنها، فهو يرى أنّ الإله الحكيم يسيّر الكون بطريقة مختلفة. وقد نُقِل عن الرازيّ قولُه:

> "ينبغي أن يكون السلوك الأنسب للحكيم هو الحكمة وللرحيمِ الرحمةُ وذلك بأنْ يلهم جميع عباده معرفة كلِّ ما ينفعهم ويضرهم في الدنيا وفي الآخرة؛ لا أنْ يفضِّلَ بعضَهم على بعض، فيكون بينهم تنافسٌ وخلافٌ يكون فيه هلاكهم.
>
> "كان أتباع الأديان السماوية قد تعلموا دينهم باتباع سلطة قادتهم، فيرفضون عامل الملاحظة العقلية، والاستفسار عن العقائد الأساسية للدين، يقلصونها حيناً، ويحرّمونها حيناً آخر، متوارثين بذلك عاداتِ قادَتِهم، مما اضطرهم إلى الامتناع عن التكهنات بالمسائل الدّينية، فيوسمُ بالكفر من تجرأ على مخالفة تلك التقاليد[3]."

كان من بين المفكرين الأحرار في عهد الخلافة العباسية الشاعرُ الكفيفُ أبو العلاء المعرّي (973–1057م)، شاعرٌ لم تترك قصائده –كما يقول "ر. أ. نيكلسون" – "جانباً من جوانب العصر إلا وتطرّقت إليه، حيث قدَّمَ صورةً حيّةً للفساد والانحطاط التي يحتلُّ فيها الحُكام المستبدون والقضاة المرتشون ورجالُ

الدّين المنافقون وعديمو الضمير والمنجّمون المحتالون وحشودُ الدراويش المتنقلة والملحدون القرامطة مقاماً مرموقاً."[4]

كان المعرّي من الموحّدين، ولكنه رغم ذلك، كما يرى "نيكلسون"، كان ميّالاً إلى الاعتقاد بأن كلَّ شيءٍ في هذا العالم مسيّر إلى مصيرٍ حتميّ لا مفرَّ منه بواسطة كائن كليّ القدرة، فيه من الأسرار ما لا طاقة لمخلوقٍ بسبرِ أغوارها ولا سبيل للنجاة من قدرته التي فاقتْ كل شيء." وُلد المعري في سوريا قرب مدينة حلب، لكنَّ أفكاره تأثّرت إلى حدٍّ كبير بعد أن أمضى عاماً ونصف في بغداد عاصمةِ الدولة الإسلامية آنذاك، "والتي كان يلجأ إليها الكثير من المسافرين والتجار من المشرق؛ ويوجد فيها من كل عقيدةٍ وطائفةٍ ومذهبٍ، كالمسيحيين واليهود والزرادشتيين والصابئين والصوفيين والمادّيّين والعقلانيّين."[5]

ولدى عودته إلى مسقط رأسه في سوريا، انتهج المعرّي التقشفَ أسلوباً لحياته، فأصبح نباتياً، لا يأتي النساءَ؛ وكونه كان ممّنْ يرفض فكرة البعث والقيامة، فقد اعتبر الموتَ خلاصاً من مآسي الحياة، وهذا ما دفعه إلى رفض الزواج والإنجاب.

كانت آراء "المعري" تخرجه من الملّة بشكل واضح، وهذا ما ظهر في بعض أبياته:

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ويهود حارت والمجوس مضللهْ

إثنان أهل الأرض: ذو عقل بلا دين وآخر ديّنٌ لا عقل لهْ

فيسخر هنا من الحج إلى مكةَ حيث على المؤمنين الطوافُ سبعَ مراتٍ حول الكعبة:

سَبِّح وَصَلِّ وَطُف بِمَكَّةَ زائِراً سَبعينَ لا سَبعاً فَلَستَ بِناسِكِ

جَهِلَ الدِيانَةَ مَن إذا عَرَضَت لَهُ أَطماعُهُ لَم يُلفَ بِالمُتَماسِكِ

ويقول في موضعٍ آخرَ:

إن الشرائع ألقت بيننا إحَناً وأودعتنا أفانين العداوات

رغم سلبيته، كان لدى "المعري" جانب إيجابي أكبر؛ حيث دعا إلى العقلانية والسعي وراء الحقيقة بوصف ذلك مرشداً أخلاقياً.

قد يكون "المعري" محظوظاً إذْ عاش في تلك الحُقبة من الزمن، فلو قُدِّرَ له أنْ يكتب اليوم ما كان يكتبه آنذاك ثم ينشر أشعاره تلك على "فيسبوك" لوجد نفسه في مأزق حقيقي، إما بسبب السلطات، أو بسبب الإسلاميين الذين سيثير ذلك غضبهم. وفضلاً عن سخريته من القرآن، كتبَ المعرّي "رسالة الغفران" مصوراً فيها السماء كأنها صالون أدبيٌّ بوهيمي، يشرح هذا الكتاب كيف تفادى المعرّي النقّادَ، فَضَمَّنَ كتابَه هجوماً صريحاً على المفكرين الأحرار؛ في ذاتِ الوقتِ الذي عبّر فيه عن الأمل في ألا يكونوا بالسوء الذي ظهروا عليه. يعلّق "نيكلسون" على المعرّي قائلاً: "إنَّ شأنَ المعري في هذا شأنُ العديد من الحكماء في بلاد المشرق، ممّن يلجؤون إلى التصنع والتقية كفنٍّ جميل.[6]"

أنهى المعرّي مسيرته كشخصية تحظى باحترام كبير، على الأقل في مسقط رأسه سوريا، فقد وصفه شاعرٌ فارسيٌّ حين زاره، وكان في السبعينيات من عمره، بأنّه "عين القوم في بلدته؛ وذلك أنَّه كان غنياً يبجِّلهُ أبناء بلدته، ويجتمعُ حوله أكثرُ من مائتي طالب جاؤوا إليه من أنحاءَ شتى لسماع محاضرات له في الشعر والأدب."[7]

أمّا عمر الخيّام المولودُ سنةَ 1048 ميلادية، فقد عاش في عصرٍ قريبٍ من عصر أبي العلاء المعري؛ وكان عالم رياضيات وفلك، ورغم أنه فارسيُّ النسب لا عربيّ، إلّا أنَّ شهرته في العالم العربيّ كانت توازي شهرته في الغرب، وغالباً ما كان يَستشهِد الملحدون العربُ بكلامه، ورغم أنه اشْتُهِرَ بكونه عالماً، إلا أنّ اسمه اقترن بالرباعيّات، وهي مجموعة قصائدَ يتغنى فيها بشرب الخمر، ويسخر فيها من المعتقدات الدّينية أحياناً.

اكتسب "الخيّام" سمعته كملحدٍ – ربما عن طريق الخطأ – بسبب هذه الأبيات الطائشة، فأصبح بذلك واحداً من خمسة وأربعين "كافراً"، ابتداءً بالشاعر الروماني "لوكريتيوس Lucretius" وانتهاءً بالناشط المعاصر "آيان هيرسي علي"؛ وقد وصفه الراحل "كريستوفر هيتشنز Christopher Hitchens" في كتابه "الملحد الجوال"، قائلاً: "يُشَكِّكُ الخيّامُ صراحةً بفكرة أن الله يتجلّى بذاته لشخصٍ خلافَ بقيّة الناس، لاسيما في ضوء حقيقةٍ واضحةٍ جداً هي أنَّ منْ ادّعَوا تأويلَ الوحي كان جُلّ همّهم استخدامُ ادّعاءاتهم لتحقيق مكاسبهم وفرض سلطانهم على الآخرين، ولم يكن الخيّام أول من لاحظ هذا الجانب من الدّين، لكنّه كان من أكثرهم ذكاءً."[8]

لكنْ ثمة مشاكلُ كثيرة في آرائه، فآراءُ الخيّام الدّينيةُ كانت مثارَ جدلٍ وخلافٍ علميّ كبير، فقد اعتبره بعض النقاد صوفياً لا ملحداً، كما لا يُعرف عدد الرباعيات –المقاطع الشعرية الشهيرة – التي يمكن نسبها له، وفي كتابه "البحثُ عن عمر الخيّام" يقول علي دشتي:

> "الحقيقة التي لا مفرّ منها هي أنَّ الكُتَّابَ الذين عاصروا الخيّام وعرفوه لم يتكلّموا عنه بوصفه شاعراً، ولم يقتبسوا شيئاً من شعره، أمّا في القرنين اللاحقين لوفاته بدأ عددّ ليس بالكثير من الرباعيات التي كتبها بالظهور في أعمال متنوعةٍ كالسير الذاتية واللاهوتية والتاريخية، حتى وصل مجموعها إلى ستين رباعيةً، وذلك في منتصف القرن الرابع عشر، لكنها أخذت تزداد بشكلٍ مطّردٍ إلى أنْ وصل عددها بحلول القرن السابع عشر إلى ما بين 500 إلى 1000 رباعية، يمكن كشفُ زيفِ كثيرٍ منها فوراً لأسبابٍ لغويةٍ وغيرِ ذلك."[9]

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أنّه يجب التعامل بحذرٍ مع النسخة الإنكليزية الشهيرة المترجَمة "لإدوارد فيتزجيرالدEdward Fitzgerald" ، والتي تعود إلى القرن التاسع عشر، وذلك أنَّ "فيتزجيرالد" أخذَ هذه القصائد الفارسية على أنَّها وحيٌ إلهيٌّ وأعاد ترتيبَها ليوجِدَ من نسجِ خيالهِ يوماً في حياة الخيّام، ليصل من وراء ذلك إلى ما كان يحب أنْ يسميها "تحفةٌ مستقلةٌ تماماً"، فانتهج "فيتزجيرالد" الترجمة الحرة، معيداً صياغة الرباعيات لدرجةٍ يصعب معها معرفة المصدر الفارسي لبعض أبياته.

وبصرف النّظر عمّن كتب الأبياتِ الأصليةَ، ما زالت الرباعيات تثير الاهتمام باعتبارها انعكاساً للأفكار التي كانت سائدة حينها، والتي كانت تُعتبَر مواضيعَ شعريةً مشروعةً حينها، إنّما قد لا يكون هذا حالَها اليومَ، ففي سنة 2013م حُكِمَ على عازف البيانو والملحد التركي الشهير "فاضل ساي" بالسّجن مع وقف التنفيذ إثْرَ اتهامه بالكفر و"التحريض على الكراهية" على خلفية نشْرِهِ عدداً من التغريدات، كان من بينها أبياتٌ لعمر الخيّام[10]:

تقول إن أنهار النبيذ تتدفق في الجنة

أجنةٌ هي أم خمارة؟

وتقول إن حوريتين تنتظران المؤمنين؟

أَجَنَّةٌ هي أم بيت للدعارة؟

بحلول القرن التاسعَ عشر بدأت أشكال الإلحاد في العالم الإسلامي تظهرُ بشكلٍ أوضحَ من ذي قبل، وفي ذلك يكتب "ساميولي شيلكيSamuli Schielke ":

> "في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين وما تلاهما بدأتْ موجةٌ جديدةُ من العِداء للدّين تحظى بالقبول في أنحاءَ مختلفةٍ من العالم الإسلامي، بما في ذلك الإلحادُ، ففي الوقت الذي بدأ فيه الإلحاد بالنمو في ظلِّ الإمبراطورية الإسلامية المزدهرة، جاءت الدورة الثانية للإلحاد في العالم الإسلامي في ظروفٍ مختلفةٍ كليّاً، أي في ظل توسع الامبراطورية الأوروبية، والتي ألقتْ بظلال الشكِّ على التقاليد المتّبعة للمعرفة والتنظيم الاجتماعي والدّين.
>
> "ظهرتْ حرية الفكر والحلقات المناوئة للكهنوتية أولَ الأمرِ في إيرانَ والهندِ والامبراطوريةِ العثمانيةِ، وبين المسلمين في روسيا وذلك في النصف الثاني من القرن التاسعَ عشر، وكان مِنْ أكثر مَنْ ساهم في ذلك المسيحيون والعربُ المسلمون في الولاياتِ العربيةِ الخاضعةِ للإمبراطوريةِ العثمانيةِ، وحينها ظهرت النزْعاتُ القوميّةُ المعاديةُ لرجال الدّين وللدين نفسه على نطاق أوسع من الحداثة العلمانية[11]."

رغم أنَّ كثيراً مما سبق يُعْزَى إلى التأثيرات الأجنبية أثناء فترة الاستعمار، إلا أنَّ "شيلكي" يَستشهِد بدليلٍ من إيران في القرن التاسع عشر كي يشير إلى أنَّ "الإلحاد المعاصر بين المسلمين ليس مجرد نسخة معدَّلة عن الإلحاد في العالم الغربي، إنّما استمد جذوره من التقاليد الأصلية (المحلية) أيضاً والتي تتصف بالهرطقة."

كان اسماعيل أدهم مِنْ أعتى الملحدين المصريّين في ثلاثينات القرن العشرين. وكان كاتباً وناقداً أدبياً من مدينة الإسكندرية، وكتب في سنة 1936م كتاباً يشكّك فيه بصحة ومصداقية الأحاديث النبويّة، وأرسلَ مائة نسخةٍ مجانية من كتابه ذاك إلى علماء الدّين في الأزهر وهو المركز القديم للتعاليم الإسلامية في القاهرة، مما أثار غضب شيخ الأزهر محمد مصطفى المراغي فتقدّم بشكوىً إلى وزارة الداخلية، حُظِرَ بعدها كتابُ أدهم في غضون أيامٍ، وبعد عام من ذلك، ألّفَ كتاباً بعنوان "لماذا أنا

ملحد؟"، والذي أثار جدلاً يفوق ما أثاره كتابه السابق وأدّى إلى صدور ردّةِ فعلٍ ملتهبة من المتدينين المؤمنين.

يقول "شيكلي" معلقاً على كتاب أدهمَ الجدلي أنه كان مثالياً في طريقة تقديمه للعلوم كالفيزياء والرياضيات ونظرية التطور على وجه الخصوص كعقيدةٍ جديدةٍ تحلُّ محلَّ العقيدة الدّينية:

"لقد خرجتُ عن الأديان وتخليتُ عن كل المعتقدات وآمنت بالعلم وحده وبالمنطق العلميّ؛ وما أعظمَ ما كانت عليه دهشتي وعَجَبي أنّني وجدت نفسي أسعدَ حالاً وأكثر اطمئناناً من حالتي حين كنت أغالبُ النفسَ للاحتفاظ بعقيدتي."

وتبيّن بعد ذلك أنّ أدهم رغم هذا كلِّه لم يكن ملحداً فحسبُ، بل وحالماً إلى حدٍّ ما، وربما يُعزَى ذلك إلى خوفه من ألّا تؤخذَ أعماله على محمل الجدّ دون مؤهلاتٍ جامعيةٍ عاليةٍ، فجمع أدهم قائمةً متخيَّلةً من المؤهلات المثيرة للإعجاب وكتبَ على غلاف أحد كتبه عندما كان ما يزال في الخامسة والعشرين من عمره:

"الدكتور ليت (هون)، دكتوراه في الفلسفة والعلوم (موسكو)، ونائب رئيس المعهد الروسي السوفييتي للدراسات الإسلامية، وعضو الأكاديمية السوفياتية الروسية للعلوم، وأستاذ سابق في الرياضيات العالية في جامعة سان بطرسبرج، وأستاذ في التاريخ الإسلامي في كلية التاريخ، إسطنبول."

ادّعى "أدهم" أنّه كتب أيضاً سيرةً ذاتيةً للنبيّ (باللغة الألمانية)، وثلاثةَ مجلّداتٍ في التّاريخ الإسلاميّ باللّغة التركيّة، ومجلّدين في الرياضيّاتِ والفيزياء (باللغتين الألمانية والروسية[12])، وثلاثة مجلداتٍ عن النظرية النسبية (أيضا باللغتين الألمانية والروسية)، ولم يتضح زيفُ هذه الادعاءاتِ حتى العام 1972م عندما كشفت "مجلة الأدب العربي" عن مقالٍ قالت فيه:

"لم يحصل أدهم على أيّةِ شهادةِ دكتوراه، ولم يكن يوما عضواً في أكاديمية العلومِ، ولم ينشر أيّ كتابٍ أو مقال، لا بالروسية ولا بالألمانية ولا حتى الفرنسية، ولا صحةَ لما قيلَ عن تأليفه مجلّدين باللغة التركية بعنوان "تاريخ الإسلام"، كما ولمْ تكن هنالك أيةُ علاقةِ صداقةٍ بينه وبين المستشرق الروسيّ "بارثولد" الذي توفي سنة 1930م، أي قبل عامٍ من

ادعاء أدهم بأنه ذهب إلى روسيا، ولم يتلقَّ أي إطراءٍ من المستشرق الروسي "كازيميرسكي" لأنه لم يكن هنالك شخصٌ بهذا الاسم أصلاً."[13]

ويُعتقد بأن أدهم لم يغادر مصر أبداً، وقدْ تمَّ العثورُ عليه ميتاً في البحر سنة 1940م، قبالةَ شاطئ جليم في الإسكندرية منتحراً وقد ترك رسالة في جيبه، وكان حينها في التاسعة والعشرين من عمره.

يُعتبر عبد الرحمن بدوي (1917–2002م) أول فيلسوفٍ وجوديٍّ مصريٍّ الجنسيّة، وقد درّس في الجامعات الليبية والكويتية؛ وأكثرُ ما يستحق الذكرَ مِنْ أعماله كتابُه "من تاريخ الإلحاد في الإسلام" الذي كتبه في أربعينيات القرن العشرين، وما زال يُقرأُ إلى يومنا هذا. كانت آراؤه معقدةً، ولكنه دافع في سنواته الأخيرة عن القرآن وعن النبيّ محمّدٍ ضدّ هجمات المستشرقين[14].

أمّا عبد الله القاسمي (1907–1996م) فقد وُصِفَ بشكلٍ غير ملائمٍ على أنَّه عرّابُ الإلحاد في الخليج العربيّ، وكان من تصريحاته: "إنّ احتلال الآلهة لعقولنا هو أسوأُ أنواع الاحتلال؛" وهي مقولةٌ ما زال الملحدون يرددونها إلى يومنا هذا. وُلد القاسمي في أسرةٍ محافظةٍ في منطقة نجدٍ، فيما أصبح اليوم المملكة العربية السعودية، وقد استهلّ مسيرته كأيّ عالِمِ دينٍ عاديٍّ إلى حدٍّ ما؛ بينما تقول بعض التقارير أنّه كان متميزاً في فترة تديُّنه قبل أن يتحول إلى الإلحاد. وشُبِّه القاسمي بابنِ تيميّة عالمِ الدّين الذي عاش في القرن الثالث والذي حَظِيَ بإعجاب الإسلاميين؛ لكنّه طُرِدَ من جامعة الأزهر في القاهرة بسبب أفكاره السلفيّة[15].

جاء في ملحوظةٌ نُشرتْ على موقع "الصحوة الإسلامية" من قبل شخص يتضح أنّه لم يكنْ متفقاً مع إلحاد القاسميّ:

"انكبَّ "القاسميّ" على كتب الفلسفة، وكتب بعد بضع سنين كتباً غريبة عن الحداثة، وعندما حاول شيوخ السعودية إسكاتهُ، اشتكى إلى الشيخ سيّد قطب زعيمِ حركةِ الإخوان المسلمين الذي أُعدِم بأمر من جمال عبد الناصر سنة 1966م. دافع سيد قطب، في بادئ الأمر، عن حقّ القاسميّ في الكلام، إلى أنْ تلقى من القاسميّ مجموعةَ كتبٍ ومقالاتٍ جديدةً جعلته في حيرة من أمره، أدّت به إلى اتهامه بمحاولة تدمير الإسلام، وقد كان سيد قطب محقاً في اتهامه ذاك.

ارتدّ "القاسميّ" عنِ الإسلام بعد ذلك، عوُرِفَ عن واحدٌ من أبنائه على الأقلّ أنَّه كان قد ارتد عن دينه معه والده وعاش في مصر. لم يُكتبِ النّجاحُ لمحاولة القاسميّ تأسيسَ حركةٍ إلحاديةٍ سياسيةٍ نتيجةَ وقوف جمال عبد الناصر بوجه ذلك وسجْنه مراتٍ عدة.

أقامَ القاسميُّ بعد ذلك في لبنان فترة من الزمن، وانتسب خلالها إلى "الجمعية الأدبية" وكان يُعامَل كشخصيةٍ اعتباريةٍ هامةٍ، إلى أنِ التقى في آخرَ الأمر بالشيخ ابنِ عقيل الزاهريّ في "جاردن سيتي" في القاهرة، وكان هذا الأخيرُ ذا ميزاتٍ متعددةٍ،، ودار بينهما جدلٌ طويل استمرَّ بين أخذٍ وردٍّ حتى المساء.

كان القاسميُّ يقتبس من كتب "إيمانويل كانط Immanuel Kant"، و"جون ستيوارت ميل John Stuart Mill" حرفياً، وكان يغيّر موضوعَ النقاش في كلِّ مرةٍ يستشهد فيها ابنُ عقيل بآراءِ الفلاسفة العلمانيين "الكفار" أنفسِهم والتي تنتقد هذين الفيلسوفين، وذاك أنّ القاسميَّ كان يشكِّك بوجود الله مستنداً في كلامه بشكلٍ أساسيٍ إلى النقلِ الحرفيّ من كتب فلاسفة عصر التنوير، وعصر ما بعد التنوير، وفي كلِّ مرة يوشك فيها ابن عقيل على إقناعه، كان القاسميّ يلتفت إلى موضوعٍ آخرَ يمكنه فيه إثبات وجهة نظره."

ويضيف الكاتب:

"كان وحشاً متغطرساً طوال حياته، ولم يتبْ أبداً، إلى أنْ مات في القاهرة بعد إصابته بالسرطان ميتةً يأمل المرء أنْ تكون بطيئةً وطويلة[16]."

رغم وجود كُتّابٍ ملحدين كالقاسميّ والبدوي اللذان كانا قادرين على التعبير عن آرائهما في المواد المطبوعة، إلا أنَّ الجدلَ العربيّ في أمور الدّين منذ منتصف القرن التاسع عشر وما تلاه كان عموماً يهتمُّ بمسألة دور الدّين في المجتمع والسياسة أكثرَ من اهتمامه بمسألة وجود الله من عدمه. ولكي نفهم سبب ذلك، علينا أن نبحث في الخلفيات التاريخية، كانحسار الامبراطورية العثمانية، والهيمنة الأوروبية، وصعود الحركات القومية، والاستقلال النهائي، فقد أصبحت أوروبا على وجه الخصوص موضع إعجابٍ ومصدرَ خطرٍ في آنٍ معاً؛ فقد كان يُنظَرُ إليها، لا كخصمٍ فحسب، بل كَتَحَدٍّ فاتنٍ أحياناً، وفي ذلك كتب المؤرخ ألبرت حوراني:

"أصبحتْ قوةُ وعظمةُ أوروبا، والعلومُ والتكنولوجيا الحديثةُ، والمؤسسات السياسية في الدول الأوروبية، والأخلاق الاجتماعية في المجتمعات الحديثة المواضيعَ المفضلة للكُتَّابِ العربِ، وقد أثارتْ كتاباتُهمْ تلك إشكاليةً أساسيةً تتلخص في كيف للعرب المسلمين والإمبراطورية العثمانية أنْ تواكبَ التطور الذي وصلت إليه أوروبا وتصبحَ جزءاً من العالم الحديث؟[17]"

أخذتْ بعض المحاولات البدائية للردّ على هذه الأسئلة طابَعاً مألوفاً، حتى في يومنا هذا، ومثالُ ذلك الإصلاحيُّ التونسيُّ خير الدّين المتوفى سنة 1889م، والذي حذَّر المسلمين من معاداة "ما يستوجب المديح" في الديانات الأُخرى، "وذلك ببساطة لأنهم دأبوا على الدعوة إلى تجنب كلِّ فعلٍ أو عُرْفٍ يصدر عن غير المسلمين."[18] وقد واجه المسيحيون العرب في كلٍّ من سوريا ولبنان كذلك تحدياتٍ من أوروبا، ولكن بوتيرةٍ أقلَّ. يقول حوراني:

"قد تكون السُّلطة الهرميّة للكنائسِ، المعترَفِ بها، والتي تدعمها الدولة، عائقاً أمام حريّة تفكيرهم والتعبير عن أنفسهم، فاتجه بعضهم نحو العلمانية، أو البروتستانتية التي كانت قريبة من العلمانية في مجتمعٍ تتحدد الهوية فيه على أسس الانتماء إلى جماعةٍ دينيةٍ معينة."[19]

كان المسلمون منقسمين، فمنهم من رأى الإسلام جزءاً من المشكلة، فسَعَوا لتقليص دوره، بينما رأى الآخرون أنّه يجب تجديده وجعله جزءاً من الحلّ، وقد برز من الفئة الأخيرة جمال الدّين الأفغاني (1839–1897م) ومحمد عبده (1849–1905م) وذلك في القرن التاسع عشر.

حاول الأفغانيّ الذي يُعتَقَدُ أنَّه ينحدر من أصولٍ فارسيّةٍ أنْ يجد سبيلاً إلى تمكين المسلمين من مواكبة العالم المتحضر بشكلٍ لا يُفقدهم وفاءَهم لذاتهم، وقد فعل ذلك من خلال اقتراحِ منهجين للعمل، وصفهما حليم بركات بأنهما "متناقضان، وهما العودة إلى المصادر الأصلية للإسلام واعتمادُ الأفكار والتقاليد الليبرالية الأوروبية، بما في ذلك العلوم الغربية وإقامة حكمٍ دستوريّ ووحدةٍ اجتماعيةٍ، وإجراء انتخاباتٍ وتمثيلٍ وطنيّ."[20] لكن الأفغانيّ، رغم اندفاعه وحماسته للعلم، فقدِ انتقد النظرية الداروينية بشدة. وذهب محمد عبده، تلميذُ الأفغانيّ في أفكارِه إلى أبعدَ من ذلك في مسعىً منه إلى التمييز بين المبادئ الأساسية

للإسلام، التي كان يعتبرها ثابتةً ودائمة، وبين القوانين والعادات الإسلامية التي يمكن تكييفها، ولكن بحدود، مع الظروف المتغيرة.

أنجبتْ تلك الفترة ذاتُها أولَ المروّجين للقومية العربية، في ردةِ فعلٍ على انهيار الامبراطورية العثمانية في البداية، وبعد ذلك كانت لمواجهة الإمبريالية الغربية. بالإضافةً إلى التشجيع على تعزيز الشعور بالهويّة العربيّة، وليس الإسلاميّة، فأثارتْ قضيةُ القومية حينها تساؤلاتٍ عن الشكل الممكن للحكم الذاتيّ وعن دور الدّين فيه، إن كان له دورٌ أصلاً.

كان عبد الرحمن الكواكبيّ (1849–1902م) مِنْ أوائل مَنْ طالبوا بفصل الدّين عن الدولة في التاريخ العربي الحديث، فدعا إلى تبني العلمانية وتشكيل حكوماتٍ قوميةٍ تستند إلى مبادئ الديمقراطية والاشتراكية ومبدأ التسامح والتفكير وتحكيمِ المنطقِ، واعتبرَ الاشتراكيةَ هي السبيل للقضاء على الاستبداد، واتّهم المتدينين المقلِّدين "بمحاولة فرض سيطرتهم على المؤمنين السُذّجِ"، وذلك أنهم يستخدمون الدّين "كأداة لإثارة التفرقة" بغية نشر "روح الاستكانة والامتثال."[21]

ألغى مصطفى كمال أتاتورك، العلمانيُّ المتشدّدُ، ومؤسّسُ الدّولة التركية الحديثة، الخلافةَ الإسلاميةَ سنة 1924م والتي بدأت بعد وفاة النبي بأيامٍ واستمرّت، ولكن بأشكالٍ وأماكنَ مختلفةٍ، إلى أنْ تبناها السلاطين العثمانيون في القرن السادس عشر. أدى إلغاءُ "أتاتورك" للخلافةِ إلى بروز محاولاتٍ لإعادة إحياء الخلافة في أماكنَ أُخرى؛ رغم اعتقادِ بعضِ المسلمين أنّهم أصبحوا أفضل حالاً بدونها، ففي سنة 1925م تسبَّبَ علي عبد الرازق، وهو شيخٌ من شيوخ الأزهر، بإحداثِ جدلٍ واسعٍ حينَ ألّف كتاب "الإسلامُ وأصول الحكم"، والذي ادّعى فيه أنّ الإسلام لم يحدّد نمطاً محدداً للحكم، وبالتالي فإنّ المسلمين أحرارٌ باتخاذ نظام الحكم الذي يرونه مناسباً، كما رأى أنّه من الخطأ اعتبارُ الخلفاءِ ممثلين عن الله في الأرض، في الوقت الذي كانوا فيه مجرَّدَ قادةٍ سياسيّين لا أكثر، فأعطاهم هذا الاعتقاد الخاطئ مسوغاً لاستعباد رعاياهُم باسم الدّين. وقد طُرِد عبد الرازق حينها من الأزهر بسبب آرائه تلك.

وبالنظر إلى هذه الخلفيّة، فإنّه من غير المفاجئ أنْ ركّزتِ النقاشاتُ في الدّين على القضايا ذاتِ الأهمية العمليّة الآنيّة أكثر من تركيزها على طرح الأسئلة المجرّدة عن وجود الله. أنجب القرن العشرون الكثير من المفكرين العرب ممن مالوا إلى العلمانية كطه حسين ونجيب محفوظ الحائزِ على جائزة نوبل في الأدب، أمّا عدد الذين وصلوا إلى الإلحاد (سراً أو علانية) فهو محضُ تخمينٍ لا يمكن الجزم به[22].

كان للماركسية أتباعٌ كُثرٌ مِنَ العربِ في العقودِ التي تلتِ الحربَ العالميّةَ الثانيةَ، رافقتها أفكارٌ علمانية طغى عليها فيما بعد صعودُ الإسلام السياسيَ، فبالرغم من ميل النّاس للتّعبير عن إلحادهم بطريقةٍ غير مباشرةٍ عبر نقاشاتٍ في الوجوديّة على سبيل المثال، إلا أنَّ الجوَّ في ذروةِ اليساريةِ العربيةِ كان مُهيأً بشكلٍ أكبرَ للتشكيك في الأديان ممّا هو عليه الحالُ في الآونة الأخيرة.

ما زالت "بدرة"، وهي ناشطة نسائية ولاأدرية لبنانيّة، تتذكرُ حالاتٍ في كلٍّ من لبنان وسوريا؛ "حيث لمْ يكنِ الإلحاد في عزلةٍ، بل في مجتمعاتٍ" وتضيف قائلةً:

> "لمْ أكنْ جزءاً من هذه المجموعات، إنّما كان لي أصدقاءُ فيها، وعندما انتقلت للعيش في بيروتَ اكتشفتُ عالَماً موازياً فيه جيل من البشر ينتمون إلى هذه الخلفية ممن نشؤوا ضمن هذه المجموعات الشبابية اليساريّة وتربوا على هذه القيم، خصوصاً فيما كان يسمى "الحركة الوطنية اللبنانية" التي ضمّت كلاً من الحزب الاشتراكي برئاسة كمال جنبلاط والحزب القومي السوري الاجتماعي والشيوعيين.
>
> أضف إلى ذلك أنَّ الإلحاد، وإنْ لم يتمَّ التعامل معه كموضوع بحدِّ ذاته، إلا أنَّ المثقفين الذين نشطوا خلال فترة الحرب الأهلية كانوا يتبنَّون الفكر العلماني ويحرضون ضدَّ الأديان في مواضعَ كثيرةٍ. وكانت الحياةُ الثقافيةُ في بيروت تزخرُ بالأمثلة والإشارات إلى الوجودية والعبثيّة، وخاصةً المسرحُ التجريبيُّ في ستينيات القرن العشرين، ثمّ خلال الحرب الأهلية، ممّا أثر في ثقافة الدول العربيّة في ذلك الوقت. ويصوّرُ أدبُ الحربِ الأهليةِ اللبنانيّةِ الكثيرَ مِنَ الآراء الإلحادية.[23]"

كانت خمسينيات وستينيات القرن العشرين، كما يرى "شيلكي"، حقبةً ساد فيها تفاؤلٌ كبيرٌ يُعوَّلُ عليها مستقبلٌ اشتراكيٌّ تقدميٌّ، حيث كان التديّنُ في تراجعٍ بين السّكان المدنيين من ذوي الثقافة العالية، في كلٍّ مِنَ الشرق الأوسط وجنوب آسيا، إلّا أنّ هذا الأمر تغيّر لاحقاً مع صعود الحركات الإسلاميّة في المنطقة وانهيار الشّيوعيّة في أوروبا الشرقية. برغم ذلك كله كان "شيلكي" يرفض، إلى حدٍّ ما، سعيَ الماركسية لمواجهة الدّين، فقد كانت الآراء الإلحاديّة، وإنْ تمَّ الإشهار بها، تعكس غرورَ النخبة أكثرَ مِنِ اتّخاذِها شكل العدائية البغيضة لرجال الدّين في أوائل القرن العشرين." على العموم، نادراً ما روّجَ الشيوعيون والاشتراكيون للإلحاد علناً في الدّول المسلمة، ويقول "شيلكي": "على العكس من ذلك، فعادة

ما كانوا يحاولون مواجهة الدّعاية المناهضة للشيوعيّة بقولهم إنَّ الإسلام، إن تم فهمه فهماً صحيحاً، يوافقُ الاشتراكية تماماً." قد يكون هذا موقفاً تكتيكياً لتجنب المواجهة المباشرة مع الدّين، إلا أن "شيكلي" يرى أنّ هذا الموقف ينسجم في الواقع مع معتقدات غالبية الشّيوعيين في العالم الإسلامي[24].

كانت جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية تمثل النموذجَ التاريخيَّ الوحيدَ للحكم الماركسيّ اللينينيّ في الشرق الأوسط، حين تأسَّست في جنوب البلاد، وذلك بعد انسحاب بريطانيا من عدن سنة 1967م، وكانت حكومة هذا البلد تطمح إلى بناء مجتمعٍ "عقلانيّ اشتراكي" في أرض أسلاف عائلة أسرة بن لادن، إلا أنّها وجدت نفسها مضطرةً لمواجهة مسألة كيفية التعامل مع الإسلام، فاتخذت إجراءاتٍ صارمةً، وعنيفة أحياناً، ضدّ المؤسسة الدّينية كتأميم الأوقاف وتوظيف رجال الدّين لدى الدولة.

بإحكام سيطرته على المؤسسات الدّينية، انتهج النظامُ القائمُ نهجاً معقداً، عملاً بمشورة من الكتلة السوفييتية على ما يبدو، ويقال أنَّ اللجنة المركزية للحزب الوحدويّ الاشتراكيّ في ألمانيا الشرقية قد أوصتِ النظامَ اليمنيَّ بما يلي:

> "إنَّ الدّين يُستعمل كسلاح ضدّكم، فلما لا تستعملون السلاح ذاته ضدَّ أعدائكم؟ لماذا تتخلون عن المبادرة لحساب الرجعيين والانتهازيين؟ لم لا تكون المبادرة للتقدميين؟ لم لا تقولون إننا ضدّ الرأسماليّة الاستغلاليّة؟ وقولوا في نفس الوقت إن سيدنا محمداً كان ضدّ الرأسمالية الاستغلالية؟ فما من قاضٍ ولا فقيهٍ يقدر على الإتيان بنصّ قرآنيّ أو حديث نبويّ يثبت أن النبي محمد كان يؤيد الرأسمالية الاستغلالية، فالواقع أنه كان ضد الاستغلال."[25]

دفع ذلك حكومةَ اليمن الديمقراطية الشعبية إلى الترويج لنمط من الإسلام الاشتراكيّ يُحتفَلُ فيه بعيد ميلاد "لينين" إلى جانب العديد من الاحتفالات الدّينية التقليدية. من وجهة نظر النظام الرسميةِ لم يكن هنالك أي تناقضٍ حقيقيٍّ بين الاشتراكية والإسلام، رغم غياب الإجماعِ على هذا الأمر كما كان يبدو في اليمن الجنوبي، فقد كان هنالك إسلامٌ للأغنياء وآخَرُ للفقراء كما يقول سليم صالح محمد، الشخصية البارزة في الحزب، فالفقراء يرَون أنَّ الإسلام نادى بالعدالة الاجتماعية ووضع حدّاً للاستغلال، بينما الأغنياء يستغلون الدّين "لتحقيق أهدافهم الرجعية الخاصة على حساب منفعة الشعب وكدحهم،"[26] كما وفّر ذلك أساساً لسياسةٍ خارجيةٍ صورت الإسلامَ على أنّه عُرضةٌ للتهديد من قبل الامبريالية، رغم أنَّ

اليمن الجنوبي في الحقيقة كان هو البلد العربيّ الوحيد الذي أيَّدَ الغزو السوفييتي لأفغانستان سنة 1979م، واستمر في دعمِ النظام في كابول ضدّ المجاهدين فترة من الزمن.

كان هنالك بعضُ أوجه الشَّبَه بين هذا النوع من الإسلام الاشتراكيّ في اليمن الجنوبي وبين الحركة "اللاهوتية التحريرية" الكاثوليكية الرُّومانية التي ظهرت في أمريكا اللاتينية، والتي كان اهتمامها مُنْصَبَّاً على الفقر وغياب العدالة الاجتماعية، مما دفع الفاتيكان إلى اعتبارها حركةً سياسيةً بحتةً تنقصها الروحانية. وفي دراسة عن التعايش الهشّ والمضطرب بين الإسلام والدولة في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، علّق "نورمان سيجار" بالقول "إنَّ الاشتراكيين اليمنيين تعاملوا مع الإسلام كظاهرةٍ اجتماعيةٍ اقتصاديةٍ معنيةٍ بعالَمنا فقط، في حين أنهم تجاهلوا أو ربّما همّشوا الجوانب الأُخرى من الإيمان."[27]

وعلى الصّعيد المحليّ، سعى الاشتراكيون إلى تقليصِ دور الدّين في الحياة اليوميّة كلما أمكنهم ذلك، فتمَّ استبدالُ قانون الشريعة بقوانين علمانية في معظم المناطق، بما في ذلك قانون الأسرة، إلا أنَّ النظام تراجع عن إلغاء قانون الميراث المستنِدِ إلى الشريعة الإسلاميّة. كان إصلاحُ قانون الميراث من أولوياتِ الاشتراكيين باعتباره لا يكفل المساواةَ في تقسيم الثروة، لكن حالتْ مخاوفُ من أنْ لا يقبلَ الشعب بالأمر دون إصلاحه.

في البلدان العربية، كانت صحفُ اليمن الجنوبيّ هي الوحيدة التي لم تنشر مواقيت الصلاةِ أو الصيامِ في شهرِ رمضان، إلا أنّها كانت تسمح، ولو على مضض، بالصيام في شهر رمضان، وكان التلفزيون الرسميّ يبث برامجَ عن الطّبخ في وقت صيام المسلمين، وسادَ تذمرٌ مِمَّنْ كان يتغيّبُ عن العمل في شهر رمضان. وفي ذلك تقول "سيكار":

> "كانت وسائل الإعلام الحكومية تنتقد باستمرارٍ تأخرَ الموظفين في القطّاع العامّ عن الوصول إلى عملهم بحجّة أنّهم متعبون من سهر الليلة الماضية، وانصرافَهم من العمل باكراً بعد القيام بقسطٍ قليلٍ من الأعمال فقط. ويذكر أيضا أنّ الكثير منهم كانوا يتظاهروا بالمرض كي يتغيبوا عن العمل."[28]

قُبيلَ توحُّدِ شطريّ اليمن ووصول الماركسيين إلى سُدَّة الحكم سنة 1990م، كتبت "سيكار":

> "رغم سعي الدولة إلى غرس نظامٍ ذي عقيدةٍ ماركسيةٍ، إلّا أنّ القسم الأكبر من سكان جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية كان لايزال، على ما يبدو، عميقَ التأثّرِ بالإسلام

بشكله التقليديّ، إلا أنّ مؤشراتٍ قويةً تشيرُ إلى أنَّ السكان عموماً كانوا منقسمين حول نظام الحكم، حتى أنّ القيادةَ ذاتَها اعترفت بوجود هذه الثغرة في شرعيّة حكمها، فقد اشتكى علي سالم البِيضْ، على سبيل المثال، وهو الأمين العامّ للحزب الاشتراكي اليمني، في خطابه الأخير، من "العقلية المتخلفة" لأبناءِ شعبه، وادّعى أنّ زمن الشيوخ والسلاطين الإقطاعيّين قد ولّى، إلا أنّ عقليتهم وثقافتهم مازالت كما هي."

لم يكن علي سالم البيض ذاتُه بمنأىً عن تأثير هذه العقلية، فقد تمّ تعليقُ جميعِ أنشطته في الحزب بين عامي 1979 و1980م بسبب ممارسته لحقّه بالزواج من زوجةٍ ثانية[29].

أدَّتِ الهزيمةُ المُذلّة للجيوش العربية في حرب حزيران سنة 1967م أمامَ إسرائيلَ إلى تراجعِ القوميّةِ العربيةِ والفكرِ العلمانيّ الذي طالما صاحَبها، ورأى البعض أنّ هذه الهزيمة العسكرية جاءت عقاباً من الله للمسلمين لانحرافهم عن الطريق الصحيح. ويرى صلاح الدّين المنجّد، وهو باحثٌ سوريٌّ انتهى به المطاف أنِ استقرّ في المملكة العربية السعودية، في كتابه "أعمدة النكبة: بحثٌ علميٌّ في أسباب هزيمة 5 حزيران" أنَّ العرب قد هُزِمُوا في الحرب بسبب "تخليهم عن إيمانهم بالله، لذا فقد تخلى الله عنهم."[30] كما وتُبين عناوين كتبه السياسية الأخرى وُجهة نظر منجد العامة التي تتضمن "بلشفة الإسلام" و "وهم الاشتراكية."

أمّا قسطنطين زريق، السوريّ المولدِ، فقد قدّم تفسيراً مختلفاً لهزيمة العرب في كتاب نشره في خمسينيات القرن العشرين تحت عنوان "معنى النكبة" يتحدث فيه عن طرد الفلسطينيين من ديارهم خلال فترة إنشاء دولة إسرائيل، وبعد حرب حزيران سنة 1967م نشر كتاباً آخر بعنوان "معنى النكبة مجدداً" عزا فيه سببَ الهزيمة الرئيسَ في حرب حزيران إلى الرُّكود في المجتمع العربيّ، فقد كان العرب، على حدّ قوله، بحاجةٍ إلى الانتقال من مجتمعٍ يؤمِن بالأساطير، ويُغَلِّب العاطفة والمشاعرَ، إلى مجتمعٍ علميّ وعمليّ وعقلانيّ[31].

وما يثير الاهتمام أنَّ زريق ينحدر من أسرةٍ مسيحيةٍ أرثوذكسية، غير أنّه رأى دوراً إيجابياً للإسلام وإرثِهِ الثقافيّ في القومية العربية، بشرطِ فهمِ "الطبيعة الحقيقية" للإسلام، ويرى أنَّ التاريخ بيّن كيف أنَّ الحضارة العربية ما ازدهرت إلا بازدهار الإسلام، وأنها تراجعت عندما اتَّبعَ العربُ الدّين بطريقة عمياء.

ورغم أنّ سنة 1967م كانت تُعَدّ نقطةَ تحولٍ انقلبت فيها الموازينُ ضدَّ القومية العلمانية، إلا أنَّ ذلك لم يتجلى عملياً إلا بعد قيام الثورة الإيرانية سنة 1979م، حين بدأ الإسلام السياسيّ يظهر كقوةٍ أساسية في البلدان العربية، وقد ساهمت حرب حزيران سنة 1967م في تمهيد الطريق لذلك. لقيتْ النظرية القائلة بأن تلك الهزيمة في الحرب جاءت كعقاب من الله قبولاً واسعاً، حيث أعفى ذلك العربَ من الحاجة إلى القيام بأيّ شيءٍ سوى التمسُّك بالدّين بشكلٍ أكبر، فكان لذلك آثار سلبية بدلاً من أن تكون محفّزة.

كانت الصحوة الإسلامية في أواخر القرن العشرين بعيدة كل البعد عمّا كان يصبو إليه الإصلاحيون في المائة عامٍ المنصرمةِ عندما كانوا يوْصُون بتَبَنّي الأفكارِ "الجديرةِ بالثناءِ" من الدّيانات والثقافات الأخرى، لكنَّ ما ظهر كان ضرباً من عودةٍ بالإسلام إلى عهدهِ الأولِ، إسلامٍ يرفض "البدع والأفكار الغريبة" باسم الأصالة، في الوقت الذي كانت فيه هويّة الإسلام تُبْنَى، في جزءٍ منها على الأقل، على خيالاتِ الماضي، فكان الإصرارُ الشّديد على التفسيرات المتشدّدة للشّريعة الإسلامية أحدَ هذه الجوانب، يضاف إلى ذلك جانبٌ آخرُ هو التدين الواضح جداً، يُتَوَقَّعُ فيه من المؤمنين إظهارُ سلوكٍ إسلاميٍّ قويمٍ من خلال مراعاة قواعدِ سلوكٍ مقررةٍ مسبقاً، والتي كلما ازدادت تشدداً، ازداد تمثيلها للهوية الإسلامية، وبالتالي، زاد شعور مَنْ يلتزم بها بأنهم مسلمون صالحون.

يمكن العثور على تلك القواعد في الكثير من مواقع الأنترنت، كموقع "متّقون على الهواء"، والذي يقدم إرشاداتٍ مفصلةً عن اللباس الشرعيّ للرجال، فيقول إنّ ملابس الرجال يجب أنْ تغطي كامل الجسد دون أنْ تصل إلى الكعبين وألا تكونَ ضيقة، كما تَعتبرُ اللونين الأبيضَ والأخضرَ لونين ملائمين للرجال، على عكس اللون الأحمر، ما لم يختلط بلونٍ آخر، كما تنهى عن إدخال طرف القميص تحت البنطال.[32] وفي سنة 2006م، حدث في مصرَ جدلٌ مُلفتٌ عندما حذر الدكتور راشد خليل، وهو خبيٌر بالشريعة الإسلامية في الأزهر، مِنْ أنَّ التعريَ الكاملَ أثناء الجماع يبطل الزواج، إلا أنَّ رجال دين آخرين سرعان ما ردّوا عليه هذه المسألةَ، حتى أنّ أحدهم قال: "يجب السماح بكلّ ما يَزيدُ التقربَ بين الزوجين." كما قال عالم دينٍ آخرُ أنّه يجوز للزوجين رؤية بعضهما عراةً فيما عدا أعضائِها التناسليةِ، ناصحاً بممارسة الجنس تحت غطاءٍ لتجنب الوقوع في مشاكلَ من هذا القبيل. ومن أكثر الأمثلة غرابةً فيما يتعلق بسَنِّ الأحكام الشرعية ما حدثَ في العراق سنةَ 2008م عندما عَمَدَ المتشددون إلى فرضِ عزلِ الخضار على أساس "الجنس"؛ فقدِ ادَّعوا أنَّ الطماطمَ مؤنثةٌ بينما الخيارُ مذكرٌ، لذا فإنّ على بائعي الخضار تجنبُ وضعهما جنباً إلى جنب، وأنّ على النساءِ عدم شراءِ الخيار أو حتى لمسه[33].

لا غرابة أنْ تدفع مواقفُ كهذه الناسَ إلى الابتعاد عن الإسلام، في حين يرى آخرون أنّها من أسباب البقاء في ظل الدّين، ولو بالاسم فقط، لكي يتحدوها بفاعلية أكبر، ومنطقهم هنا أنّ الاستماعَ إلى انتقاداتٍ لهذه المواقف أفضلُ، في حال صدرت عن "الإصلاحيين" المسلمين، أو عن المسلمين "التقدميين" أو حتى عن العلمانيين المؤمنين، ممّا إذا صدرت عمّن يرفضون الإسلام رفضاً كلياً، ولا يعني ذلك بالضرورة أنّ الإصلاحيّين أو العلمانيّين وغيرهم كاذبون، إلا أنَّ من بينهم من يمكن وصفهم بانهم مؤمنون "تكتيكيون" يستحيل تقدير عددهم.

أما غسان عبدالله فقد استعرض أعمال نحو عشرين مفكراً علمانياً في مقال نشره سنة 1999م تحت عنوان "العلمانية الجديدة في العالم العربي"، فكان من الملاحظ أنَّ أيّا منهم لم يوصف في المقالة بالملحد، وعند سؤاله عن السبب، أجاب غسان عبدالله أنه يعتقد أن نسبة كبيرة منهم ملحدون أو منكرون لوجود الله على الأقل، فكثيرٌ منهم كان قد أقرّ بذلك سرّاً، ويضيف قائلاً: "إنّ نقدَ الإسلام في العالم العربي بالكتابة ليس قضيةً سهلةً ولا آمنة، ولكن عندما نقرأ ما يكتبه العقلانيون باللغة العربية فإننا نطوّر فكرة عمَّا كان يقصده هؤلاء الكتّاب عندما يستخدمون أساليبَ محددةً للتعبير عن أفكارهم، وبالتالي يمكننا استبصارُ مواقفهمُ التي لا يجرؤون على البوحِ بها صراحةً."[34]

أحد الذين تناولهم مقالُ عبدِ الله هو عبد الله محمد شحرور؛ وهو أستاذ سوري في الهندسة، كان قد نشر بدوره كتاباً سنة 1990م حلّل فيه نصوص القرآن. قادته عشرون عاماً من البحث إلى الاستنتاج بأنّ الدراسة الدّينية التقليدية غيرُ علميةٍ، فاتخذ شحرور موقفاً مناهضاً للإسلام بشكلٍ أساسيّ، وذلك في مسعىً منه للتوفيق بين الإسلام والفلسفة الحديثة ووجهة النظر العقلانية للعلم والعالَم، فكانت رؤيته للشريعة هي أنَّ الحكمَ باسمِ اللهِ كذبةٌ كبيرةٌ يستغلها من يريد الحفاظ على السلطة السياسية[35]، ورغم انتقاداته المتكررة للطريقة التي يُمارس بها الإسلام في الوقت الراهن، إلا أنه ظلَّ متردداً في نبذ الدّين بشكلٍ كامل، لكنَّ قبولَه به بدا كخضوعٍ للواقع السياسيّ لا خضوعاً لله. يقول شحرور"

> "بما أنّ للدّين دورَه المعياريّ الهامّ في مجتمعات الشرق الأوسط، فإنّي أعتبر تجاهله مستحيلاً، وقد جرَّب الليبراليون فعلَ ذلك، إلا أنهم فشلوا في محاولاتهم إسقاط الصّبغة السياسية الغربية على الدول العربية أو المسلمة، كما أراد الماركسيون فرض العلمنة في مسعىً لتدمير الدّين، ففشلوا أيضاً."[36]

ويعتبر موقع "مركز بحوث الدّين" الإلكترونيّ والذي يصف نفسه بأنه "مركز أبحاث حديث إسلامي" مثالاً آخر على ذلك، فبدلاً من نبذِ الإسلام، يقول الموقع أنّ هدفه "تحديثُ رؤيتنا للقرآن وتوسعتها من أجل توضيحِ حالات سوء الفهمِ، وفهم رسالاته وإمكاناته التي تم إهمالها."[37] يقتبس الموقع من القرآن بشكل متكرر ودقيق، إلا أنَّ القائمين عليه يوظفون القرآن في تقديم شيء ما يختلف عن تفسيرات الإسلام السائدة في يومنا هذا، وفي ذلك يقول الموقع المذكور:

> "نؤمن بأنَّ القرآن يرفض جميع أشكال الخرافات والعبادة العمياء والتمييز والظلم والعدوان والاستبداد ونظام الحكم الدّيني والتقاليد القمعية، كما نؤمن بأنه يوفر ويدعم الأطرَ العلميةَ غيرَ المتزمّتة والديمقراطيةَ والاجتماعيةَ والاقتصاديةَ والعالميةَ التي تُفضي إلى حلٍّ مشاكل الإنسان المتعلقةِ بالحرب والقمع والجوع والعنصرية والتمييز والتخلف والجريمة التي رافقت الإنسان منذ النشأة الأولى لحضارته."

كما ويتفادى الموقع الإلحادَ الصريحَ من خلال إعادة تعريف الله فيقول:

> "نحن لا نؤمن بالإله كما يراه التيارُ الرئيسُ في الأديان، بل نؤمن بإله، أو بالأحرى بقوةٍ لا ندركها، ليس له شكلٌ أو مكانٌ، وليس له في المحصلة أيّة منفعةٍ شخصيةٍ، لكنه في الوقت ذاته لا يتلاعب بالبشر تلاعُبَ الملكِ المستبدّ الطاغية. ونحن لا نؤمن بالعبادة التخليصية، أو بأمورٍ خارقة للطبيعة؛ سيكون في هذا العالم مفاجآتٌ للإنسانية، لا حصرَ لها؛ إلا أنها جزءٌ من خَلْقٍ واحدٍ، فالله هو الكاملُ الذي لم يُخلَق."[38]

إنَّ للنُسَخِ التقدمية من الإسلام الكثيرُ من الخصائص النّمطية، أهمّها أنهم يناقشون نظرتهم للقرآن من الناحية التاريخية على أنّ أحكامه التي كانت تنطبق على زمن النبي يجب أنْ تُفَسَّرَ اليومَ على ضوء الظروف المتغيرة، وهذا مناقضٌ لوجهة نظر الإسلاميين المؤمنين بوجوب التزامِ القرآن حرفياً لا تاريخياً، وأنّ رسالته لا تتغيّر بتغيرِ الزمان والمكان، كما ويميل المسلمون التقدميون إلى رفض مرجعية الأحاديث النبوية، ويرفضون الشريعة إذا ما مورست بشكلها التقليديّ ويفضلون الدولة العلمانية عليها.

إنَّ غيرَ المؤمنين الذين قابلْتُهم لغرض تأليف هذا الكتاب منقسمون حولَ ما إذا كان إصلاح الإسلام ممكناً، فقد رأى البعض، أو تمنّى على الأقل، أنْ يكونَ ذلك ممكناً. يرى جمال، وهو ملحدٌ مصريٌّ، أنَّ الإصلاح ممكن جداً، إلا أنه لم يكن مقتنعا بفكرة أنّ هنالك نسخ معتدلةً للإسلام وأخرى راديكالية، وعدّها

قضيةَ اختلافٍ بين الدعاة في طريقة تقديم الدّين "لكي تلائم همومَ ومخاوفَ شرائحَ معينةٍ من المجتمع.[39]" أما "بدرة" الكاتبة اللبنانية المناصرة للمرأة فتقول: "أنا لا أؤمن بإسلام أكثر ليبيرالية، فهنالك الكثير من الحركات الجديدة التي تشير إلى نصرة الإسلام للمرأة؛ لكنني لا أؤمن بذلك، وربما يعزى السبب في ذلك إلى أنَّ أول تواصلٍ لي بالنصّ القرآني لم يكن إيجابياً تماماً، ولا يمكن للمرءِ أنْ يجمع بين أنْ يكون مسلماً صالحاً – أو إلى حدٍّ ما مسيحياً صالحاً – ونصيراً للمرأة في الوقت نفسه".[40] أما "أحمد سعيد"، وهو يمنيّ، فيقول إنه كان مسلماً تقدمياً جداً قبل أن يرتدّ عنِ الإسلام، وهو اليومَ أكثرُ ريبةً في إمكانية النجاح من ذي قبل، ويقول في ذلك: "لطالما وَقَرَ في قلبي أنّ في الإسلام عيوباً، لذا علينا إصلاحُه وتطويره، كما أنّ علينا أنْ نعزّز إنسانيتنا وأنْ نكون أكثر تحضراً؛ إلا أنّ الحلّ لم يأتِ بنتيجةٍ مع الكثير من المسلمينَ، فقد غُسِلتْ أدمغتهم بشكلٍ كبيرٍ. أعتقد أنّ التعليم هو الحلّ، فإنْ وفّرنا للمسلمين تعليماً قوياً وشاملاً، سيكتشفون لاحقاً أنّ علينا أنْ نكون بشراً قبل أن نكون مسلمين."[41]

سُئِلَ الملحد المغربيّ قاسم الغزالي في مقابلةٍ أجرتها معه إحدى المجلات فيما إذا كان يعتقدُ بإمكانية إصلاح الإسلام، كما هي حالُ بعض الطوائفِ المسيحية، فأجاب:

> "لا يمكن في رأيي إصلاح أو تنوير الإسلاميين السُنَّةِ أو الشيعة لأنه لا توجد كنيسة لإصلاحها، ففي الإسلام نحن خاضعون لسلطة وتعاليم كتاب مقدّس، وهويتُنا وفهمُنا لأنفسنا ينبُعانِ من القرآن، ولو أنَّ المسلمين تمكنوا من استخدام عقولهم، دون الرجوعِ إلى كتابٍ يعتقدون أنه كلام الله، لأمكنننا التحدثُ حينها عن التنوير."[42]

إنَّ القرآن هو النقطة التي يتقاطع عندها الملحدون والإسلاميون الإصلاحيون؛ ففي الوقتِ الذي يتَّفقون فيه على العلمانية، يستمدُّ الإصلاحيون حُججهم في العلمانيّة من النصّ القرآنيّ، وبقدر ما يحاولون إعادةَ تفسيره ليلائم عالمنا الحديث، إلا أنّ القرآن يبقى السلطةَ أو المرجعية التي يلجؤون إليها في نهاية المطاف من أجل إثبات صحة آراءهم، وفي ذلك يختلف معهم الملحدون اختلافاً كبيراً."

الفصل الثالث: كتابُ الله

تحتاج الأديان إلى إبراز مؤهلاتها السماوية (أو الإلهية) وذلك لاجتذاب أتباعٍ لها؛ فالمسيحيةُ اعتمدتِ على قصصٍ تسردُ معجزات السّيد المسيح، كتحويل الماء إلى خمرٍ، وطرد الجنِّ، ومداواة المرضى بالمسح عليهم ... الخ، وبلغت هذه القصص ذروتها في قصة بعْثِ المسيحِ بعد الموت من جديد. يصعبُ تصديقُ مثلِ هذه القصص بطبيعة الحال؛ ما حدا بالعديد من الناس للقولِ بأنها لم تحدث أصلاً، أو القولِ بعدم أخذها بحرفيتها. أمّا بالنسبة لأولئك الذين يمكن إقناعهم بمثل هذه القصص، فنقطة قوتهم هي في هذه اللامعقوليةِ، وهي حقيقةُ أنَّ البشر العاديين لا يستطيعون الإتيان بالمعجزات ممّا أدَّى إلى استنتاج مفاده أنها لا بد أن تكون من تدبير الله.

يعتمد الإسلام أيضاً على المعجزات، ولكن ليس بالدرجة نفسها. وخلافاً للمسيح الذي زُعم أنّه ابن الله فالنبيّ محمدٌ إنسانٌ عادي، رغم أنه "المختار" من قبل الله، فقد تُوُفِّيَ وفاةً طبيعيةً ولم يبُعث إلى الحياة بعد ثلاثة أيام؛ أمّا المعجزات التي ارتبطت بالنبي محمد فهي قليلةٌ، وليست أساسَ الدّين الإسلامي. مِنْ هذه المعجزات الإسراءُ بالنبيّ محمدٍ من مكة إلى القدس وعودته – ذهاباً وإياباً قاطعاً أكثر من 1500 ميلاً – وأنه عُرِجَ به من القدس إلى السماء في الليلة ذاتها[1]، ومنها ما وردَ فيمن طلب من النبيّ آيةً على صدقه، فما كان منه إلّا أنْ أشار إلى القمر فانْشقَّ القمر، وقد دأبتِ التقاليدُ الإسلامية على الاحتفاء بذكرى هاتين المعجزتين، رغم أنّ القرآن لم يشر إليهما إلا بآيات قليلة، ودون ذكر التفاصيل في الآيتين التاليتين: "سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِير" (سورة الإسراء: الآية 1) و "اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ" (سورة القمر: الآية 1)

غير أن المسلمين يعتبرون القرآن نفسه أهمَّ معجزةٍ في الإسلام، ويختلف الإسلام في هذا الصدد اختلافاً كبيراً عن المسيحيّة، فالمسيحيّون غالباً ما يصفون الانجيل بأنه "كلام الله" ووحي إلهي، ولا يزعمون أنّه من تأليف الله، إنّما مجموعة نصوصٍ من مصادرَ بشرية، أمّا القرآن فيقال أنَّه كلام الله مباشرةً، أنزله على النبي محمد عن طريق جبريل، ويُشَكِّلُ هذا الزعم جوهر الإسلام، فلا إيمانَ بدونه، وبالتالي هو الادِّعاءُ الذي يتفانى المسلمون في إثبات صحته، والمشككون في دحضه.

استخدم المسلمون بعض الحجج في إطار جهودهمُ الراميةِ إلى إثبات الأصل الإلهي للقرآن، وتركّز هذه الحجج على أن النبي محمد أهلٌ للثقة، وعلى تميُّزِ القرآن وتفرده في اللغة والأسلوب الأدبيّ، والحفاظ الدقيق على النص على مدى قرون، إضافةً إلى الأدلّة بين دُفَّتيه، كالتَّنبُّؤِ بالأحداث والكشوفِ العلمية.

تسعى الحُجّة الأولى لإثبات أنَّ محمداً كان شخصاً نزيهاً وصادقاً في إيمانه وأنَّ القرآن رسالةٌ من الله. يقول الشيخ محمد صالح المنجد، وهو رجل موظف لدى حكومة المملكة العربية السعودية:

> "اصطفى الله محمداً رغم أنَّه عاش يتيماً وكان أميّاً، لا يعرف القراءة أو الكتابة؛ وقد اجتمعت فيه كل الصفات والفضائل الحميدة إلى درجة الكمال، الأمرُ الذي لا يمكن لأحد آخر أن يمتلكه باستثناء الأنبياء الذين حفظهمُ الله وهداهم. هذا المزيج من الصّفات المثالية هي واحدة من أعظم البراهين على صدق نبوته، عليه الصلاة والسلام."[2]

كما ويستشهد معهد التربية والمعلومات الإسلامية في الولايات المتحدة بأميَّة النبي محمدٍ كدليلٍ على أنَّه لا يمكن أن يكون قد كتب القرآن بنفسه:

> "من المعروف جيداً أن محمداً كان أميّاً، وحتى من عاصره من غير المسلمين ومن المؤرخين في يومنا هذا يقرّون بذلك، ولم يكن لديه معلّم ولم يدرُس في مدرسة، ولم يسبق له أنْ قال الشعر أو النثر.
>
> إنَّ القرآن، بأحكامهِ الشاملة وخُلُوِّه من التناقضات، فيه من العظَمة ما اعترف بها حتى العلماء من غير المسلمين، فهو يعالج التشريعاتِ الاجتماعيةَ والاقتصاديةَ والسياسيةَ والدينيةَ والتاريخَ، ونظريات في الكون، والكائنات الحيّة، والفكر والمعاملات الإنسانية والحرب والسلام والزواج والعبادة والأعمال التجارية، وكل ما يتعلق بالحياة، مع عدم وجود تناقضات في مبادئه."[3]

وبعد أنِ استبعد المعهد بأن يكون النبي محمد هو من كتب القرآن، ذهب إلى افتراضات أنّ مؤلفين آخرين قد كتبوه، من العرب أو من غيرهم، أو حتى الشيطان، وباستبعاد هؤلاء استنتج المعهد أن المؤلف الحقيقي لا بد أن يكون الله.

لكنَّ الادِّعاء بأنَّ القرآن تنزيل إلهي شيءٌ لا يخلو من المجازفة، فالعمل الأدبي المنسوب إلى الله لا بد أن يتصف بالكمال، يقول الشيخ المنجد واصفاً القرآن بأنه "أعظَمُ آيةٍ" من آيات الله، اجتمعَتْ فيه المعجزاتُ في كلٍّ من الأسلوب والمحتوى، فلا يمكن للبشرية جمعاء تقليدها. يقع أسلوبُ القرآن الأدبيُّ الذي أُنزل باللهجة المحلية القُرشية من اللغة العربية في منزلةٍ ما بين الشعر والنثر، وصِيْغَ بطريقة تجعل حفظه سهلاً، والتشكيكَ في فصاحته غايةً لا تُدرك. أمّا "محمد مرمدوك بيكثول Muhammad Marmaduke" Pickthall البريطاني الذي اعتنق الإسلام سنة 1930 فقد نشرَ واحدة من أكثر ترجمات للقرآن شهرةً، واصفاً لغةَ القرآنِ بأنها "سيمفونية لا تُضاهى، أصواتها تسبب الدموع والنشوة."[4]

إنَّ القرآن نفسُه لا يزعم أنّه يستحيل الإتيان بمثله فحسب، بل يتوعد من يحاول ذلك بالعذاب في نار جهنم:

"وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ... فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ. (سورة البقرة: 23-24)

رغم التهديد بالعقاب الأبدي، كانت هناك الكثير من المحاولات لتقليد القرآن. فقد أنتج أبو العلاء المعري، الفيلسوف والشاعر السوري المتوفى سنة 1057 م، محاكاة ساخرة للقرآن، وبعد أنْ علم أنَّ عمله لم يكنْ له وقْع القرآن، قيل إنه أجاب: "عندما تقرأ القرآن لأيام وسنين طوال فسوف يكون له نفس الوقع في النفس." ما يوحي بأنَّهُ كان يقصد أنَّ أُلْفَةَ القُرَّاءِ مع القرآن وكثرة قراءتهم له هي ما أكسبتِ القرآن هذا الوقْعَ والتأثير[5].

أمّا المحاكاة السّاخرة الأحدث للقرآن فكانت "الفرقانُ الحقُّ" وهو كتابٌ نشر في الولايات المتحدة سنة 1999، وكُتب بأسلوب القرآن ولكن يحتوي رسالة مسيحيّة[6]، ويبدو أنَّه قد صُمِّمَ بطريقةٍ تجعل الناس تقتنيه خطأً على أنّه القرآن الكريم.

في نفس الوقت تقريباً، كان هناك حملة ضد موقع "SuraLikeIt" الإلكتروني الذي نشرَ أربعَ آياتٍ مكتوبةٍ بأسلوبِ القرآن مترجمةٍ إلى اللغة الإنجليزية، مطلِعُ إحداها:

(1) ألف لام صاد ميم

(2) قل يا أيّها المسلمون أنتم في ضلال كبير.

(3) إنَّ للذين كفروا بالله والمسيحِ في الآخرة نارَ جهنّم ولهم عذابٌ أليم.

(4) وجوهٌ يومَئذٍ كالحةٌ مسودةٌ، يسألون اللهَ العفوَ، والله يفعل ما يشاء ...

وزدْ على ذلك أنَّ هذه الآياتِ المزعومةَ توحي بأنَّ النبيَّ محمداً كان يُضِلُّ المسلمين، وأنَّ محمّداً بدوره كان يضلّه الشيطان. تَصَدَّرَ موقعُ "SuraLikeIt" الصفحاتِ الأولى للصّحف في مصر، حيث ندّد علماء الأزهر بالموقع واعتبروا ما يُنْشَرُ فيه "عدواناً على التراث الإنساني والقيم المقدسة ليس فقط للمسلمين، ولكنْ للبشرية جمعاء." وفي نهاية المطاف، اقتنعت شركة "أمريكا أون لاين" التي استضافت الموقع السابق على الإنترنت بضرورة حذفه، وعلى ما يبدو لم تكن هذه الشركة مدركةً بأنَّ النّاس يقلّدون القرآن بغرض الاستهزاء به منذ قرون، فبرّرت موقفها قائلةً: "إنَّ شروط الخدمة لدينا واضحة جداً بخصوص ما نسميه المحتوى غيرُ المناسب، كالمحتوى الذي فيه افتراءٌ أو تشويهٌ للسمعة،" وهذا ما دفعها إلى حذف الموقع المذكور بسبب استهدافه للإسلام على وجه الخصوص، غير أن موقع "SuraLikeIt" لم يتوقف بل وجد شركات أخرى تستضيفه على شبكة الإنترنت وزاد عدد الآياتِ المقلِّدة من 4 إلى 12[7].

ولكي يتمَّ قبولُ القرآنِ على أنّهُ كلامُ الله المباشر لا بد من إثبات أَنَّ آياته لم يطرأ عليها أيُّ تغييرٍ منذ نزولها على النبي محمد حتى يومنا هذا. يتألف القرآن من 114 سورة نزلت على أجزاء طوال 23 عاماً وكان النبي محمد يتلوها على أتباعه ويحثهم على حفظها، وقد كُتِبَتْ سورُ القرآن بعد وفاة النبيّ محمد سنة 622م على ما توافر من موادّ كالجلود والعظام وسعف النخل، وعندما توفي النبي سنة 622م لم يكن قد جَمَعَ هذه السورَ في كتابٍ واحد، وفي معركة اليمامة التي وقعت سنة 633م قُتل الكثير من صَحابته ممّا أثار المخاوف من ضياع أجزاء من القرآن مالم تُتَّخذْ خطواتٌ لحفظه:

> "طلبَ أبو بكر الصديق، الخليفةُ الأول، مِنَ الصحابي زيد بن ثابت أَحَدُ كاتبي الوحي الذي نَزَل على النبي محمد أن يترأس لجنة تجمع سور القرآن في صحف من الورق.
>
> وللحفاظِ على عمليةِ جمْعِ القرآن خاليةً من الأخطاء، لمْ تقبلِ اللجنةُ إلا النصوص التي كُتبت في حضور النبيّ محمد نفسه وشهادة اثنين من الرجال الثّقات ممَّنْ سمعوا النبي يتلو ما يرادُ كتابته.

بعد أنْ تمَّ الانتهاءُ منْ عملية الجمع وحصولها على موافقة الصحابة بالإجماع، حُفظَتْ هذه الصحفُ عند أبي بكرٍ الصديق، ومِنْ ثُمَّ الخليفةِ عُمر من بعده والذي أعطاها بدوره لابنته حفصة أرملة النبي محمد."[8]

ومع انتشار الإسلام فيما بعد عُثِرَ على اختلافاتٍ بين النصوص، قيل إنها جاءت تَبَعَاً لاختلاف اللهجات المحليّة، وللحفاظ على القرآن من الاختلاف، أمرَ الخليفة عثمان الذي تولى الخلافة بين سَنتي 644-654م باعتماد مُصحَفِ أبي بكرٍ وحرقِ باقي النُّسَخ.

إنَّ هذه الجهود الرامية لمنع النّصِّ الأصليّ للقرآن منَ الضياعِ أو التحريف شكلتْ جزءاً هاماً كدليل على صحته وموثوقيته، ولكن البعض يرى في هذه الجهود دليلاً على أنَّ القرآن ليس كلاماً منزلاً، وإلا لاختار الله المتَّصفُ بالكمال طريقةً موثوقةً أكثر لإنزال القرآن على النبي. وفي ذلك يقول الكاتب المصري الملحد محمد رمضان: "إنّ مَمَّا يدعو للسُخرية أنْ تحاول إقناعي بأنّ هذه كانت الطريقة الوحيدة التي بواسطتها نقل الله بها علمه ومعرفته الأهم للبشرية، ومن السخرية أيضاً أنه اختار اللغة العربية دون غيرها."

وفي السنوات الأخيرة ازداد اعتمادُ المناظرين الإسلاميّين على "الإعجاز العلمي" للقرآن لإثبات مصدره الإلهي، وقد طغت هذه المزاعم على الحُجَجِ التقليديّة التي دَأَبَ المدافعون عن القرآن على استخدامها، والفكرة الأساسيّة هنا أنَّ سور القرآن تحوي معلومات علمية لم تكن معروفة في زمن النبيّ محمد ممّا يدلُّ على أنّه كلامُ الله، ويقول معهد التربية والمعلومات الإسلامية في ذلك:

"في القرآن معلوماتٌ عن العصور الغابرةِ لم تكن معروفة من قبل المعاصرين للنبي محمد، ولا حتى المؤرخين الذين عاشوا في النّصف الأول من القرن العشرين، وهنالك عشراتُ الآيات التي فيها إشاراتٌ إلى إعجازاتٌ علمية، بعضها لم يُكتشَفْ أو يُثبَتْ إلا مؤخراً، وذلك في مجالاتٍ عدةٍ كالكون والأحياء وعلم الأجنة وعلم الفلك والفيزياء والجغرافيا والأرصاد الجوية والطب والتاريخ وعلم المحيطات ... الخ[9]

أصبح "الإعجاز العلمي" منذ الثمانينيات أداةً رئيسيةً للدّعوة الإسلاميّة، ويبدو أنّه لاقى نجاحاً كبيراً وأعطى للمسلمين شعوراً متجدداً بالفخر بدينهم، بينما يرى آخرون أنَّ هذا قد ساهم كثيراً في التشكيك بالدّين الإسلامي.

يرجع أصلُ "العِلْمِ القرآنيّ" إلى الطبيب الفرنسي "موريس بوكايلMaurice Bucaille" الذي شَغَلَ منصبَ طبيب العائلة لدى الملك فيصل، ملكِ المملكةِ العربيةِ السعوديةِ في أوائل السبعينيات. ألَّفَ "بوكايل" كتابَ "الإنجيلُ والقرآنُ والعلمُ" وتم نشره سنة 1976م، ويقول فيه إنَّ الإنجيل احتوى على الكثير من الأخطاء العلميّة على خلاف القرآن الذي كان متبصِّراً، ففي آياته ما يشير إلى الانفجار الكبير والثقوبِ السوداء والسَّفرِ في الفضاء. توفي "بوكايل" سنة 1988 لكن اسمه ما زال حياً، فالبحث في القرآن عن المعرفة المسبقة للاكتشافات العلمية أصبح يُعرف بـِ "البوكايلية."

يعلق الفيزيائي الباكستاني "برويز هودبوي Pervez Hoodbhoy"قائلاً:

> "إن طريقة "بوكايل" بسيطةٌ، فهو يطلب من قرائه التأملَ في بعض الآيات القرآنية، ثم ينتقي، من بين مَعَانٍ متنوعة لآية ما، معنىً يطابق أو ينسجم مع حقيقة علمية ما... ولفعل ذلك قام بجمع عددٍ كبير من الآيات القرآنية التي فيها إشاراتٌ إلى النحل والعناكب والطيور والنباتات والخضروات من مختلف الأنواع وحليب الحيوانات والأجنة والتناسل البشري."[10]

من نقاط الضّعف الواضحةِ في هذا النَّهج أنّه يعمل بشكلٍ معكوسٍ، "فالمعرفة" العلمية في القرآن لا تصبح واضحةً جليّةً إلا بعد أنْ يثبتها العِلم. ويضيف "هودبوي": "لا يوجد في كتاب "بوكايل" تنبؤٌ واحد بأيّ حقيقةٍ فيزيائيةٍ غيرِ معروفة الآن (أي أن كل ما في القرآن من حقائق علمية هي معروفة مسبقاً)، وما في القرآن من نبوءات يمكن اختبارها بالملاحظة والتجربة في المستقبل."[11]

أحدُ كبار المتأثرين "ببوكايل" في الثمانينيات هو الشيخُ اليمنيُّ عبد المجيد الزندانى الذي درَّس في جامعة الملك عبد العزيز في المملكة العربية السعودية، وراح يسعى للقاء علماءَ غربيّين ممّن كانوا يزورون المملكة بهدف حملهم على قول أشياءَ إيجابيةٍ حول "المعرفة" العلميّة في القرآن الكريم. وقد وُصِفَتْ تقنيّة الزنداني في مقالٍ نشرته صحيفةُ "وول ستريت جورنال" للكاتب "دانيال جولدن Daniel Golden":

> "انطلقت مسيرةُ الزنداني عندما قدَّم أحدُ مساعديه، وهو مصطفى عبد الباسط أحمد، علَقَةً إلى البورفيسور "كيث مور Keith Moore" من جامعة "تورنتو" والذي ألفت كتباً راجت كثيراً في مجال علم الأجنة."

أراد مصطفى أنْ يبّينَ له أنَّ الآية التي تصف خَلْقَ الإنسان من علقةٍ تُقَدّمُ تشبيهاً مطابقاً تماماً لوصف عملية الحمل المبكرة لدى الإنسان كما تبدو هذه العملية تحت المجهر. وقال السّيّد مصطفى أنّه أَذْهَلَ البروفيسورَ "مور" بالتّشابهِ بين العلقة والجنين البدائي. وبما أنّ نزول القرآن سبق اختراع المجهر، خَلُصَ البروفيسور، وهو ابنُ رجل دين بروتستانتي، إلى أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ وقد أنزله على النبي محمد."[12]

أُعجِب البروفيسور "مور" بذلك كثيراً لدرجة أنَّه كتب "الطبعة الإسلامية" من كتاب علم الأجنَّة بعنوان "الإنسان المتطور" سنة 1983م، والتي وصفها بأنَّها تحتوي على نفس مادة النُّسخة الأصلية إضافةً إلى "إشاراتٍ كثيرةٍ إلى تعابيرِ من القرآن والسنة حول علم الأجنة البشرية،" وكتبَ في مقدمة الكتاب:

"على مدى السنوات الثلاث الماضية عملتُ مع لجنة علم الأجنّة في جامعة الملك عبد العزيز في جدة في المملكة العربية السعودية، وساعدتهم في تفسير التعابير الكثيرة الواردة في القرآن والسنّة والتي تشير إلى التكاثر البشري ومراحل ما قبل الولادة.

في بادئ الأمر ذُهلتُ من دقَّة البيانات التي تمَّ تسجيلها في القرن السابع قبل تأسيس علم الأجنّة. رغم أنّي كنتُ على بينةٍ من التاريخ المجيد للعلماء المسلمين في القرن العاشر، وبعضٍ من مساهماتهم في الطب، إلا أنّني لم أكنْ أعرف شيئا عن الحقائق والمعتقدات الدينية الواردة في القرآن والسنة.

من المهمّ للطلاب المسلمين وغيرِهم أنْ يفهموا معنى هذه التعابير والبيانات القرآنية حول التطور البشري بناءً على المعرفة العلمية الحاليّة."[13]

غادر الشّيخ الزنداني جامعة الملك عبد العزيز، ولكنَّه في سنة 1984م حَصَلَ على تمويلٍ من حكومة المملكة لإنشاء "لجنة للإعجاز العلميّ في القرآن والسنة." أمّا مصطفى عبد الباسط أحمد، وهو الرجل الذي قدَّم العلَقَةَ إلى البروفسور "مور"، فيقول "جولدن" أنَّ اللجنة المذكورة وظَّفته براتبٍ قدْرُه 3000 دولار شهرياً لكي يطوف أمريكا الشمالية ويُكوّن صداقاتٍ مع علماء فيها، ويضيف "جولدن":

"تمَّ توجيهُ الدّعوات للعلماء من قِبَلِ اللجنة لحضور مؤتمراتها، وقدّم لهم ولزوجاتهم تذاكر طائرةٍ من الدرجة الأولى، كما تمَّ حجز أفضل الفنادق لهم، وقدم لكل واحد منهم مبلغ

1000 دولار أمريكي كمكافئات شرفيّة، وأقيمتْ لهُمُ الولائم مع الزعماء المسلمين من قَبيل عشاءٍ في قصرٍ في إسلام أباد مع الرئيس الباكستاني محمد ضياء الحق...

عُرضتْ على العلماء، خلال رحلاتهم، آياتٌ منَ القرآن ليأخذوها بعين الاعتبار في ضوء خبرتهم، ثم قام الزنداني بإجراء مقابلاتٍ معهم حول هذه الآيات أمام كاميرا الفيديو، ودَفَعهم للإقرار بعلامات الإلهام الإلهي. وتحدث "جولدن" مع كثيرين ممن شعروا أنهم تعرّضوا للخداع أو تم التّلاعب بهم. فقد قال أحد هؤلاء:

"تمَّ تكليفُ عالِمِ البحار "وليام هاي William Hay"، الذي كان يُدرّس حينها في جامعة "كولورادو"، بدراسة آيةٍ مِنَ القرآن تُشَبِّهُ أذهانَ غيرِ المؤمنين "بالظلماتِ في أعماق البحار...تعلوها أمواجٌ، من فوقها أمواج أخرى." وقد حثّ السيد الزنداني البروفيسور "هاي" على أنْ يقرّ بأنّه من غير الممكن أن النبي محمد عرف شيئاً عن التيارات الداخلية الناجمة عن تفاوتٍ في الكثافات في أعماق المحيط، وعندما افترض البروفيسور "هاي" أنَّ محمّد ربما تعلم هذه الظاهرة من البحّارة، أصرَّ الزنداني أنَّ النبيَّ لم يزر ميناءً بحرياً قطّ.

يقول البروفيسور "هاي"، وهو عالم منهجيّ، أنَّه اقترح فرضياتٍ أخرى للسيد الزنداني لكنّه رفضها، لينتهيَ المطاف بالبروفيسور "هاي" أنِ اعترف أنَّ الإشارة إلى الأمواج الداخلية "لابد أنْ تكونَ وحياً إلهياً،" وهو اعتراف تتباهى به المواقع الإسلامية.

ويضيف البروفيسور "هاي" الذي يُدّرس الآن في معهد بحرية ألمانيّ: "لقد وقعتُ في الفخِّ ثم حذَّرتُ الآخرين من ذلك."

والآنَ وبعد مضي عدة سنوات، ما زالت مواقع الإنترنت تتناقل الكثير من تعليقات العلماء الذين تواصل معهم الزنداني[14] الذي كانت تربطه علاقاتٌ طويلةٌ الأمدِ معَ أسامةَ بنِ لادن، وفي نهاية المطاف عاد الزنداني إلى اليمن ليصبحَ شخصيةً بارزةً في حزب الإصلاح الإسلامي المحافظِ وأسَّس جامعةَ "الإيمان"، وهي مؤسَّسةٌ دينيةٌ يمنيةٌ يَدْرس فيها نحو 6000 طالب وطالبة، وزعم أنَّه وضع علاجاً بالأعشاب لفيروس نقص المناعة المكتسبة (الإيدز). وفي سنة 2004 أدرجَتْهُ الولاياتُ المتحدة على لائحة الإرهاب وكان السَبَبُ الرَّئيسُ وراء ذلك علاقتُه بتنظيم القاعدةِ وبأسامة بْنِ لادن.[15]

إنَّ البحثَ الحثيثَ عن المعرفةِ العلميةِ المسبقةِ في القرآن هي أمرٌ يمكن لأي شخص أنْ يُسهمَ فيه، وهو أمرٌ لا يتطلَّب أيّةَ خبرةٍ لاهوتيةٍ، كما أنَّ النسخَ والإصداراتِ الرقميّةَ مِنَ النَّصِّ القرآني جعلتْ البحثَ أسهلَ ممّا كان عليه من قبل. وهناك أيضاً فرصةٌ كبيرةٌ للعثور على شيء ما في آيات القرآن التي تزيد عن 6000 وتفسيرِها على أنَّها اكتشافٌ علميٌّ حديثٌ باستثمارِ الخيال، والإنترنت مليءٌ بالأمثلة التي يدّعي الناسُ أنهم عثروا عليها.

غالباً ما تؤتي عملياتُ البحث أُكُلَها بسبب الغموضِ في لغةِ القرآن، وقد تطوّرتْ مفردات اللغة العربية في القرن السابع الميلاديّ بحيث تتناسب مع احتياجات ذلك الزمان، ولكنْ في ظلِّ غيابِ المصطلحاتِ العلميّةِ الدقيقةِ، كان من اللازم استخدامُ التعابير الرمزيةِ أو التقريبيةِ في كثيرٍ من الأحيان. فالكواكب، على سبيل المثال، وُصِفَتْ في القرآن بأنها "تسبَحُ" في الفضاء (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ. سورة الأنبياء: الآية 33)، فهذا الوصف غيرُ الدّقيقِ والغامضُ يخلقُ التباساً يدفع الناس لقراءة أشياءَ في النّصّ قد تكون مقصودة وقد لا تكون كذلك، كما يَسمحُ هذا الغموضُ للمشككين بالقول إنه لو أرادَ اللهُ إيصالَ المعلومةِ العلمية من خلال القرآن لكان أفصحَ عنها بوضوحٍ أكبر.

كما ظهرت مزاعمُ بالمعرفة المسبقة في الأديان الأخرى، فعلى سبيل المثال، تقول آيةٌ من الكتاب المقدس لدى الهندوسِ: "ما لا وجود له لا يمكن أنْ يأتي إلى حيَز الوجود، وما هو موجودٌ أصلاً لا يمكن أنْ يفنى،"[16] وقد فُسِّرَتْ على أنَّها إشارةٌ إلى قانون حفظ المادة والطاقة في الفيزياء. ولكنَّ هذا الأمر قد يكون محفوفاً بالمخاطر، حيث يقول "هودبوي Hoodbhoy": "إنَّ العلمَ وقحٌ جداً بتخلّيهِ عن النظريات القديمة وفي تبنيه لأخرى جديدةٍ." وقد دَأبَ الهندوس على الزعم أنَّ كتابهم المقدس مليءٌ بالأدلة التي تؤيد نظرية "الحالة المستقرة"[2] في علم الكونيات، إلى أنْ تخلى العلماءُ عن هذه النظرية لصالح نظرية الانفجار الكبير. وغنيٌّ عن القول أَّن الهندوس سرعان ما وجدوا نصوصاً دينيةً أخرى في كتابهم "تتفق تماماً مع النظرية الجديدة، إلا أنَّهم ادَّعَوا بفخرٍ انتصارَ الحكمة القديمة."[17]

[2]- في علم الكون الفيزيائي، نظرية الحالة الثابتة أو نظرية الحالة المستقرة Steady State theory (تعرف أيضا بنظرية الكون اللامتناهي أو الخلق المستمر) هي عبارة عن نموذج تم تطويره في عام 1949 من قبل فريد هويل، توماس غولد، هيرمانبوندي وآخرون كبديل عن نظرية الانفجار العظيم (التي تعرف بالنموذج الكوني القياسي). من وجهة نظر الحالة الثابتة، هناك مادة جديدة تتشكل وتخلق باستمرار مع توسع وتمدد الكون، بحيث يؤمن الحفاظ على المبدأ الكوني المثالي perfect cosmological principle.

وتُوضِحُ كثيرٌ مِنَ الأمثلة كيف تعمل تقنية "ابحث وستجد" في القرآن؛ فهناك مقالة على موقع "الإسلام الصحيح" على شبكة الإنترنت تتحدث عن طبقة الأوزون وتبدأ بالكلام عن أهمية هذه الطبقة في حماية الإنسان من الأشعة الضارة. وتقول المقالة إنَّ "طبقة الأوزون اكتُشِفَتْ بعد عدة قرونٍ من نزول القرآن، غيرَ أنَّ القرآن يَذكرُ هذه الطبقة التي تحمينا من أشعة الشمس الضارة." تقول أحد الآيات البالغة الأهمية:

"حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا" (سورة الكهف: الآية 90)

وبالنسبة لمن لا يرى أنَّ هذه الآيةَ تشير إلى ثُقْبٍ في طبقة الأوزون، يوضِح الكاتب:

خمسةُ استنتاجاتٍ تُسْتَنْبَطُ من هذه الآية:

1. كلمة "سترا" تعني أنَّ هنالك شيئاً ضاراً يأتي من الشَّمس، لأنَّه إنْ لم يكن هناك ضررٌ تسبِّبه الشمس فلا حاجة للستر إذاً.
2. فُسِّرَتْ كلمة "سترا" في التفسيرات الأقدم للقرآن بمعنى الجبال أو التّلال، ولكنِّ الجبال والتلال لا تحمي من الأشعة فوق البنفسجية التي تطلقها الشمس، إلا إذا كنّا نعيش داخلَ أحد هذه الجبال أو التلال.
3. صياغة الآية تشير إلى أنَّ الشعب الذي ذُكر القرآن ويعيشون بدون ستر هم في الحقيقة استثناءٌ، على خلاف باقي البشر الذين يعيشون في ستر منها.
4. عبارةُ "لم نجعل لهم من دونها سترا" تشير إلى أن الستر طبيعي (أي من صنع الله) وليس من صنع البشر. وهذا يلغي تلقائياً تفسيره على أنَّ الستر هنا هو المنازلُ أو الملاجئُ التي هي من صنع الإنسان.
5. تشير الآية إلى وجود شعب ومناطق غيرِ محمية، وهذا يتماشى مع المعرفة الحالية بشأن وجود ثقوب في طبقة الأوزون. ويسود اعتقاد أنَّ هذه الثقوب كانت موجودةً دائماً، لكنَّ الأمر أصبح مقلقاً مؤخراً بسبب توسع هذه الثقوب نتيجةَ تلويث الإنسان للأرض. فيتبين ممّا سبقَ أنَّ ثقب الأوزون هو الظاهرةُ الوحيدةُ التي تستوفي هذه الاستنتاجات الخمس[18].

والملاحظة الأكثر أهمية حول الآية المذكورة هي أنَّها تفترض وجود بقعة فعلية في مكان ما على الأرض تشرق منها الشمس لكن لم يكتشفها العلماء حتى الآن، وهنالك آياتٌ سابقةٌ للآية آنفةِ الذكرِ تتحدث عن مكان غروب الشمس "في عينٍ حَمِئَةٍ" (موحلةٍ أو قاتمةٍ، سورة الكهف: الآية 86) وقربَ هذا المكان يعيش بشر.

في هذه الأثناء، كَتبَ موقع دليل الإسلام موضوعاً عن علم الجيولوجيا في القرآن، ورد فيه:

> "هنالك كتاب بعنوان "الأرض" يُعْتَبَرُ مرجعاً أساسياً ويُدَرَّسَ في الكثير من الجامعات في مختلف أنحاء العالم. أحد مؤلفي الكتاب هو "البروفيسور إيميريتوس فرانك برس "Frank " Press الذي كان المستشارَ العلميَّ للرئيس الأمريكي الأسبق "جيمي كارتر" وَشَغَلَ منصب رئيس الأكاديمية الوطنية للعلوم في العاصمة الأمريكيّة واشنطن على مدى 12 عاماً، يقول في كتابه أن للجبال جذوراً راسخةً عميقةً في الأرض، وبالتالي، فإن للجبال شكلاً يشبه الوتد."[19]

إنَّ الانتقالَ السريعَ هنا من كلمة "جذر" إلى "وتد" يفسر الآية التالية:

أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (سورة النبأ:6-7)

ويضيف موقع "دليل الإسلام": "إن تاريخ العلم يخبرنا بأنَّ النظرية القائلة بأنَّ للجبال جذوراً عميقةً لم تُطرح إلا في النّصف الثاني من القرن التاسع عشر." إذاً، هل هذا مثالٌ على أنَّ القرآن كشف عن معلومات لم تكن معروفة في حياة النبيّ "محمدٍ أمْ أنَّها حالةٌ من حالات التمني؟ إنَّ لبعض الجبال جذوراً، وبعض تلك الجذور لها شكل وتد بالفعل، لكنْ ما مِنْ سبب مقنع يجعلنا نفترض بأنَّ هذا هو ما تُلمِّحُ إليه الآية.

نعرف اليومَ أيضاً أنَّ ثروات الأرضِ الوفيرةَ من الحديد مصدرُها الفضاءُ، وتكوَّنتْ بفعلِ انصهارٍ في نجومٍ ذاتِ درجاتِ حرارةٍ هائلة، وتزعم العديد من المواقع الإسلامية على شبكة الإنترنت أنَّها وجدت هذه المعلومة في القرآن، من خلال الاستشهاد بجزء من آية تقول: "وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ" (سورة الحديد: 25). وورد في مقالة نشرت على موقع "دين الإسلام" ما يلي:

"وهذا يدلُّ على أنَّ الحديدَ لم يتشَّكل في الأرض بل حملته نجومٌ هائلةٌ متفجرةٌ، وأُنزِل إلى الأرض، تماماً كما جاء في الآية، وممّا لا خلافَ فيهِ أنَّ هذه الحقيقة لم تكنْ معروفةً في القرن السابع الميلادي عندما أُنْزِلَ القرآن. ومع ذلك فإنَّ هذه الحقيقة موجودةٌ في القرآن الذي هو "كلام الله" الذي يحيط عِلْمُهُ بكلِّ شيءٍ، وما يُذهلُ هنا هو ذكرُ الآية للحديد بذاته، خصوصاً أنَّ هذه الاكتشافاتِ قد تمَّتْ في أواخر القرن العشرين."[20]

غير أنَّ هذا ليس التفسيرَ الوحيدَ الممكنَ للآية القرآنية، فمِنَ الممكن أنْ تعني أيضا أنَّ الله "كشَفَ" عن الحديد وفوائده الكثيرة للبشرية، أو أنَّه ببساطة "قدّمه" للبشرية.[21] لكنَّ الموقعَ لا يعترفُ بهذه الاحتمالات ويرفضها، معللاً ذلك بقوله إنَّ الفعل "أنزلنا" ورد في القرآن بمعناه الحرفيّ وهو "الإرسال للأسفل،" وهذا غير صحيحٍ لأنَّ هنالك آياتٍ أخرى في القرآن تقول إن الله "أنزل" الملبس والمأكل وثمانية أنواع من الماشية، ولم يقلْ أحدٌ أنَّ أيّاً من هذه نشأت مِنِ انصهار النجوم الهائلة المتفجرة[22].

ولا حاجةَ للقول أنَّه عندما تظهر على شبكة الأنترنت مقالاتٌ من هذا القبيلِ، تأتي مقالات أخرى لتفنِّدها، كما أنَّ هنالك مواقع معادية للإسلام تسلّط الضوء على ما يزعُمون أنَّها أخطاءٌ علميةٌ في القرآن الكريم. ويشير آخرون إلى أنَّ القرآن ليس وحده من يمتلك هذه البصيرة، حيث يقول أحمد سعيد، وهو مُلحد يمني: "كلما خُضْتُ في نقاشاتٍ حول القرآن يقول الناس: كيف يمكن لشخص أميٍّ أنْ يعرفَ كل هذه الاكتشافات العلمية والمعجزات قبل 1400 سنة؟ فيكون جوابي أن "ستار تريك Star Trek"، وهو سلسلة أفلامِ خيالٍ علميٍّ، تَوقّع أيضاً كيف سيبدو المستقبل، فلماذا لا تؤمنون بستار تريك بدلاً من ذلك؟"

أما "حمزة أندرياس تزورتزيس Hamza Andreas Tzortzis" الذي اعتنق الإسلام وشارك في مناقشات علنية مع عدد من الملحدين البارزين، فيصف "الإعجاز العلمي" باعتباره مصدرَ حَرَجٍ فكريٍّ، وأنَّه يجذبُ الكثيرين إلى الإسلام كما ويدفع بالآخرين بعيداً عنه،" ويقول في ذلك:

"طُبِعَتِ الملايينُ من الكتيبات والنشرات التي تزعم وجود الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وأسلَمَ بسببها عددٌ لا يحصى من الناس... كما أنّ منظرين مشهورين مثل الدكتور "ذاكر نايكZakir Naik" و"يوسف إستيسYusuf Estes" اعتمدوا على رواية الإعجاز العلمي لإثبات المنشأ الإلهي للقرآن.

ونتيجة لهذه المحاولات الحثيثة لتعميم هذه الرواية على مدى العقود القليلة الماضية، تَوَلّدتِ اليومَ حركةٌ متصاعدةٌ مضادةٌ، تحاول إزالة الغموض عمَّا يسمى التعبيرات العلمية، ويبدو أن شعبيتها في تزايدٍ ملحوظٍ. وهنالك عددٌ كبير من المرتدِّين عن الإسلام ممن أجريتُ حواراتٍ خاصةً مع الكثير منهم يستشهد بعمل هذه الحركة المضادة على أنَّه السبب وراء اتخاذهمُ القرار بالتخلي عن الدين."[23]

وعلى عكس الديانة المسيحية التي لها تاريخ حافل بالصراعات مع العِلم، لا يرى المسلمون عموماً في الاكتشافات العلمية تهديداً لمعتقدهم، فالحادثة الشهيرة التي وقعت سنة 1633 عندما أَجْبَرَتِ الكنيسةُ الكاثوليكية العالِمَ الإيطالي "جاليليو جاليلي Galileo Galilei"على التراجعِ عن اعتقاده "المهرطق" بأنَّ الأرضَ تدور حول الشمس، هي لا نظيرَ لها في العالم الإسلامي. بلْ إنَّ تلهف المسلمين للعلمِ والاكتشافِ كان على الأقل مرتبطاً بدينهم، وكانوا مهتمين بعلم الفلك على وجه الخصوص، نظراً لاستخدامهمُ التقويمَ القمريَّ، بالإضافة إلى حاجتهم إلى تحديد الجهة التي تقع بها مكة المكرمة التي يُصَلُّون إليها.

تَقَبَّلَ الفلكيون المسلمون فكرةَ كرويةِ الأرضِ بسهولةٍ، بسبب تأثُّرهم بأفكار "بطليموس" و"أرسطو"، وفي سنة 830م قام العلماء المسلمون في زمن الخليفةِ المأمون بقياس المسافة بين مدينتين فيما أصبح اليوم سوريا، وكان من المعروف حينها أنّ درجةً واحدةً على خط العرض تفصل بينهما. وعلى هذا الأساس قاموا بحساب محيط الأرض ب 24،000 ميل وكانت النتيجة دقيقة للغاية[24]. وفي وقت لاحق، ابتكر أبو الريحان البيروني، (973–1048م)، طريقةً جديدةً لحساب نصف قطر الأرض باستخدام علم المثلثات، وكان الرقم الذي استنتجه يزيدُ بعشرة أميال فقط عنِ الرقم الحقيقي.[25] كما رأى البيروني أنَّ الأرض تدور حول محورها، بالرغم من عدم امتلاكه الدليل. وناقش الفلكيون المسلمون في القرن الثالث عشر في مرصد "المراغة Maragha" فيما يعرف اليوم بإيران فكرةَ دوران الأرض حول الشّمس، ولكنَّهم تخلَّوا عنْ هذه الفكرة في النهاية، وقد كانت بعض حججهم شبيهةً بتلك التي وضعها "كوبرنيكوسCopernicus" في وقت لاحق، بالرغم من أنّها لم تسببْ مشاكلَ لاهوتيةً كما يبدو.

كان نشر "تشارلز داروين" لكتابَه "أصلُ الأنواع" سنة 1859م ردود فعلٍ متنوعةٌ من قبل المسلمين، بعضها يمكن التنبؤ به، وبعضها لا، ففي أحدِ الانتقادات لهذه النظرية استشهَدَ جمال الدين الأفغاني سنة 1881م باستمرارِ وجودِ قلفة العضو التناسلي الذكري كدليل على أنَّ أفكارَ داروين في الاصطفاءِ

الطبيعي كانت خاطئةً. فقال: "هل صُمَّتْ أذنا هذا البائس داروين عن حقيقة أنَّ العرب واليهود قد خَتنوا أولادَهم لآلافٍ مضتْ من السنين، وبالرغم من هذا لم يُولد لهم ولد مختون حتى الآن؟[26] لكنَّ حسين الجسر، وهو رجلُ دينٍ شيعيٌّ لبنانيٌّ، عاش في القرن التاسعَ عشرَ، رأى في مقابل ذلك أنَّه يمكنُ الجمع بين نظرية التطور والنصوص القرآنية، فيقول: "لا يوجد أيُّ دليلٍ في القرآن يشيرُ إلى أنَّ جميع الأنواع، الموجودة أصلاً بفضلِ الله، قد خلقت كلها دفعة واحدة أو تدريجياً."[27]

وما يثير الاهتمام هو إحدى أوائلِ النقاشات حول الداروينية في بلدٍ عربيٍّ شارَكَ فيها مسيحيون أمريكيون فيما يعرف اليومَ "بالجامعة الأمريكية" في بيروت سنة 1882م، ففي كلمة ألقاها في حفل التخرج أشار "ادوين لويس Edwin Lewis"، وهو أستاذُ كيمياءٍ معروفٌ، إلى أربعة "علماء مثاليين" كان "داروين" أحدَهم. فوصفَ "لويس" عَمَلَ "داروين" بأنَّه "مثال على تحويل المعرفة إلى علم عن طريق الفحص الطويل المتأنِّي والتفكُّر العميق،" لكن مجلس أمناء المؤسسة، التي كانت تعرف في ذلك الوقت باسم "الكلية البروتستانتية السورية" والتي أسَّسها المبشرون الأمريكيون، رأَوْا أنَّ "لويس" قد بالغَ في الوصف ممَّا اضْطَرَّهُ للاستقالة لاحقاً. وفي خِضَمِّ الضجة التي تلت ذلك، استقال عددٌ من أعضاء الهيئة التدريسية الكبارِ، وأعلن الطلاب الإضراب دعما "للويس"، فعاقبتهُمُ الكلية بتعليق دراسةِ سبعةَ عشرَ طالباً. ولمنع تكرار هذه الحادثة، أُجْبِرَ الموظفون على التوقيع على إعلانٍ لدعم "القيم المسيحية" ولم يُلْغَ الإعلانُ حتى سنة 1902م[28].

وبملاحظة المشاكل اللاهوتية التي واجهتِ المسيحيين فيما يتعلق بنظرية التطور، وَجدَ بعض المسلمين فرصةً لتعزيز قضيتهم. فكتبت مروة الشاكري":

> "إنَّ الجدلَ اللاهوتيَّ حول نظرية التطور في أوروبا ... يمكن أنْ يُستخدم لدحضِ مزاعمِ الأوروبيين بالتفوق، ومع اعتبار غير الأوروبيين أنَّ الاعتراض العلني على نظرية "داروين" دليلٌ على صعوبة تَقَبُّلِ المسيحيةِ للعلم، تَشجّعَ كثيرون على إظهار مدى سهولة تبني أفكار "داروين" ضمن التقاليد الخاصة بهم ...
>
> وحالهم حال المبشرين، فإن المستشرقين والدبلوماسيين ادَّعَوا بأنَّ الإسلام يعيق التنمية الاجتماعية والفكرية، لكن محمد عبده، مفتي مصر رأى عكس ذلك، وهو أنَّ المسيحيةَ هي التي كانتِ العقبةَ الحقيقيةَ وليس الإسلام."[29]

وبدلاً من رفض أفكار "داروين"، ذَهبَ بعض المسلمين إلى حدِّ ادِّعاء ملكيةٍ جزئيةٍ لنظريته، مستندين إلى إمكانية العثور على أجزاءَ من نظريته في الثقافة الإسلامية. تضيف مروة الشاكري:

"يرى المؤيدون والنقاد على حدٍّ سواء إلى أنَّ الفلاسفةَ المسلمين قد أشاروا منذ فترة طويلة إلى فكرة أنَّ الأنواع يمكن أنْ تتغيرَ بمرور الزمن، كما أشاروا في هذه النقاشات إلى فكرة التحول، وكانت النصوص الفلسفية والكونية الإسلامية المبكرة تُقتبس كلّما نوقشت نظرية "داروين"...

وتم قياس نظرية "داروين" على نظرياتٍ أقدمَ عن التسلسلُ الهرميُّ للكائنات، من المواد والمعادن إلى النباتات والحيوانات، وأخيراً إلى البشرِ أنفسهم. وقد وفّر افتراض بعض مؤلفات العصور الوسطى أنَّ القردة كانت أشكالاً أدنى من البشر مزيداً من الأدلة للمسلمين في القرن التاسع عشر بأن نظرية "داروين" لم تأت بجديد."

وحتى يومنا هذا يفترضُ البعض أنَّ نظريةَ التطور هي ذاتُ أصول إسلامية، فقد نُشِرَ كتابٌ سنة 2005م بعنوان "التطور والنشأة من منظور إسلامي" زَعم الكاتبُ فيه أنَّ أفكار "داروين" حول التطور والاصطفاء الطبيعي قدِ استُمِدَّتْ جزئياً من الفلاسفة والعلماء المسلمين، كابن سينا المتوفى سنة 1037م[30].

ولحسن حظِّ المسلمين، فإن القرآن كان أكثر غموضاً من الإنجيل حول عملية الخلق، فالقرآن يقول إنَّ الله جعل "مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ" (سورة الأنبياء:30) وقال: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ" (سورة الأنعام:2) و"قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا" (سورة نوح:14). مما يترك مجالاً لتفسير ذلك في إطار نظرية التطور.

غير أنَّ هنالك رفضاً متزايداً لنظرية "داروين" بين المسلمين اليومَ تحت ضغط رجال الدين المحافظين، وبتأثيرٍ من المسيحيين الأمريكيين المؤيدين لنظرية الخَلْق (الواردة في سِفْرِ التكوين والمعارِضةِ لنظرية التطور)، واليوم تتناول المدارس والجامعات ووسائل الإعلام العربيةُ هذا الموضوع بحذر وحيطة كبيرين خوفاً من إثارة الاعتراضات.

وهناك منظمة مقرُّها تركيا تروج دولياً للنسخة الإسلامية لنظرية الخَلْق وهي "مؤسسة البحث العلمي (BAV)"ويرأسها "عدنان أوكتار" الذي كتب عشراتِ الكتب تحت اسم هارون يحيى. رغم أنَّ محتواها إسلامي في الظاهر، إلا أنَّ منشوراتِ "مؤسسة الأبحاث العلمية" اعتمدتِ اعتماداً كبيراً على

المواد المسيحية التي ينشرها معهد أبحاث الخلق في كاليفورنيا[31] (Institute for Creation Research in California)، ويمكن الحصول على الكتب التي تنشرها المؤسسة مجاناً عن طريق الأنترنت[32] حيث يمكن للطلاب منْ أيِّ مكانٍ في العالم ترديدُ ما فيها من أفكار[33].

بعض المدارس العربية تُدَرِّسُ نظريةَ التطور بحذر وبعضها الآخر لا يُدَرِّسها مطلقاً. ويصف اليمني أحمد سعيد ما حدث أثناء دروس علم الأحياء في مدرسته:

> "اعتادت مَدْرَستي اعتمادَ كتب العلوم من جامعة "أكسفورد"، وقد ألغى معلمنا منها الكثيرَ من الفصول. وكلما ألغى المعلم فصلاً كان الطلاب يقولون: "الحمد لله" لأنهم لم يرغبوا في تعلم المزيد، لكنني اعتدت على قراءة هذه الفصول الملغاة وكان أحَدَها عن نظرية التطور. لم يحمل الفصل اسم "التطور" بل سُمِّيَ "الاصطفاءُ الطبيعيُّ" وهو جزء من نظرية التطور.
>
> وأذكر أني قرأت هذا الفصلَ [بنفسي]، واعتقدتُ حينها أنَّه كان سخيفاً، ووافقتُ المعلم على حذفه."

ويضيف سعيد أنَّ المعلم أخبرهم أنَّه قد حَذف الفصل بناءً على تعليمات من وزارة التعليم. ويقول: "لقد أدركت عملية غسيل الدماغ الذي يمارسونها على الأطفال،" أمَّا اليومَ فيتحاور سعيد مع أصدقائه على "فيسبوك" دعماً لنظرية التطور، ويقول في ذلك:

> "تسعة وتسعين في المائة من أصدقائي على "فيسبوك" يقولون أشياء مثل: "أتعتقد حقاً أنَّ القرودَ أصلُنا؟ فأحاول أنْ أشرح لهم أنَّ نظرية التطور لا تزعم ذلك، بل تقول إننا نشترك مع القردة بالأسلاف، ويظهر ذلك كم كنا جهلة."

لاحظ محمد رمضان نهجاً مماثلاً عندما كان طالباً في مدرسة حكومية مصرية، فيقول:

> "كانت الفصول الأخيرة من كتبنا المدرسية مكتوبة بطريقة مضحكة، وأغلب معلوماتها لا تأتي في الامتحانات، وإنْ أتتْ فغالباً ما تكون عن الطيور التي هاجرت من أماكنَ معينةٍ، وكيف أنَّها غيرت ألوانها، وهو مفهومٌ سطحيٌّ جداً لنظرية التطور. يقبلُ بعض

المعلمين بأنَّ التطورَ يمكن أنْ يحدث من خلال التكيف، لكنَّهم يقولون أنَّه ولو حدث ذلك للحيوانات فلن يحدث للبشر لأنهم متميزون."[34]

أما "راماست Ramast"، وهو مصريٌّ، كان في السابق مسيحياً، فقد دَرَس نظرية التطور في المدرسة لكنه وجد أنَّها تُدَرَّسُ بطريقة لا تخلو من اللَّبْسِ، ويقول: "درسناها على أنَّها نظريةٌ تحتمل الصواب والخطأ، ولكنْ في وقتٍ لاحقٍ بدأت أتعلم بنفسي، من قناة "ديسكفري" على سبيل المثال، ومِنْ مواقعَ على الأنترنت، كموقع "كيف تعمل الأشياء" وموقع "Digg"، وغيرِها من المواقع. وقد تعلمتُ من باب الفضول، وأردتُ أنْ أفهم كيف تطورتِ الديناصوراتُ إلى طيورٍ، والقردةُ إلى بشرٍ. أعلم أنَّ الأمرَ لم يحدث بهذه الطريقةِ أبداً، ولكنْ كان عليّ أنْ أقرأ عن نظرية التطور لكي أفهمها أكثر." ويقول أنَّ الأفكار حول نظرية التطور أصبحت في نهاية المطاف "آخر محطّة" في رحلته إلى الإلحاد. ويضيف: "عندما كبرتُ كان قراري هو هل سأؤمن "بآدمَ وحواءَ" أم بالتطور؟ أما نور يوسف فتقول في منشور نشرته على مدونة "Arabist": "لا تعجّ الجامعات المصرية بمؤيدي نظرية التطور، كما أنَّ أساتذةَ الجامعة يصورون نظرية التطور على أنها نظريةٌ باطلةٌ وخاطئةٌ، ويشوهونها قائلين: لماذا لا تزال القردة موجودة طالما أننا تطورنا عنها؟"[35]

رغم أنَّ البعض يرفض نظرية التطور رفضاً قاطعاً، كموقع "عن الإسلام" على الأنترنت الذي يعتبر أنَّ هذه النظرية "لا تتفق مع وصف القرآن لعملية خَلْق الكون، ولا مع أيٍّ مِنْ تعاليم كل الأديان السماوية[36]،" إلا أنَّ البعض الآخر يسعَون إلى الإمساك بالعصى من المنتصف، فقد وَجَدَتْ دراسةٌ أُجْرِيَتْ لمعرفة مواقف الطلاب المسلمين القادمين من تركيا والمغرب والذين يدرسون في هولندا، تجاه نظرية التطور، أنَّ قلةً قليلةً منهم يرفضون نظرية التطور لأنها برأيهم تتعارض مع القرآن الكريم، في حين أنَّ "الغالبية العظمى قبلتْ بعض جوانب هذه النظرية ورفضتْ بعضها الآخر. وتقول الدراسة:

"فالتطور الطفيف (وهي تغيرات صغيرة تحصل خلال فترة قصيرة نسبياً) ومفهومُ "البقاء للأصلح" ظهرت في الجانب المقبول من المعادلة، وقد عزا الطلابُ السببَ إلى أنَّه من المستحيل إنكارُ المنطقِ والدعم العملي لهذه المفاهيم، كما أنهم ربطوا التطور الطفيف بالتطور الإلهي، وهي فكرة أنَّ الله قد وجّه التعديلاتِ على مخلوقاته. وقد قبل عددٌ كبيرٌ من الطلاب بنظرية الانفجار الكبير، ويعتقدون أنَّ القرآنَ يحتوي على إشارات لكل من نظريتيّ "الانفجار الكبير ونظرية التطور."

وفي مقابل ذلك تقول الدراسة:

"يرى كل الطلاب تقريباً... أنَّ التطورَ الكبيرَ (أيْ تطور أنواعٍ جديدة، الخ) كان على الجانب المرفوض من نظرية التطور، فعلى خلاف التطور الطفيف، فإنَّ التطورَ الكبيرَ ارتبط بتطلعاتِ الملحدين... كما أنّ أيّاً من الطلاب لم يقبلْ فكرةَ أنَّ البشرَ تطوروا عن القردة."[37]

ووفقاً للدراسة، فإنَّ الطلاب "بالكاد قبِلوا" بفرضياتِ التطورِ الموجودة في يومنا هذا في مواضيعَ أُخرى كالطب والكيمياء والعلوم الطبية الحيوية. "كان طلابُ هذه التخصّصات على علمٍ بأنَّ كلَّ واحدٍ منهم سيخضع لامتحاناتٍ متعلقةٍ بنظرية التطور، إلا أنَّهم لم يرَوا في ذلك مشكلةً، حيث رأَوا أنَّ طرح أسئلةٍ تتعلق بأفكار "داروين" في الامتحان لا يقتضي الإيمانَ بهذه الأفكار بالضرورة."

ونظراً إلى أنَّ نظريةَ التطور لا تُدَرَّسُ بالطريقة المناسبة في المدارس، فلا يُسْتَغْرَبُ أنْ يُضلِّلَ الصحفيون العربُ العامةَ عندما يظهر هذا الموضوع في الأخبار، ففي سنة 2009م أذاعتْ قناة الجزيرة، وهي القناة الإخبارية الأكثر مشاهدة في الشرق الأوسط، خبراً مفاده أنَّ العلماءَ الأميركيين وجدوا "أدلةً جديدةً على أنَّ نظرية التطور "لداروين" كانت خاطئة" وقد كان التقرير يشير إلى اكتشاف بقايا متحجرة للإنسان القديم (Ardipithecus ramidus)الذي كان موجودا قبل 4.4 مليون سنة. رغم أنَّ هذا الاكتشاف أثار تساؤلاتٍ جديدةً حول أسلاف البشر إلا أنَّها لم تقوض نظرية التطور، لكن قناة الجزيرة أوردتْ تعليقاً للدكتور زغلول النجار، الذي وصفته بأنه عالم جيولوجيا شهير، قال فيه للقناة أنَّ هذا الاكتشاف يمثل "ضربة قوية لنظرية داروين وأظهرت أنَّ الغربيين بدأووا بالعودة إلى رشدهم بعد أنْ تعاملوا مع أصل الإنسان بطريقة مادية محضة وبعد إنكارهم للأديان[38]." والنجارُ مصريُّ الجنسية وهو عضو في الأكاديمية الإسلامية للعلوم، ولديه موقع على شبكة الأنترنت يروّج فيه "للإعجاز العلمي" في القرآن[39].

وفي سنة 2014 بثت قناة "ناشيونال جيوغرافيك" العربية، ومقرها أبو ظبي برنامجاً بعنوان :Cosmos" A Spacetime Odyssey" وهو متابعة لسلسلةٍ وثائقيةٍ علميةٍ مشهورةٍ، قدمها في الأصل "كارل ساجانCarl Sagan" في ثمانينات القرن العشرين. في الحلقة الأولى من البرنامج لاحظ الملحدُ الفلسطيني وليد الحسيني بعض التغييرات الغريبة وحذفاً "لأجزاءَ معينةٍ من البرنامج لا تتوافق مع الدين الإسلاميّ، أو قد تسبب جدلاً واسعاً في العالم العربي." فجملة We humans only evolved within

the last hour والتي تعني ""نحن البشر لم نتطور إلا في الساعة الأخيرة" تمَّتْ ترجمتها: "نحن البشر لم نوجد إلا في الساعة الأخيرة." وفي جملة أخرى تقول: "لأكثر من 100 مليون سنة كانت الديناصورات تسودُ الأرض، في حين أنَّ أسلافنا، الذين كانوا ثديّياتٍ صغيرةً، كانوا يركضون مذعورين بين أقدامها" تم حذف عبارة "أجدادنا" من النسخة العربية. وعن ذلك كتب الحسيني في مدونته على الأنترنت:

> "إن محطة تلفزيونية يُفترض بها أنْ تمثل العِلْمَ في عيون المتحدثين باللغة العربية، وبالأخص في ظل افتقارِ وسائل الإعلام العربية للمحتوى العلمي الذي يشوبُ العلمُ الزائف معظمَه، كالإعجاز العلمي في القرآن وما شابه ذلك، لم يكن من النزاهة أنْ تُخضع المحطة للرقابة ما تَيَسَّرَ من معلوماتٍ تتكلم عن تاريخنا وتطورنا كما كشف عنها العلم الحديث."[40]

الفصل الرابع: خسارتهم لِدينهم

غالباً ما يتصدّر اعتناقُ الأجانب للإسلام وسائلَ الإعلام الخليجية، لاسيَّما إذا ما كان مجال العمل لديهم يجعلهم مرشحينَ غيرَ محتملين لتغيير دينهم. فقدِ احتفتِ الصحافةُ السعوديةُ مثلاً بخبر اعتناق مغنية الراب الفرنسية "ديامسDiam's" للإسلام[1]، وتقوم الحكومة الإماراتية كل سنة بنشر قائمةٍ بأسماء المقيمين الأجانب الذين اعتنقوا الإسلام، وممّا لا شك فيه أن أنباءً كهذه تعطي المؤمنين شعوراً بأنَّ دينهم أصبح شرعياً ثَبُتت صِحَّته، إلا أنَّ هنالك أنواعاً أخرى من قصص اعتناق الإسلام تحظى باهتمامٍ أقلّ.

كتب "ميرزا غالب Mirza Ghalib"، وهو هنديٌّ الجنسيةِ، في مقالةٍ نُشرت على الإنترنيت قائلاً: "لقد ذهبتُ إلى المملكة العربية السعودية كمسلمٍ تقيٍّ بِقَصْدِ العمل، لكنَّني عدت إلى بلدي الحبيب ملحداً." وأضاف أنَّ رحلته نحو الإلحاد بدأت عندما بدأ زملاؤه العرب بمضايقته "لعدم كونه مسلماً مثالياً"، وقد فاجأه هذا الأمر لأنّه تعلّمَ في الهند أنْ يصلّيَ خمس مرات في اليوم وأن يقرأ القرآن باللغة العربية بشكل يومي، فقد كان يرى في نفسه مسلماً طيباً وذلك "وفقاً لمعايير الإسلام في الهند."

وحتى ذلك الوقت لم يكنْ غالبْ قد قرأ القرآن سوى باللغة العربية والتي أخبروه بأنها "لغة أهلِ الجنة" وأنَّ هذا سيضفي عليه مزيداً من الفضيلة وإنْ لم يكن يفهم اللغة العربية، ونتيجة لتهكُّم زملائه قرَّر أنْ يقرأ القرآنَ بالأوردو لغتِه الأمّ، "لكي أستطيعَ أنْ أفهمَ معانيه وأُصبحَ بالتالي مسلماً أفضل وأكثر تقوى." إلَّا أنَّ ما وجده في القرآن صَدَمَهُ بدلاً من ذلك، حيث قال: "بدت لي الكثير من الآيات همجية."

كما كان خائفاً من بعض الممارسات الثقافية التي وجدها في المملكة العربية السعودية، وهي ممارساتٌ تستندُ في الغالبِ إلى أسسٍ دينيةٍ، فيقول:

> "شهدتُ رجلاً ناهزَ السابعة والخمسين من العمر، ولَهُ زوجتان على قيد الحياة، وتزوج الثالثة، وهي فتاة أردنية في السابعة عشرة من العمر، (لأن "كُلفة" الفتاة في الأردن أو مهرها أقلُّ نسبياً)، وعند عودته مع عروسه الصَّغيرة، استُقبِل بترحيبٍ حار من قبل أبنائه المثقفين الذين تراوحت أعمارهم بين 40 و50 سنة، فحملوه على أكتافهم وأخذوا يصفقون ويغنَون، حتى أنهم لم يلقوا بالاً بشأن مصير أمهاتهم، وبدا عليهم الابتهاج وهم يحتفون "برجولة" والدهم أمام الجيران والأصدقاء. لم أجدْ تفسيراً لتلك اللغة التي استخدموها

لتمجيد "رجولة" والدهمُ التي كانت صريحة جدّاً بل إباحيَّةً، ولا يمكننا لوم افتقارهم للتربية بشأن سلوكٍ كهذا كونهم مثقفين."

وأضاف غالب أنَّه فورَ عودته إلى الهند، وقد أمضى عقداً من الزمن في المملكة العربية السعودية، راح يحاول إقناع والديه الطاعنين في السِّنِ بأنه قد تمَّ تضليلهما بشأن الإسلام، وهو ما استطاع تحقيقه في نهاية المطاف، فيقول في ذلك:

"كان والدِي يسألني مِراراً كطفل بريء عنْ مصيرِ عبادةِ ثمانين عاماً في ظلِّ الإسلام، وعن الوقت الثمين الذي أمضاه في الصلوات الخمس، وصلوات قيام الليل، وغيرها من المناسكِ الإسلامية. فأواسيهِ بالقول بألّا يقلقَ حول الماضي، وأنَّ الأَوْلَى بهِ السعادةُ، فلقد تحرَّر من خوفِ العقابِ والتعذيبِ المزعومِ عندَ النزْعِ الأخيرِ، وفي القبر، ويومَ القيامة، ورغم أنَّهُ اقتنعَ، إلّا أنَّه لمْ يتحمّلِ الطريقةَ التي تمَّ خداعُه بها من قبل المشايخ طوال حياته، فشكرني لإنقاذه من خوفه من رعب القبر ونار جهنم.

أحزنني موت والدي الحبيب بعد بضعة أشهر من تنويره حول الإسلام حيث كان غير قادر على استيعاب الصدمة التي لم تُضعف إيمانه فحسب، بل ساهمت في تدهور صحته. لقد شعرتُ بالذنب، إلا أنني عندما أستذكر أيامه الأخيرة أشعر أيضاً بالرضا لأنه واجه الموت بثقة ودونما خوف من العذاب ونار الجحيم التي يتم تعليمها في الإسلام. إن الوصول إلى حقيقة الإسلام هي أصعب معركة في حياة المسلم، وقد يكون من الصعب عليه قبول الصدمة التي يتعرض لها عندما يكتشف الحقيقة."[2]

إنّ الإلحاد ردٌّ على الدّين، فلولا الدّين لن يصبح المرء ملحداً، وسيصبح الله مفهوماً مجهولاً، ولن يكون هنالك سبب محدد لأيّ كان ليتساءل حول وجوده من عدمه، وبالتالي سيتحول كلٌّ من الإيمان والإلحاد إلى إنكار. لقد كان هذا مصيرَ الأديان السابقة التي تخلى عنها الناس اليوم، إذ لا يمضي أحد الآن وقتَه ليجادل في موضوع آلهة اليونان والرومان القديمة لأنها تبخرت وأصبحَتْ غير ملائمة لوقتنا الحاضر منذ وقت طويل.

قد يكون دور الدّين في تطور الإلحاد، بل وتعزيزه بشكل غير مقصود، واضحاً جداً ولا يمكن إغفاله بسهولة، لكن من المهم أنْ نبقيَ هذا الأمر في أذهاننا عند دراسة الأسباب التي تدفع العرب إلى الإلحاد

وكيفية قيامهم بذلك. إن كون الإنسان ملحداً يعني أنه لا يؤمن بالله، ولكن أن يتحول المرءُ إلى الإلحاد فذلك يتضمن رفضاً لله بوعيٍ منه، وبالتالي يمكن وصف بعض غير المؤمنين بأنّهم ملحدون في الأساس (كونَهم لم يكونوا مؤمنين وقرّروا الإلحاد)، ولأن تأثير الدّين على حياتهم كان محدوداً أو غير موجودٍ أصلاً، كما أنَّ الله بالنسبة لهم لا يكاد يختلف عن "زيوس" أو "أبولو."[3]

غير أنَّ الإلحاد في البلدان العربية غالباً ما يكون خياراً يتخذه المرء عن عَمْد، وهو خَيارٌ عليهم دفعُ ثمن اتخاذه. إنّ الإيمان هو الأمر السائد، فيكون وفي كثير من الحالات موجوداً أصلاً، ذلك أنّ المجتمع لا يتوقع من الناس أنْ يؤمنوا فحسب، بل ويأخذ على عاتقه حمايتهم من الأفكار التي يمكن أن تقودهم إلى الشك، ورغم هذه الضغوطات، يغرد بعضهم خارج السرب، وبأعداد متزايدة كما يبدو، فكيف يحدث ذلك؟

يقول سعيد كيّاني، وهو ملحد إماراتي:

> "لا أتفق مع الفرضية التي تقول بإن فقدان الإيمان بالله خاصةً، أو بالآلهة عموماً مردّه سبب واحد، فقد وجدت من تجربتي الخاصة وتجارب الآخرين أن الأمر ناتج عن عملية معقدة تشمل عدة عومل في داخلك وأخرى مرتبطةٍ بالبيئة المحيطة بك[4]... إنها رحلة داخلية (أي داخل النفس) عن كيفية معالجة الأفكار والأحداث وعن مشاعر الإنسان تجاه الاستنتاجات التي يتوصل إليها، فالأمر أشبه بوجود كومتين من القش تُوزنان على مقياس ما، يكون فيه نوعيةُ وبنيةُ ومادةُ المقياس هي ما تحدّد تديّن الإنسان."[5]

تشير الأبحاث التي أُجريت في الولايات المتحدة إلى أنَّ البيئة الدينية "تلعب دوراً أساسياً في تشكيل هوية الملحد،" فمِن بين أربعين أمريكياً أُجريت معهم مقابلة للدراسة، تبين أن خمسة وثلاثين تمت تنشئتهم في بيئة تراوحت بين "متدينة إلى حد ما" وأُخرى "متشددة". كما أشارت دراسة أجراها "جيس سميث Jesse" Smith من جامعة كولورادو أنه: "حتى أولئك القلة الذين نشأوا في أُسرٍ ليست متدينة جداً، أو ليست متدينة أبداً، قد واجهوا وتأثروا بمستويات مرتفعة من الورع والإيمان الذَينِ كانا حاضرين في البيئة العامة للثقافة الأمريكية."[6]

وتأتي نتائج الدراسة التي أجراها مركز "بيو" للأبحاث سنة 2010 كشاهد آخر على أن الدّين يمكن أن يفضي إلى الإلحاد، فقد وجدت الدراسة أنه لدى إجراء اختبار في المعرفة الدينية تَبيّن أن أداء الملحدين واللاأدريين الأمريكيين كان أفضل من أداء البروتستانت والكاثوليك، وقد تم تفسير هذه النتيجة جزئياً

بسبب الفروق في مستويات التعليم العامة لدى الذين خضعوا للاختبار[7]. وبحسب ما أشار إليه أحد القائمين على الدراسة، فقد نشأ ثلاثة أرباع الملحدين واللاأدريين كمسيحيين، وتشير معرفتهم الدينية أنهم محّصوا دينهم بعمق قبل قرارهم بالتخلي عنه. وقد دفع هذا الأمر "ديف سيلفرمانDave Silverman" من منظمة الملحدين الأمريكيين أنْ يعلق قائلاً:

> "لطالما سمعت أنّ الملحدين يعرفون من الدّين أكثر من المتدينين أنفسهم، وذلك أنّ الإلحاد هو نتيجةٌ لتلك المعرفة، لا للافتقار إليها. لقد أُعطيتُ الإنجيل لابنتي، فبتلك الطريقة يُصنَع الملحدون[8]."

وبناءً على المقابلات التي أجراها مع ملحدين أمريكيين حول رحلتهم إلى الإلحاد، اقترح "سميث" عمليةً من أربع مراحل هي:

1. نقطة البداية: الوجود المطلق للإيمان بإله واحد.
2. التشكيك بالإيمان بإله واحد.
3. رفض الإيمان بوجود إله واحد.
4. "الظهور" (أو الإعلان) كملحد.

وقد أكد هذا النمطَ عددٌ كبيرٌ من غير المؤمنين العرب ممن حاورتهم بغرض تأليف هذا الكتاب، رغم وجود بعض الفروق بينهم، فقد سردوا قصصاً مماثلة عن التخلّي التدريجي عن الدّين، واستغرق ردَّتهم تلك سنوات في بعض الأحيان، أي أنّ التحول إلى الإلحاد لم يكن لحظةَ تحولٍ مفاجئة، وقد أشار الجميع تقريباً إلى وجود جانب مهمّ في هذا الأمر، هو أنَّ مواجهتهم للدين كانتِ الحافزَ الأول للشك لديهم، وهو ذلك الشعور بأنّ هنالك أمراً ما في هذا الدّين لم يكن صحيحاً تماماً وفق ما تعلموه.

غالباً ما يبدأ الأمر لديهم بسؤال بسيط حول إحدى مسائل التعليم الديني التي صدمتهم بكونها غير منطقية أو متناقضةً في ذاتها، فراحوا يبحثون عن إجابةٍ لهذه السؤال، متأملين بصدق أن يجدوا إجابة له، وبدلاً من الحصول على إجابة، ولَّدتْ عملية الاستقصاء وراء ذلك السؤال أسئلةً وشكوكاً جديدة.

رغم أن الأسئلة المتعلقة بالعقيدة كانت نقطة البداية المعتادة، إلا أنّ بعضاً منهم أشار إلى أنهم تأثروا بالطريقة التي يمَارس بها الدّين، فاستشهد بعضهم بالطريقة التي تُعامل بها المرأة، واعتبر ناشطٌ مصري أن الدّين يمثّل عائقاً في وجه الثورة، إلا أنّ هذه لم تكن نقطة البداية المعتادة عموماً. لقد لعبت مناظرات

العِلم في مواجهة الدّين – والتي أصبحت شائعة جداً في الغرب – دوراً صغيراً، بل لا يُذكر حتى، في المراحل الأولية للتشكيك بالدين عند العرب الذين أَجريتُ مقابلاتٍ معهم، إلا أن الأمر يختلف مع مَنْ لديهم اهتمام محدد بالعلم. وقد تحول بعضهم لاحقاً إلى كتب "ريتشارد داوكينز Richard Dawkins" و"كريستوفر هيتشنز Christopher Hitchens" وغيرِهما من الملحدين البارزين، إلّا أنّ التأثير في تلك المرحلة كان بالأساس لتعزيز الشكوك الموجودة أصلاً، ولتوفير بيئةٍ أكثر تماسكاً لإلحادهم المتزايد. يقول جمال، وهو ملحد مصري: "لقد رأيت عدداً من الأشخاص، من طلاب علم الأحياء والطب، ممّن بدوا كقرّاءً متمرّسين ومطّلعين على أحدث الكتب التي تشكك بوجود الله على أساس علمي، إلا أنّ معظم من عرفتُهم ممن تحولوا إلى الإلحاد هنا في مصر قد فعلوا ذلك لأسباب فكرية أو منطقية أو اجتماعية، أو لأسباب فلسفية بنسبة أكبر."[9]

وتتحدث دراسة "سميث" عن أمريكيين شككوا في "الإيمان بوجود إله واحد،" ومن ثم نبذوا هذا الإيمان وتحولوا إلى الإلحاد. إلا أنّ هذا الأمر ليس دقيقاً جداً في حالة الملحدين العرب ممّن تكلمتُ معهم، ذلك أن أسئلتهم لم تكن في بادئ الأمر حول إمكانية وجود الله بقدر ما كانت تتعلق بوجود الله على النحو الذي ساقته الأديان السماوية. ورغم أن بعضهم يرفض الأديان السماوية، إلا أنهم حافظوا على إيمان مُبهم بنوع من الألوهية، أو عبّروا عن توقِهم إلى "الروحانية."

إنَّ أكثر ما استشهد به الملحدون العرب خلال المقابلات التي أجريتها معهم على أنه الخطوة الأولى على طريق الإلحاد هو الغياب الواضح للعدالة الإلهية، فالصورة التي تشكلت لديهم كانت صورةَ إله سريع الغضب، ولاعقلاني أحياناً، وأنه يسلك تقريباً مسلك ديكتاتور عربي، أو ربِّ أسرة محافظ، فيتخذ قرارات استبدادية متلهفاً لمعاقبة الناس لأدنى سبب، كما أنّ الوعيد الرهيب الذي طالما تكرر في القرآن حول ما سيَحِلُّ بغير المؤمنين قد أضفت انطباعاً قوياً عند هؤلاء الأشخاص في مرحلة الطفولة وبشكل واضح.

يقول محمد رمضان، وهو مصري الجنسية: "لقد كانت فكرة الجحيم الأبدي مزعجة جداً بالنسبة لي. كنتُ في التاسعة من عمري حبن سألت والديّ لمَ سيُنزل الله علينا عقوبة أزليّة في حين أننا نعيش بمعدل وسطي قدره سبعون سنة فقط."

أمّا أحمد سعيد، وهو يمني الجنسية، فقد سأل معلميه في المدرسة عن سبب معاقبة الله للناس لمجرد عدم الإيمان به، إلا أن الإجابات لم تكن مقنِعةً أبداً بالنسبة له حيث يقول: "كانوا يجيبونني قائلين بأن هذا ما يقوله الله وحسب، وبالتالي لا يُفترض بنا أن نسأل عن السبب، وقد اعتدتُ دائماً أن أجادل بأنني لو

ولدتُ في بلد علماني، ولو أنني لم أولد في اليمن أو في بلد شرق أوسطي لما كنتُ مسلماً. فلو أنني ولدتُ في الهند مثلاً، لكانت هنالك فرصة كبيرة بأن أعبدَ بقرة، وكوني قد نشأت كمسلم هو أمر لم أختره، فالمسألة هنا هي مسألة تموضع ديموغرافي."

هناك سعودي يُعرف على موقع "تويتر" باسم "ملحد عربي" كان يؤرقه سبب معاقبة الله للناس غير المسلمين ممّن يبدون لطيفين ومحتشمين، وعند وصوله إلى الولايات المتحدة للدراسة في كلية يسوعية، بدأ يدرك "كيف أن جميع الأديان متشابهة" في تعاليمها الأساسية. حيث عقّب قائلاً: "نتعلم في الإسلام بأن غير المسلمين سيذهبون إلى الجحيم جميعاً. وكان لدي جاران يهوديان كانا ألطف زوجين قابلتهما، فجعلني هذا الأمر أتساءل لماذا عساهما يذهبان إلى الجحيم؟ فبدأ الإسلام ينهار أمام ناظريّ فجأة."

أما "راماستRamast" وهو مصري نشأ في كنيسة قبطية ويرفض أن يوصف بالعربي فيقول: "يسمي الناس مصر بالبلد العربي لأسباب دينية لا تنطبق عليّ،" وقد واجهَ المشكلة ذاتها، ويقول:

> "لقد بدأ الأمر بسؤال بسيط جداً: إذا كان الأخيار سيدخلون الجنة والأشرار سيدخلون النار، فما الذي يجعل الإنسان من الأخيار وما الذي يجعله من الأشرار؟ أهي البيئة؟ ولكن الله هو من خلق تلك البيئة. هل هي طريقة تربيتنا؟ ولكن الله هو من اختار والديّ الإنسان والطريقة التي سينشأ عليها. ومهما كان السبب الذي ستأتي على ذكره، ستقول في النهاية: "ولكن الله هو من خلق ذلك،" وبالتالي ووفق ما يمليه علينا المنطق، لا يحملُ المرء وِزر كونه طيباً أو سيئاً. لم أستطع أن أجد إجابة على هذا السؤال، إلا أنّ هذا الأمر لم يجعلني أتغير في الحال، بل جعلني أشك فقط، وأُعْمِلَ عقلي قليلاً. كان ذلك حين كنت في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمري، وقد كنت متديناً جداً وأفكر كثيراً في هذه الأمور."

ربما تكون أسئلة كهذه قديمة قدم التوحيد ذاته، حيث توضح قصة عمرها ألف سنة هذا اللغز. تدور القصة حول نقاش جرى بين أبو علي محمد الجباعي، وهو عالم ديني من المعتزلة توفي نحو سنة 915م، وبين تلميذه أبو الحسن الأشعري"

> "عرض الأشعري على الجباعي مسألة أخوةٍ ثلاثة، أحدهم مؤمن ومخلصٌ وفاضل وتقي، والثاني كافر وفاسق وفاسد، أما الأخ الثالث فما يزال طفلاً صغيراً. توفي الإخوة الثلاثة

جميعاً، وكان الأشعري يرغب أن يعرف ما سيحِلُّ بهم بعد الموت، فأجابه الجباعي قائلاً: "ينال الأخ التقيّ مكانة عالية في الجنة، أما الكافر فَيُلقى في قَعر جهنم، بينما ينال الطفل الصغير منزلة الأعراف (ممن نجَوا من الجحيم ولم ينالوا الجنة).

فقال الأشعري: لنفترض الآن بأن الطفل كان يرغب بأن يرقى إلى المنزلة التي نالها أخوه التقيّ، هل سيُسمح له بذلك؟

فأجاب الجباعي: لا، بل سيقول الله له: (نال أخوك هذه المنزلة بوافرِ عملٍ في طاعة الله، أما أنت فلم تقم بأعمال كهذه لتنال هذه المنزلة).

فقال الأشعري: لنفترض إذاً أنّ الطفل قال: لكن ذلك ليس ذنبي، فأنت لم تُطل في عمري، كما أنك لم تتترك لي سبيلا لأثبتَ طاعتي.

فَردّ الجباعي: في تلك الحالة سيقول الله: كنتُ أعلم بأنني لو أطلت في عمرك، لكنت عصيتني، وجنيتَ على نفسك بعذاب الجحيم الشديد، فما قمت به هو في صالحك.

قال الأشعري عندها: حسناً، افترضْ بأن الأخ الكافر قال: يا إله الكون، طالما أنك تعلم ما كان ينتظر أخي الصغير، فلابد وأنك تعلم ما كان ينتظرني، فلم قضيتَ في صالحه وليس في صالحي أنا؟ فبُهِتَ الجباعي ولم يجد ما يردُّ به على هذا السؤال."[10]

انتاب المصرية ريم عبد الرازق الفضول لتعرف مصير الحيوانات في نظام الجزاء والعقاب، فتقول: "نتعلم في الإسلام بأن البشر يخضعون لنوع من الاختبار لنعرف فيما إذا كانوا سيذهبون إلى الجحيم أو الجنة، وهنالك الكثير من المعاناة في هذا العالم، وكلمّا تحدثتُ عن معاناة الإنسان تُعزى هذه المعاناة إلى ذلك الاختبار. إلا أنني عندما أتحدث عن الحيوانات لا أفهم كيف أن الله سيخلق هذا الكمّ الهائل من المعاناة دونما سبب." وعندما كانت طفلة تساءلت ريم عن سبب قيام الحيوانات بافتراس حيوانات أخرى، فقيل لها بأن الحيوانات التي تم افتراسها ستنتقم في الآخرة ولكنها ستتحول بعد ذلك إلى تراب. أشارت ريم قائلة: "لم يكن الأمر منطقياً بالنسبة لي."

أما الكويتي عبد الله فيقول:

"الأمر الأول الذي بدأت بالتساؤل حوله هو ماهية الله تحديداً، وذلك عندما كنت في الثانية عشرة من عمري تقريباً، ما هو كُنْهُ الله؟ إلا أن الأمور لم تتضح لدي، لأن الإجابة التي كنت أحصل عليها دائماً كانت: ستفهم ذلك حين تفارق الحياة. وأشير في حديثي هذا إلى والدتي التي كان من المفترض أن تكون خبيرة بشؤون الإيمان بحد ذاته، فبدا هذا الكلام بلا معنى، وبدأ الأمر يتطور من تلك النقطة نوعاً ما وببطء حتى أصبحتُ في السادسة عشرة من العمر حين توفي أحد أصدقائي في حادث سير، عندها بدأتُ أتساءل أكثر وأكثر، وبدأ الأمر يسيطر على حياتي نوعاً ما، وكثيراً ما كنت أردد: أريد أن أعرف، أريد أن أعرف."

وعندما يسأل الناس أسئلة كهذه، غالباً ما تدفعهم الردود التي يحصلون عليها من الآخرين أكثر باتجاه الإلحاد، ويقول أحمد سعيد في هذا الإطار: "لدى الناس وجهة نظر تقول دائماً: الله يعلم أما نحن فلا."

في مصر، وجدت ريم عبد الرازق أن المسألة لا تتعلق بالقول: "لا تسأل أسئلة كهذه" فحسب، بل أضافت بأنّ في ردود الناس من حولها نوع من العدائية، حيث تقول: "زاد هذا من فضولي، وذلك لأنني أصبحت في موقف دفاعي، وبدا الأمر كما لو كنت أهاجمهم، وهو ما لم أفعله. كنت أؤمن بقوة بأنني على حق، وهذا ما كان يثير حفيظتهم، فهُم لم يرغبوا بالتفكير في هذه الأمور." إلا أنّ الدفاع ليس الرد الوحيد، حيث تناولت مقالة في صحيفة الوطن السعودية الحديث عن معلمة سعودية في العشرينيات من عمرها، حاولتْ أن تناقش شكوكها مع أحد العلماء، إلّا أنّه ردّ عليها قائلاً بأنها مريضة عقليّاً وبحاجة إلى علاج.[11]

كما ومرّت نبيلة في البحرين بتجربة غير عادية كونها تربّت على يدي والديها اللذَان كانا "ملحدين أساساً،" فوالدها كان منتسبا لمجموعة سريّة ماركسية لينينيّة، بينما كانت أمها ناشطة في الدفاع عن حقوق المرأة، إلا أنهم ولأسباب تتعلق بسلامتهم أخفَوا هذا الأمر عن أطفالهم. وتقول نبيلة: "لقد كانوا مصرّين على إبقاء كلِّ شيء طيّ الكتمان،" ولذلك كانت نبيلة تفترض أنها كانت مسلمة في السنوات الأولى من حياتها، حالُها حال غيرها من الأطفال في مدرستها، ولكن رغم ذلك أثارتْ أمور متعلقة بحياتها مع أسرتها حيرتها، فتقول:

"اعتدتُ أن أطرح الأسئلة التالية على والديّ طوال الوقت: لماذا لا تؤدون الصلاة؟ لماذا لا تصومون؟ وكان جواب أمي: نحن نصلي داخل غرفتنا،" وعندما كنتُ أسألها لماذا لا

تصومين إذاً؟ كانت تقول: "أعاني من قرحة ووالدك لا يستطيع أن يقلع عن التدخين،" لقد صدّقت هذه الأعذار لفترة على الرغم من كونها سخيفة جداً.

لقد سمعنا بالطبع قصصاً هنا وهناك عن أصدقاء والدي؛ فقد نشأنا مع طفلين كانا بمثابة أخوين لنا، وكانا قد فقدا والديهما في السجن سنة 1986، وكنا نتساءل دائماً لماذا لم يكن لديهما أب، فأخبرونا بأنه استشهد وهو يقاتل في فلسطين، أعتقد أن والدي أخبرني عندما كنت في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمري بأنه توفي في السجن في البحرين، إلا أنه لم يعطني تفاصيل حينها عن سبب وفاته أو كيف توفي، ولم تكن لدي فكرة عن وجود أحزاب فعلية تعمل بشكل سري."

أخذت جدّة نبيلة على عاتقها في هذه الأثناء مهمة تحويلها إلى مسلمة صالحة، حيث شجعتها على حفظ القرآن غيباً، فتقول:

"طلبت مني جدتي أن أحفظه عن ظهر قلب، وقد حاولتُ ذلك، إلا أنني لم أستطع، فسألتني: كيف إذن تحفظين واجبك المدرسي؟ فأجبت: "لأنني أفهمه، ولكنني لا أفهم هذا (تعني القرآن).

عندئذٍ راحت جدتي تحاول أن تشرح لي القرآن، وعندها بدأت تراودني هذه الأسئلة، فأخبرتني بأن الله خلق كل شيء ويعلم الغيب وكل شيء، وأموراً بهذا المعنى.

فقلت لها: على رِسْلكِ. تقولين بأن الله يعلم كل شيء، إذاً فهو يعلم بأنني سأولد ويعلم كل فعل سأقوم به وكل ما سأقوله، وبالتالي إذا كان يعلم كل شيء فهو يعلم بأني سأرتكب هذا الخطأ، فلِمَ يعاقبني عليه؟

فردّت قائلة: "لا، الأمر ليس على هذا النحو؛ فقد هداكِ النّجدين وعليك أن تختاري.

فقلت: إذاً فهو لا يعلم ماذا سأختار وبالتالي هو لا يعلم كل شيء.

على هذا النحو بدأت تراودني الشكوك. كيف يمكنك القول بأنه غفور ورحيم وما إلى هنالك في حين أنه شديد العقاب؟ لم يكن الأمر منطقياً بالنسبة لي."

أما "سارة واي"، وهي سورية من أسرة علوية تعيش في الكويت، فقد واجهتْ مشكلات تتعلق بالقرآن، لاسيما ما كانت تعتبره افتقار القرآن للوضوح عندما بدأت بقراءته بنفسها، حيث تقول: "المشكلات كانت بالنسبة لي أكثر من كونها تتعلق بالله، فهناك مسائل في القرآن جعلتني أفكر: لماذا لا يكون القرآن واضحاً فحسب؟ إذْ إن هنالك تناقضات فيه، وكلُّ الفكرة المتعلقة بالله هي أنه يُفترض به أن يكون شخصاً ما أو شيء ما يتصف بالألوهية، ولكن الأخطاء لا تليق بما هو إلهي، وحتى أبسط الأخطاء تجعله باطلاً."

وتواصل قائلة: "قبل أن أقرأ القرآن، لم يكن لدي فكرة بوجود ما يُسمى بمسلم سابق، لقد اعتقدت بأنني كنت مسلمة سيئة فحسب، ومن ثم فكرت: مهلاً! لا يجب أن يكون الأمر على هذا النحو." غير أنّ سارة تفضّل اليوم أن تتم مناداتها بملحدة وليس مسلمة سابقة حيث تقول: "كلما فكّرتُ بالموضوع أكثر، كلما ازداد التساؤل عندي لماذا يجب أن أُدعى مسلمة سابقة وهو أمر لم أختره بالأصل؟ ورغم أني أظهرتُ اهتمامي بالدين في مراحل كثيرة من حياتي، إلا أنني عندما أنظر إلى الماضي أشعر بأني لم أكن أظهر اهتمامي بالدين لأنه كان لدي إيمان، بل لأن الأمر يتعلق بضغط الأقران (وهي رغبة قوية في تقليد تصرفات من هم في سنّك)[12].

قال بعضُ الأشخاص العرب الذين أجريتُ مقابلات معهم بغرض تأليف هذا الكتاب أنّ تخليهم عن الدين كان في الغالب رحلة خاصة ومدروسة وأحياناً تخللها الوحدة، وقد كان الأمر إلى حد كبير عملية فكرية تكونت بفعل تجاربهم الشخصية المتعلقة بالدين، ولو بدرجات متفاوتة. وخلافاً للفكرة السائدة في الشرق الأوسط، لم يَعتبر أحد أنّ الإلحاد عذر للانغماس في الملذات. ومن الأفكار السائدة الأخرى – والتي عادةً ما تأخذ طابع نظرية المؤامرة – هي أنّ الملحدين العرب استسلموا "لسياسة إضفاء طابع الثقافة الغربية" أو "التأثيرات الأجنبية" عليهم. يبدو أنّ هناك درجة من الحقيقة في هذا الأمر إذا ما تم استبعاد عنصر المؤامرة، رغم أنّ هذا لا ينطبق بالتأكيد على جميع الحالات، وفي تلك التي ينطبق عليها هذا الأمر فإنه يُرّدُّ عادةً إلى انفتاح في عقول العرب نتيجة احتكاكهم بغير المسلمين، أو لوجود أساليب جديدة للتفكير، أكثر من كونها نتيجة للمحاولات المباشرة من قبل الأجانب لإغرائهم بالابتعاد عن الإسلام.

فعلى سبيل المثال، يرى أحمد سعيد، وهو يمني الجنسية، أنّ التغير في معتقداته قد حصل عندما بدأ بالقراءة "خارج منظور الإسلام،" وعندما راحَ يخوض في نقاشات على الإنترنيت "مع أشخاص ملحدين

وربوبيين[3] ولاأدريين." ويشير سعيد إلى أنّ النقاشات كانت تجري باللغة الإنكليزية "لأن معظم الأشخاص الذين يتحدثون العربية مسلمون، وفي تلك المرحلة لم أكن أرغب بالجدال مع مسلمين، لأن الأمر سيكون بلا جدوى. أردتُ أنْ أرى الموضوع من وجهة نظر ومنظور مختلفين." انضمّ سعيد إلى منتدى مناقشة على الإنترنيت يحمل اسم "الملحد مقابل المؤمن" الذي كان يضّم 30،000 عضو. يقول سعيد: "أمضيتُ ساعات طوال في هذه المجموعة، وكنت مؤمناً بنسبة 100% عند انضمامي إليها، كنت أؤمن بالله، إلا أنني وجدت أنّي لا أمتلك أي دليل لأثبت أنّ الله موجود. ومن ثم أدركت أن جميع الأديان ينظمها أناس وأن فكرة الله هي من صنع الإنسان."

أما محمد رمضان فيقول إنّ عقله تفتّح بعد أنِ انتقل من مدرسة حكومية إلى جامعة خاصة في مصر حيث يقول: "بدأتُ أرى أشخاصاً مختلفين تماماً، أشخاصاً أكثر ثراءً ممن سافروا إلى الكثير من الأماكن مثل كندا. كانوا مصريين من أصول مختلطة وذوي أفكار مختلفة كلياً." وقد أتى التأثير الأكبر على آرائه في ذلك الوقت من قبل صديق شاركه سكنه الجامعي، حيث يقول: "كان هذا الصديق ملحداً لكني لم أكن أعلم بذلك حينها، تجادلنا كثيراً وكنت في الطرف الآخر للحوار، إلا أنني أدركت في الوقت ذاته أني كنت أتحدث مع شخص عزز بعضاً من الشكوك في داخلي." ويعقب محمد قائلاً:

> "كان النقاش الأول يدور حول أمور محددة، مقبولة أخلاقياً من قبل الدائرة الاجتماعية المحيطة بك فقط، ومن ثم أتيتُ بفكرة سخيفة من قبيل: هل كنتَ ستسمح لأختك أن ترتدي ملابس سباحة في مكان ما في أوروبا؟ فأجابني صديقي: نعم، بالطبع.
>
> وعندما قال ذلك سألته: ماذا تعني؟ كيف تسمح لأختك أن تعرض نفسها بهذا الشكل؟ لقد كان جدالنا طويلاً حول الأخلاق والسلوك الأخلاقي، وكان هذا بشكل أساسي من المحفزات الأولى بالنسبة لي."

ومما يثير الانتباه أنّ أحد أقارب محمد أصبحَ ملحداً بطريقة مختلفة تماماً رغم أنه كان سلفياً متشدداً، حيث يقول محمد: "كانت تلك القصة ذات تأثير قوي بالنسبة لي لأنه لم يسافر ولم يقابل ملحداً قط، كان دائماً في القرية حتى أنهى دراساته، لقد اكتشف هذا الأمر بنفسه."

[3]–الربوبيّة: هي الإيمان بأن للكون خالقاً لكن ليس لهذا الخالق تأثير على حياة البشر أو لا يتدخل فيها (المترجِم)

ولدى محمد أيضاً نظرية حول ما حدث لأحد أقربائه، فبعض المسلمين يحافظون على إيمانهم بتفسير القرآن بمرونة، على عكس السلفيين الذين لا يا يمكنهم ذلك، حيث يقول محمد: "لا يستطيع السلفيون أنْ يستخدموا حجة عدم قراءة القرآن بالمعنى الحرفي، فهم يعتبرون القرآن بأنه كلمة الله المباشرة ويجب أن نأخذه بشكل حرفي وأن نتبعه كلمة بكلمة." إن هذه الطريقة القائمة على مبدأ الكلّ أو لا شيء تعني أنهم إذا وجدوا في الآيات القرآنية شيئاً يصعب قبوله فإن البنية الأيديولوجية بكاملها ستكون عرضة للانهيار. يقول محمد إنّ قريبه يبدو أكثر سعادةً الآن إلا أن "وجوده في مصر ومن حوله أسرته، وما إلى هنالك تمنعه من فعل كل ما يرغب به، فمن بين الأمور التي أقدمَ عليها هو حلقهُ للحيته، وهو الأمر الذي شكّل صدمة كبيرة لأسرته، كما أنه توقف عن أداء الصلاة وأصبح الأمر واضحاً أنّه لا يصلي، لقد أخبرني في آخر حديث لنا: "تذكّر أن تحضر معك القليل من لحم الخنزير."

ينحدر هاشم الشامي من أسرة سنية مسلمة في سوريا، ولكنها ليست أسرة متدينةَ على وجه خاص، حيث يقول بأنّ الدّين بالنسبة لهم "مبدأ ثقافي وتقليدي،" فوالده الذي ليس لديه هواجس حول شرب الكحول يحضرُ صلوات الجمعة ولكن كحدث اجتماعي في المقام الأول.

إلا أنّ هاشم أُرسِل للدراسة في إحدى المدارس الابتدائية الكثيرة في دمشق والتي تنظّمها حركة دينية تُدعى "القبيسيات" وهي حركة تديرها النساء وتدعمُ نظام الأسد. ويوضح هاشم قائلاً: "إن نسختهم عن الإسلام مشابهة كثيراً للاتجاه العام السائد، وهي نسخة غير معقدة، مقبولة من قبل الحكومة بشكل عام."

وكون الحركة ليست مثيرة للجدل، فإنها لا تذكر أنّ القرآن قد أُنزل على النبي محمد تدريجياً، أي عبر فترة طويلة من الزمن، وليس ككتاب كامل، وترى بأنّ هناك نسخاً متعددة من القرآن لفترة ما من الزمن، كما ولا تتضمن الحديث عن فروق ضمن الإسلام بين السنة والشيعة والعلوية وغيرها. لم يدرك هاشم ما اعتبره حقائق غير ملائمة حول الدّين وتنوعه إلى أن دخل المدرسة الثانوية.

لقد كان إظهار الإسلام بهذه الطريقة ككيان صلب (أو كوحدة متراصة) سياسةً تعمّد نظام الأسد اتباعها، وذلك لأسباب سياسية (سيتم مناقشتها في الفصل السادس). الآن، وبعد التفكير بهذا الموضوع، يشعر هاشم أنه تم الكذب عليه وعلى زملائه في المدرسة، فيقول: "لقد عاملونا بفوقية بصفتنا مسلمين سنّة، ولم يخبرونا الحقيقة وذلك نتيجة لافتراض العلماء القائل بأنّ هناك أموراً يصعب الخوض فيها كالخلافات بين صحابة النبي وعليٍّ زوج ابنته، والتي أخرجتْ الشيعة من السنة، وكيف تم نقل القرآن، كما أنهم علمونا نسخة واحدة من الإسلام ولم يخبرونا عن الدروز والشيعة والإسماعيليين وغيرهم. لم تشأ الحكومة ريد

حصول هكذا نقاشات، كما لم تكن هنالك حواراتٌ على صعيد الأسرة أو المجتمع. أحسستُ بوجود خطبٍ جوهري بشكل ما لأنهم لم يُطلعونا على تلك الأمور منذ البداية، وأنَّ هنالك الكثير من نقاط الضعف في الدّين يرغبون بإخفائها عنا قدر المستطاع لكي نعتنق الدّين كما يُعرض علينا، وحين يأتي الوقت الذي تكتشف فيه أن الكثير من المسائل يجب مناقشتها، تكون العقيدة قد ترسخت عميقاً فينا."

إلا أنّ هاشم عندما كَبُرَ مرّ عبر مراحل جعلته أقرب للدين، لكنه ابتعد عنه في النهاية بفعل أناس كان لهم أثرٌ في ذلك، وعندما أصبح في سنّ السادسة عشرة، وأثناء العطل الصيفية، انخرط ولفترة قصيرة فيما كان يُعرف بشكل رسميّ بحلقات حافظ الأسد الدينية (معاهد الأسد لتحفيظ القرآن)، فيقول في ذلك:

"كانوا يعلمونك كيف تقرأ القرآن بشكل صحيح وكيف تحفظه غيباً، كما كانوا يعلمونك الحديث وكيف تكون مسلماً صالحاً بالمعنى العامّ للكلمة، كما كان هناك نشاطات اجتماعية ورياضة ونزهات أيضاً. بدأ بعض أصدقائي يذهب إلى هناك وسألوني فيما إذا كنت أرغب بالذهاب معهم، ووافق والداي على ذلك في بادئ الامر."

وافقتْ الحكومة السورية على البرنامج حيث تم تعيين الدعاة الدينيين من قبل وزارة الأوقاف، إلا أن غالبية القائمين على التعليم كانوا شبّاناً صغار السن في بداية العشرينيات. يضيف هاشم:

"بدأوا يحاولون حثّي على الذهاب إلى هنالك بانتظام أكثر، وسرعان ما التزمتُ بذلك لمرتين في اليوم، ثم لثلاث مرات، بعد ذلك بدأتُ بالذهاب في عطلة نهاية الأسبوع، وفي النهاية كنت أذهب لحضور صلاة الفجر حوالي الساعة الخامسة صباحاً، في تلك المرحلة، بدأ القلق ينتاب والدي، فقال لي أنّي إذا أردتُ الصلاة فبإمكاني القيام بذلك في البيت، كما كان يسألني عن الأشخاص الذين كنت أقابلهم ونحو ذلك، بدأت أدرك أنّ عمل هذه الحلقات كان يهدف فقط إلى تجنيدنا، حيث لم يكن لديهم أي اهتمام حقيقي برعاية شؤوننا أو تعليمنا، كانت غايتهم تحقيق هدفهم بجعل عدد كافٍ من الشباب صغار السن يرتادون المسجد، وعند تحقيق ذلك الهدف كانوا ينتقلون إلى المجموعة التالية."

لقد وجد هاشم أنّ الطريقة التي تقوم على مبدأ الاتجاه من الأعلى إلى الأدنى في حلقات حافظ الأسد الدينية كانتِ تعكس النهج الذي اتبعه حزب البعث، حيث كان جُلُّ اهتمام الطريقتين ينصَبُّ على عدد

الأشخاص الذين يمكن تجنيدهم، ويقول هاشم بأنّ العلاقة كانت من طرف واحد إلى حد كبير، أي أنه لم يكن هناك اهتمام حقيقي بمعرفة وجهة نظر الأشخاص الذين كان موقعهم في الأسفل، يضيف هاشم:

"بدأتُ أرى التفاعل بين الأشخاص الأكبر سناً، وكيف كانوا ينظرون إلى من هم أدنى منهم نظرة استعلاء، وكيف أنّ هذا الأمر برمّته لم يكن متناسقاً، فلم يبدُ صحيحاً بالنسبة إلي، وبقيتُ على هذا المنوال شهراً ونصف، وكنتُ أقوم بذلك بشكل يومي، كرّستُ الكثير من وقتي للصلاة وحفظ القرآن، حتى أنهم طلبوا مني تعليم الأطفال ذوي العشر سنوات، إلا أنني لم أشعر برغبة في القيام بذلك، لذلك توقفت عن الذهاب إلى هناك. بدأوا بعدها بإرسال الأصدقاء ليسألوني عن سبب توقفي عن الحضور، إلا أنّي واصلتُ الذهاب لأداء صلاة الجمعة، وكنتُ أقابل الأشخاص أنفسَهم، إلا أنني لاحظت تغيراً في العلاقة، حيث كانوا ينظرون إليّ كشخص غريب، بل وأسوأ من ذلك، ذلك أنّي كنتُ ضمن مجموعتهم ثم خنتهم."

أُتيحت أول فرصة لهاشم ليرى عالماً مختلفاً حين أمضى سنة من عمره يدرس في "لاتفيا" فيقول: "إن دول الاتحاد السوفييتي السابق شديدة الإلحاد، فالناس هناك يشربون الخمر ويأكلون لحم الخنزير ويمضون الليل في بيوت الغير،" مضيفاً أنه اختار عدم القيام بأيّ من هذه الأمور في البداية لأن الدّين يحرمها، ولأسباب تتعلق بالثقافة والعادات والتقاليد، يقول: "كنتُ أفكر دائماً بأنني سأخيب أمل أسرتي بي، إذ كيف سأفسر الأمر لهم؟ ولذلك لم أشرب الخمر، ولم أقم بشيءٍ من ذلك القبيل سنة كاملة."

إلا أنّ أول تجربة له في شرب الكحول كانت سنة 2004 في لبنان، حيث يقول: "اعتدتُ على زيارة أصدقائي في الجامعة الأمريكية في بيروت، وكلّما حاولوا إقناعي بالشرب كنت أقول لهم: لا، لا، لا أريد فعل ذلك. وذات مرة قلت لهم فجأة: حسناً. وفي أول ليلة شربت فيها لم أتوقف عن الكلام لست ساعات تقريباً، وأعتقد أنهم ندموا لتشجيعي على الشرب." إلا أنّ هاشم لم يندم على اتخاذ ذلك القرار حيث يقول: "شعرتُ بأني قد حررتُ نفسي من الاستمتاع بوقتي قليلاً، وأنّه كان عليَّ أن أفعل ذلك منذ وقت طويل. إلا أني لم أغير في حياتي شيئاً، ولم ينقص احترامي لذاتي حين رحت أشرب الخمر."

راحّ هاشم يواعد الفتيات في مدريد في وقت لاحق، إلا أنه وعلى نحو يثير الدهشة كان لايزال يرفض أكل لحم الخنزير، حيث يقول:

"شعرتُ بأنَّ لحم الخنزير وحده كان خطأً أحمر بالنسبة إلي، لقد حاول أصدقائي أنْ يعرفوا من أيّ بلد أنا فيقولون لي: ليس لديك مشكلة بالشرب أو مواعدة الفتيات، فما المشكلة في تناول لحم الخنزير؟ أعتقد أن الخنزير ولحمه مرتبط بكل ما هو سيّء أو بذيء أو بغيض في العالم العربي، لا يشبه الأمر مسألة الشرب، حيث يمكنك الاختيار بين أن تشرب أو أن لا تشرب، أما بالنسبة لتناول اللحوم فيمكنك أن تأكل لحم الخروف أو البقر أو الدجاج. لقد بدأتُ بتناول لحم الخنزير سنة 2008 على ما أذكر، وكان إدراكي عندها يشبه ذلك المتعلق بالشرب."

وباستمرار ابتعاده عن الدّين، أعلن هاشم إلحاده في نهاية الأمر لكن أسرته كانت لاتزال تجهلُ الأمر، فيقول: لا أعتقد أنني سأخبرهم، فلم أرد أن أسبب المشاكل لنفسي،" ويعتقدُ بأنّ المشكلة ليست متعلقة بالدين بحد ذاته، وإنما بسبب "وجود فرق على الصعيد الاجتماعي بين أن تكون مسلماً سلبياً وملحداً فاعلاً." ويتابع:

"أدخل أحياناً في نقاش مع والدتي. ذات مرة قلت لها: إذا كنت تؤمنين بوجود الله وبأنه يرعانا فبحق الجحيم، ما الذي يحدث في سورية والبلدان الأخرى إذاً؟ إنه نقاش عقيم، إلا أني كنت أطرح هذه الأسئلة البلاغية بين الحين والآخر، ولا أزال في نهاية المطاف مسلماً بالنسبة لها، وإنْ كان لدي تحفظاتي حول بعض المسائل المتعلقة بجوانب من الإسلام، إذ يمكنني البوح بأني لا أصلي ولا أصوم، ولكن إن أخبرتها بأني ملحد سيكون هناك انهيار كامل، إذ لايزالون في حالة إنكار، وأعتقد أن هذا الأمر ينطبق على المجتمع ككل وليس على أسرتي فحسب."[13]

بالنسبة للأشخاص الذين كانوا مسلمين في السابق، فإنّ أحد أشكال العقاب الإلهي المثير للجدل بشكلٍ خاصّ هو المبدأ القائل بأنّ الملحدين والناس من أديان أخرى سيُعاقبون في الجحيم، وبالتالي فإن الأشخاص الذين لم تتسنى لهم الفرصة أبداً للتفكير باعتناق الإسلام وكذلك الذين فكروا باعتناق الإسلام بشكل جدي إلا أنهم لم يقتنعوا بالأدلة سيواجهون جميعهم اللعنة الأبدية، وذلك وبكل بساطة لأنهم لم يؤمنوا بالله. أضِفْ إلى ذلك أن كثيراً من الأشخاص "الملعونين" يعيشون حياة متحضرة وبريئة إلى حدّ كبير وذلك وفق أي معايير عادية. يقول أحمد سعيد في هذا الإطار: "توصلتُ إلى نتيجة مفادها أن الدّين مسألة تتعلق بمكان ولادتك، وبالدين الذي يفرضه عليك والداك."

ومن الردود الشائعة حول هذا الأمر أن الأشخاص الذين لا يؤمنون بالله ليس لديهم بوصلة أخلاقية – أو أن لديهم البوصلة الأخلاقية الخطأ وذلك بالنسبة لمن يعتنقون ديانات أخرى – مما يؤدي بهم إلى الانجراف نحو الخطيئة، ويعتبر العالم السعودي البارز الشيخ محمد المنجد – الذي ادّعى بأن تسونامي المحيط الهندي الذي حدث سنة 2004 هو انتقام من الله نتيجة "الفجور" – أن الإلحادَ خطيئةً بحد ذاته، بل خطيئةً مشينةً، حتى أنه أسوأ من عبادة الأوثان أو الشرك بالله. كما يرى المنجد أنّ من يعبدون الأوثان والمشركين بالله هم أقلّ سوءاً من الملحدين لأنهم يعترفون بالله إلى حدّ ما، وإن كانت عبادتهم موجهة بشكل خاطئ، حيث يقول:

> "إن الملحد الذي ينكر وجود الله، ويرفض رُسله، ولا يؤمن باليوم الآخر، فهو في قمة الكفر، ومعتقداته هي الأكثر سوءاً... إنّ الملحد عنيدٌ ومتغطرسٌ لدرجةٍ لا يمكن تخيلها، ولا تتقبّلها الفطرة الانسانية السليمة، لذا سينتهك كل ما هو مقدّس، وسيرتكب أيّ ذنْبٍ، وستكون رؤيته للعالم مشوهةً لدرجةٍ لا يمكن تصورها."[14]

ويتابع المنجد حديثه فيستشهد بفتوى للمفتي السابق للملكة العربية السعودية عبد العزيز بن باز، والتي تقول بأنه يجب على المسلمين أنْ يحذروا أكْلَ لحم الحيوانات التي يذبحها الشيوعيون بشكلٍ خاصّ، فيقول: "إن اللحم الذي يذبحه الشيوعيون حرام وهو مثل اللحم الذي يتناوله المجوس وعبّاد الأوثان، بل إنْ اللحم الذي يتناولونه في الحقيقة أشدُّ حرمةً لأنهم أشدُ كفراً بسبب إلحادهم وإنكارهم للخالق."

وقد استشهدت صحيفة سعودية بكلمات عالمِ دينٍ آخر حين يقول: "إن التمسك بالقيم الدينية هو الحل الوحيد للانحطاط الأخلاقي المتزايد والفوضى الثقافية في المجتمع الحديث."[15]

ورغم التأكيدات العديدة والمتكررة في هذا المجال، إلا أنّه لا يوجد دليل مقنع على أنّ سلوكَ الملحدين هو أسوأ أو أفضل من سلوك المؤمنين عموماً رغم ادّعاء كل من الفريقين تفوقه الأخلاقي على الفريق الآخر. لقد كانت الأفكار المتعلقة بالمبادئ الأخلاقية، كالإنصاف والعدالة، ذات أهمية بالغة بالنسبة للعرب الذين أجريتُ مقابلات معهم ممن يشكّون بالدين، وهذا يتطابق، إلى حد بعيد، مع نتائج الدراسة التي أجراها "سميث" حول الملحدين الأمريكيين، حيث كان المشاركون في الدراسة "يعتبرون أنفسهم أفراداً طيبين وخلوقين،" إلا أنّم شككوا أن يكون مَردُّ هذا الأمر إلى إرثِ الأحكام والممارسات الدينية، حيث يقول "سميث" في الدراسة: "إن كل واحد منهم لاحظ وانتقد بطريقة ما فكرة أنّ الناس يحتاجون إلى الدّين ليكونوا صالحين وعلى درجة من الخُلُق." كما كان لدى الملحدين في الدراسة الأمريكية آراء تقليدية حول

الخطأ والصواب، حيث اعتبر الكلُّ "تصرفاتٍ من قبيل الكذب والغش والسرقة والقتل وكل ما يؤذي الناس خصوصاً أمراً غير أخلاقي."

إنّ الفرق الأساسي هنا هو الطريقة التي يتبعها الملحدون في التعاطي مع الأسئلة المتعلقة بمبادئ الأخلاق، فبرفضهم الإيمان بالله يكونون قد وضعوا جانباً القواعد المحَددة مسبقاً، وقاموا بدلاً من ذلك بمحاكمات أخلاقية بناءً على تفكّرهم الخاص، ويجادل العديد بأنّ هذه الطريقة هي الأفضل، لأنّ الخيارات تعتمد على ما يرونه صائباً، لا على ما طُلِب منهم القيام به تحت التهديد بالعِقاب. ويعقّب أحد المشاركين في دراسة "سميث" قائلاً:

> "لا يدرك كثير من المتدينين أنّك ببساطة تستطيع أنْ تختار التصرف الأخلاقي، وأنْ تحدد لنفسك الإطار الأخلاقي وفق أساس منطقي، فالأمر برأيهم متعلقٌ بما أمرك الله بفعله، وبأنك ستُعاقب إنْ لم تفعل ما أمرك الله به. وكما تعرف فهو سيناريو بسيط جداً قائم على مبدأ الترغيب والترهيب، فإن كنتَ تقوم بأمر ما خوفاً من العقوبة فإن ذلك يزيل تماماً ما أعتبره بُعداً أخلاقياً."

إنّ التقدم الذي تلخصه دراسة "سميث" حول الملحدين الأمريكيين تَتَوّجَ بمرحلة "إعلان الإلحاد،" حيث انتقلوا من المراحل الأولى للتشكيك في الله والدين إلى "مرحلةِ إنكارٍ أكثرَ فاعليةً ومقصودة بشكل أكبر،" ليبدأوا في النهاية بإعلان أنفسهم كملحدين صراحةً وأمام الآخرين.

يمكن أنْ يكون "الظهور" كملحد، في المجتمعات التي يهيمن عليها الدّين خطوةً صعبةً حتى في الولايات المتحدة، حيث يقول "سميث": "إنّ اعتبار الإلحاد أمراً معيباً ومنحرفاً يجعل المطالبة بالهوية والاعتراف في المجتمع أمراً صعباً في البداية." ورغم أنّ الدستور الأمريكي يفصل الدّين عن الدولة إلا أنّ الولايات المتحدة هي إحدى أكثر دول العالم تديُّناً، حيث تظهر عبارة "نؤمن بالله" على أوراقها النقدية، وغالباً ما يأثر الدين في السياسة، ولم يحدث أنْ ضمّ الكونغرس الأمريكي عضواً ملحداً إلا في سنة 2007، عندما أصبح "بيت ستاركPete Stark" أولَ عضو في الكونغرس يعلنُ إلحاده صراحةً، وما يزال هنالك الكثيرون ممن يشككون فيما إذا كان بالإمكان يوماً ما انتخاب شخص رئيساً للدولة كان قد أعلن إلحاده صراحةً. ويصف 60% من الأمريكيين أنفسهم كمتدينين و5% فقط كملحدين، مما يساعد في تفسير سبب تردد بعض الملحدين في إشهار إلحادهم في الولايات المتحدة رغم أنّ حرية التعبير والحرية الدينية مبادئُ أساسيةٌ في الدستور الأمريكي. ويقول "سميث": " تبين في نهاية المطاف أنّ الإعلان عن الإلحاد

أثبت إيجابية تجربةِ الذين قرروا القيام بتلك النقلة في حياتهم، "وأخيراً ورغم تكتمهم في البداية، ومع شروع الأشخاص الذين أجريتُ مقابلاتٍ معهم بإظهار إلحادهم علانيةً، صاحبَ الأمرَ ظهورُ الشعور بالتمكين والثقة ووجود معنى جديد للذات."

ومما لا شك فيه أنّ قلة قليلة من العرب يُقدم على القيام بهذا الأمر حالياً، فالأخطار التي ينطوي عليها إشهارهم للإلحاد كبيرةٌ جداً، بل يمكن أن تكون النتيجة كارثية بالنسبة لمن يقدمون على القيام بذلك، غير أن ظروف الأفراد متباينةٌ إلى حد كبير، وذلك بناءً على مواقف الأسرة والأصدقاء، والمجتمع المحيط بالشخص، فقد طلب معظم الأفراد الذين جرتْ معهم المقابلة بغرض تأليف هذا الكتاب عدمَ ذِكرِ أسمائهم الحقيقية وذلك، على الأغلب، لتجنب إغضاب أسرهم، حيث يقول محمد رمضان: "لقد فقدتُ بعضاً من أصدقائي بسبب آرائي، ولازلتُ أقاوم رغبتي الشديدة بإخبار والديّ، أتخيلُ بأن يُصاب والدي بنوبة قلبية أو شيء من هذا القبيل، أنا أهتم حقاً بوالديّ ولا أريد أن أؤذيهما، لن يفعلوا أي شيء لي إذا ما عرفوا ولكن سأمضي بقية حياتي وأنا أشعر بالندم؛ لأني بإخبارهم أكون قد آذيتهم كثيراً؛ لكنّي على الأقل أشعر بالسعادة لأنهم يعرفون أنّي لا أُصلّي، وأحياناً ألجأ إلى اختلاق الأكاذيب البيضاء لإرضائهم."

وبما أنّ كثيراً من الأسر يقلقها مجرد التفكير بوجود شخص غير مؤمن بينهم، لا يسعى الأقارب عادةً لتأكيد مخاوفهم فيتبعون المنهج القائم على "لا نسأل، لا تخبروا" باعتباره مناسباً لكلا الطرفين. تقول "بدرا"، وهي "لاأدريّة" من لبنان"

> "كانت سياستي تقوم على عدم السماح للآخرين بالتدخل في حياتي الخاصة. فقد تركتُ بيتي عندما بلغتُ الثامنة عشرة من عمري وذهبت إلى الجامعة في بيروت، فكان من الأسهل بالنسبة لي أنْ أبتعد، فتوقفتُ عن الصيام أثناء رمضان. هم يعرفون أنني أفكر بطريقة مختلفة لكنني لا أفصح عن معتقداتي كي لا أؤذيهم، كما يعرفون أنني أشك بوجود الله لكنهم يفضّلون تجاهل ذلك؛ كما ويتجنبون الاعتراف بذلك لأن الأمر شائك؛ حتى وإن أخبرتُ والدتي شيئاً محدداً بالفعل –كأن أخبرها بعدم رغبتي بأن أُدفن في مقبرة العائلة، وبأنني أريد أن تُحرق جثتي أو شيء من هذا القبيل– قد تتجاهل والدتي الأمر بكل بساطة أو تعتقد أنّ أمامي فرصة في أن أصبح مؤمناً مثلها."

تواسي الأسر القلقة نفسها بالأمل في أنْ يتوب قريبهم المتمرد في النهاية ويعود إلى رشده، حيث يقول أحد الملحدين العرب: "يعتقد العديد من أصدقائي وأفراد أسرتي أن إلحادي مجرد مرحلة سأتجاوزها يوما

ما، ولكني الآن في الخمسين من العمر وقد مضى على إلحادي أربعٌ وعشرون سنة، فهي إذاً ليست مجرد مرحلة؛ لأنه حالما تعرف ذلك الأمر، لا يمكنك تجاهله." إلا أنه وبخلاف الكثيرين غيره، يجادل هذا الملحد أقرباءه السعوديين في الدّين؛ فيقول: "كثيراً ما ندخل في نقاشات ساخنة، إلا أنه ولسوء الحظ يفتقر الكثير من الأشخاص إلى الثقافة العلمية لفهم ما أتحدث عنه، فقد غُسِلَتْ أدمغتُهم وأُشْرِبوا أفكاراً معينة؛ وأصبح من غير الممكن معها العودةُ عما يؤمنون به."[16] ورغم عِلمِ أُسرته بموضوع إلحاده وقيامه بالنشر بشكل متكرر على موقع "تويتر"، إلا أنّ "الملحد العربي" يخشى أنْ يتعرض للتهديد إذا ما أصبح اسمه معروفاً، فقد أخبر أحدَ الصحفيين الإماراتيين: "هويتي سرية للغاية ولا أشاركها مع أيّ كان، كما أقوم بالعديد من التدابير الوقائية لحمايتها."[17]

أمّا أحمد سعيد فقد أخبر والديه في اليمن أنه لا يعتقد بوجود إله، فما كان منهم إلا أنِ استهجنوا ذلك؛ فيقول: "أخبَروني بشكل أساسي ما يلي: "يمكنك أن تؤمن بالعلم وبنظرية التطور، ونظرية الانفجار الكبير، إلا أنّ جميع هذه النظريات العلمية هي من خلق الله." إن عائلتي محافظة ولكنها ليست كذلك بالمطلق، فيقولون لي أني كلما تعمقتُ في العلم كلما زاد يقيني بالله لاحقاً." غير أنّ أحمد هو أكثر حذراً في موضوع إلحاده أثناء نقاشاته مع أصدقائه المسلمين؛ حيث يقول:

> "عادةً ما أقول لهؤلاء الأصدقاء أنني ربوبي، أي أؤمن بالله ولكن لا أؤمن بالإسلام. أحاول ألا أصدمهم بالقول إنني لا أؤمن بالله مطلقاً؛ لأنهم سيعتقدون أنّ كل ما أقوله سخيف وبأن الشيطان قد استحوذ على فكري، لذلك عادةً ما أقول لهم أنني أؤمن بالله وأعتقد بأن الله مذهل، أنا لستُ ملحداً لذلك لا تقلقوا... إلا أنني أعتقد بأن الإسلامَ وجميعَ أديان العالم قد أعطتِ الله اسماً سيئاً، وتلك هي وجهة النظر التي أجادل بها أصدقائي، لكنني لا أستطيع الإفصاح عن إلحادي لأنهم سيعتقدون بأنني سأذهب إلى الجحيم. لقد غُسِلَتْ أدمغتهم بالقدر الكافي. إنّ مجتمع الملحدين في اليمن صغيرٌ جداً لدرجة أنّ لي صديقاً يمنياً واحداً ملحداً فقط."

اكتشفت سارة في الكويت أنّ التعرف على غير المؤمنين، أو البدء بمحادثات عن الإلحاد يمكن أنْ يكون عملاً دقيقاً وصعباً، وغالباً ما كان ينتابها الفضول حول الأشخاص الذين بدا أنهم يتجنبون استخدام التعابير الدينية التقليدية في حديثهم اليومي من قَبيلِ "ما شاء الله،" إلا أنّ المظاهر يمكن أن تكون خادعة. تقول سارة:

"قابلتُ أناساً بدوا غير متدينين، ولكن عندما كان يتعلق الأمر بالدين كانوا يظهرون أنفسهم كمتدينين. كثيرٌ منهم كانوا يشربون الخمور، ويحضرون الحفلات، ويستمعون لجميع أنواع الموسيقا الجميلة التي كنت أسمعها. كنتُ أعتقد أنهم مثلي تماماً... إلى أن ظهر الدّين. كان لدي صديقة من أروع الفتيات، كانت مثيرة للإعجاب ومتأثرة بثقافة الغرب، وكنتُ أعتقد أنها من أفضل أصدقائي. إلا أنّها رأت ذات مرة حسابي على موقع "Reddit"، فوصفتني بالوثنية، وأخبرتني بأنني سأذهب إلى الجحيم؛ فكان الأمر بمثابة صدمة لي، وكان هناك أشخاص خشيتُ كثيراً أنْ أفتح معهم نقاشاً بهذا الموضوع، وكان من الغريب أننا لم نتحدث عن هذا الأمر أبداً. أما في الكويت فأعرف بضعة أشخاص فقط ممن أستطيع التحدثَ أمامهم في هذا الموضوع بصراحة، وعددهم بالتأكيد أقلُّ من عشرة أشخاص، كما كان هناك بعض الأشخاص الذين لم نذكر أمامهم كلمة ملحد أبداً، إلا أننا كنا نلمح لها تلميحاً فقط. كما كنا نلمح إلى بعضنا بعضاً بافتقارنا للإيمان، حيث يمكنك قول دعابة صغيرة مجدّفة قليلاً فقط –وليس كثيراً جداً – حتى وإن ضحكوا على الدعابة إلا أنك لا تزال غير متأكد، فتبدأ بالتساؤل عن الضحكة ونبرتها، فتتساءل: هل لديهم حِسُّ الدعابة؟ هل يعتقدون أنك تقول مجرد دعابة أم أنهم يعرفون أنك تحاول أنْ تقول شيئاً ما؟ ولكن وراء كل دعابةٍ حقيقةٌ، وذلك هو الجزء الصعب."

تشير نبيلة من البحرين إلى أنها أصبحت أقل تقيُّداً؛ حيث تقول:

"كان الأمر صعباً جداً في البداية، ولايزال كذلك مع العديد من الأشخاص، إلا أنني بدأتُ أدركُ مع تقدمي في السنّ أهميةَ أنْ ألتزمَ الصمت حيال هذا الموضوع؛ كما أُجري محادثات مع الكثير من المسلمين المنفتحين عقلياً في الحوار؛ وعندما التحقتُ بعملي كان هناك شخص لم يرغب بالإصغاء لهذا النوع من الحديث... ولكن أصبحنا حالياً نستطيع الحديث عن هذا الموضوع بشكل طبيعيّ، ونقول الدعابات عنه أيضاً، وهنالك أشخاص يؤمنون لأنهم يخشون كثيراً ألا يكونوا مؤمنين، أعتقد أنّ فكرة احتمال ألا يكون الأمر صحيحاً ترعبهم."

يقول "رامسات" الشاب المصري الذي كان مسيحياً سابقاً، أنه لا يتباهى بإلحاده؛ رغم كونه قد قام بتحديث القسم المتعلق بالدين في صفحة حسابه على "فيسبوك" حيث يمكن أنْ يكتشف أصدقاؤه الأمر عند معاينة صفحته. ويشير إلى أنه لا ينتقد الدّين لأنّ للدين يحقق غايةٌ روحية لدى الإنسان؛ فيقول:

"ليس الدّين أمراً سيئاً؛ بل هو أمر جيد؛ وإلا لما أَحدَثَه الناس، لا يهمني إنْ كنتُ أحتاج إلى الدّين أم لا؛ لأنني أعرف الآن أنه ليس صحيحاً، فأن أحب "بابا نويل" وأتمنى أن يأتي كل سنة إلى منزلي ويترك لي الهدايا، إلا أنني أعرف أنّ الأمر ليس حقيقياً. أتمنى لو أني لم أعرف ذلك، ولكن لا يمكن تغييره، كما لا يجب عليك أن تخبر الآخرين بأن "بابا نويل" غير موجود. لا تنتقد الدّين، بل دع الناس في سعادةٍ ما لم يؤثر فيهم الدّين بطريقة سيئة؛ كقتل بعضهم بعضاً، أما إن كانوا سعداء فدعهم كذلك، إذا كان الأمر مناسباً لهم فلا تحاول إصلاحه."

إلا أنّ ريم عبد الرازق، وهي مصرية أيضاً، ترى أنّ الصمت لا يجدي نفعاً فتقول:

"عندما يبدأ الناس أخيراً بالتكلم صراحةً، لن يتم فرضُ هذه القوانين بالقوة ضد الإلحاد والتجديف... إلخ، إذ لا يمكنهم فرضها على الجميع بالقوة؛ أما إذا كان الأمر يتعلق بشخص واحد يتحدث في أمر ما، عندها سيسجنونه، أعلمُ أنّ كثيراً من المصريين يؤمنون بما أؤمن به تماماً، إلّا أنهم لن يُظهروا ذلك أبداً، وبالتالي فإن الفكرة العامة تقول بوجود قلة من الملحدين فقط، وإذا ما تم سجنهم أو قتلهم فلن يبقَ أيّ منهم. إلا أن الواقع يقول أن هناك الكثير من أولئك الأشخاص، وأنهم إذا ما بدأوا بالكلام صراحة فإن الأمور ستتغير."

الفصل الخامس: الإلحاد والجنس (النوع) والميول الجنسيّة

هيمن الرِّجال على الدّين على مرّ التاريخ البشري، فالأنبياء ورجال الدّين والكهنة كلهم ذكور، أضف إلى ذلك أنَّ الله يشار إليه كمذكّر، بينما كانت النّساء في ذلك الوقت تقوم بدور المستمع فقط. حاولت بعض الكنائس في الغرب في ذلك الوقت معالجة قضية المساواة بين الجنسين حيث أصبح هنالك قساوسة من الإناث، إلّا أنَّ الدّين في الشّرق الأوسط ما يزال ذكورياً خالصاً؛ كما أنَّ التعاليم الدّينيّة غالباً ما تهيئُ أسباب التمييز والتهميش ضدّ المرأة. وبالتالي يمكن القول أنَّ للنّساء في الشّرق الأوسط أسبابٌ أكثر من الرِّجال للتخلي عن الدّين. مِنَ المؤكّد أنَّ منهنَّ مَنْ تمرّدتْ وتركت الدّين؛ إلّا أنَّ البيئة الاجتماعية التي خلقها النّظام الذّكوري تجعل مجرَّد التفكير في القيام بذلك أمراً صعباً على الأخريات.

أمّا أولئك اللائي نجحنَ في الرِّدَّة فلهن خلفيات متعددة، كما في هاتين القصتين المختلفتين: القصّة الأولى هي قصة اللبنانية بدرة التي رفضتْ النّظام الذّكوري بوجهيه العلمانيّ والدّينيّ، والثانية هي قصة نُهى محمود سالم، وهي سلفيّة مصريّة كان سلوك زوجها أحد أهمّ أسباب إلحادها.

نشأت نهى في عائلة متدينة تقليدية، وحصلت على جائزة في حفظ القرآن؛ وفي المدرسة الثانوية، طلب منها معلمها ارتداء الحجاب قائلا: "على الطالب الجيد أنَّ يكون ذا أخلاق حميدة." ثم ارتدَتِ النقاب الذي يغطي الوجه بالكامل لكن الشّكوك راحتْ تراودها بعد أن تزوّجتْ. تكمل صحيفة The Egypt Independent المصريّة قصة نهى:

> "صفعها زوجها ذات يوم؛ وعندما اشتكت لوالدها قال لها أنَّ لزوجها الحقّ في ضربها كما جاء في سورة النّساء[4]، ثم بدأت تتساءل كيف أعطى الله للزوج الحق بهجر زوجته وضربها ... في حين يحرّم الإسلام أذية الحيوانات؟ هلِ النّساء أقلّ شأناً من الحيوانات؟ هل لأنَّ المرأة هي أضعف من الرِّجال، ولا يمكنها الرّدّ؟ كيف يمكن السماح بإذلال النّساء؟"

ثم بدأت تلك العلاقة في التدهور، فأصبح زوجها يتركها وحدها في المنزل؛ حتى أنّه رفض أنَّ يشتريَ لها جهاز تلفزيون لأن ذلك حرام برأيه. وتتابع الصحيفة:

---

[4]– الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (سورة النساء: الآية 34)

"اشتكت نهى زوجها مرةً؛ مشيرة إلى نفاقه حين رأته يشاهد التلفزيون في بيت والدته. فردّ بضربها أمام والدته. جعل هذا الموقف نهى تعيد النظر في القرآن كله، لا في سورة واحدة فقط. بعد ذلك قرأت نُهى في أحد الكتب أنَّ السورة نزلت في ظروف لم تعد موجودة في الحياة الحديثة والثقافة التي نعيشها الآن."[1]

كما أنَّ إلحادها أنهى زواجها، فزوجها يؤمن أنَّ الإسلام نهى عن الزواج من امرأة مرتدة.

أمّا بدرة، وهي ابنة مدينة طرابلس اللبنانية، فكان لها قصّةٌ مختلفةٌ في رحلتها إلى الإلحاد رغم أنّها أيضاً تضمّنت النّظام الذّكوري. لقد كان شغفها بالكاتبة الوجودية الفرنسية "سيمون دي بوفوار Simone de Beauvoir" في سنّ المراهقة أحد أسباب إلحادها كما أنَّ حقيقة أنّها نشأت بلا أبٍ – التي تعتقد أنّها "حررتها" من حاجتها إلى "أب" روحي في الجنة – ساهمَ في إلحادها. تقول بدرة: " لعب فقداني لوالدي في سنّ الخامسة دوراً حاسماً في تقليص دور الدّين في حياتي." وتتابع قائلة:

"ارتبط الدّين، بالنسبة لي كطفلة، بالموت بشكل رئيس. تولِي ثقافة الأسرة طقوس الحداد أهمية كبيرة؛ حيث تلبس النّساء السواد مدّة طويلة، وتُمنع مشاهدة التلفاز وسماع الإذاعة – اللواتي تُعَدُّ من وسائل الترفيه – في فترة الحداد؛ ويُتلى القرآن في كلّ مأتم. تسرّب الشك إلى نفسي لأول مرة عندما كنّا نستمع إلى القرآن في أحد المآتم، حين أحسستُ أنَّ سماع القرآن عدوانيّ وحزين وسلبيّ. أصابتني كآبة شديدة عندما كانوا يتلون علينا سورة يس في أوقات الحداد. لقد كان الأمر مخيفاً جداً بالنسبة لي لاحتوائها الكثير من السلبية والوعيد للكافرين الذين اعتبرهم القرآن عنيدين للغاية، رغم أنّه نصّ قويّ وجميل نوعاً ما.

كنتُ طفلة صغيرة تلقتِ القرآن بطريقةٍ عدوانيةٍ جداً، خاصة أنّه ارتبط بأجواءَ كئيبةٍ جداً، كفقداني لأحبابي، واتشاحِ النّساء بالسواد، وبكاء النّاس، وزيارة القبور في الصباح. كان هذا أوّلَ لقاء حقيقي لي مع الدّين."[2]

سميت سورة يس بهذا الاسم لأنّها تبدأ بحرفي الياء والسين، وتسمى "قلب" القرآن. يقول أبو علاء المودودي، (1903–1979)، وهو أحد أبرز المنظّرين الإسلاميين، أنَّ ما تحتويه السّورة من تقريعٍ وتحذيرٍ "قد قُدم بطريقة قويّة للغاية بحيث تهتزّ لها القلوب التي فيها بقيةٌ من قابليةٍ لقبول الحقيقة."[3]

وجاءت المواجهة الرئيسة الثانية لبدرة مع الدّين عندما كانت طالبةَ ففي المدرسة. كانتْ والدتها شيعيّة وكان والدها سنيّاً، لكنّها درست في مدرسة مسيحية للبنات تديرها الراهبات. وتضيف قائلة:

"إنَّ عدم وجود مرجعية واحدة لي أنقذتني من الدّين بطريقة أو بأخرى. في المدرسة يذهب الطلاب المسيحيّون إلى الدّروس الدّينيّة المسيحيّة في الوقت الذي يستريح فيه الطلاب المسلمون لمدة ساعة... إلى أنَّ تأسّست حركة التّوحيد الإسلاميّة في طرابلس في ثمانينات القرن العشرين، وبدأتِ الأمور تتغيّر. فجأة ملأتِ الميليشيات الشوارع وراحتْ تحذّر الفتيات الصّغيرات والنّساء من ارتداء القمصان قصيرةِ الأكمام أو التنانير القصيرة.

كنت حينها في الثانية عشرة من عمري. وأُجبرَتِ المدرسة على إعطاء الطلاب المسلمين دروساً في القرآن عند ذهاب الطلاب المسيحيين لحضور الدروس الدّينيّة. لقد شكّل ذلك فرصة لي لإعادة استكشاف الدّين.

تأثّرتُ في البداية بهذه الحركة الثقافية الإسلاميّة في المدرسة، وحضرتُ الدروس الدّينيّة. لقد كانت ممتعة في البداية، وأخذتُ الأمر بجدّيّة لأنّه كان شيئاً جديداً، كما أنَّ الدّروس الدّينيّة أفسحت ليَ المجال للتفكير والمناقشة.

كنتُ وقتها مع جدتي، ورأتني أصلّي. في مرحلة معينة أردتُ أنَّ أصلي الصلوات الخمس، ولكنني كنت أعيش أحلام اليقظة؛ لذلك كان من المؤلم بالنسبة لي الالتزام بها. أردت أنَّ أكون إنسان صالحة وأؤديها ولكن في نفس الوقت أردتُ عذراً لتركها.

رأتني جدتي وقالت لي: "ماذا تفعلين؟" في الواقع لم تُرِدْ لي جدتي أنَّ أصلّيَ لأنّها كانت مسلمة سنيّة ولا تريد لي أنَّ أصلي على طريقة والدتي الشيعية.

أعتقد أنَّ ذلك يُعزى لأسباب اجتماعية أكثر منها دينية؛ لأنَّ أهل السنة ينظرون للشيعة نظرةَ ازدراء. كانت جدتي خائفة من بعض الطقوس لدى الشيعة، ولا تريد لي أنَّ أتأثر بها، ورغم أنّي كنت ممزّقة بين اثنين من الولاءات، ورغم أنّي شعرت بإجحافٍ في الحكم نحو أمي، إلّا أنَّ هذا الأمر ساهم في تبديد الحماسة الجديدة لديّ تجاه الدّين والالتزام الذي يوجبُه."

راحت بدرة في هذه الأثناء تقرأ في مدرستها عن الأدب الفرنسي والوجودية، فتقول في ذلك:

"بهذه الطريقة ابتعدتُ عن الدّين. كنتُ أقرأ مؤلفات "سارتر" و"دي بوفوار" وفي وقت لاحق مؤلفات "كامو"، ولكن أكثر ما قرأت هو كتاب Mémoires d'une Jeune Fille Rangée" (مذكرات ابنة مطيعة) للكاتبة "سيمون دي بوفوار." كانت الكاتبة تتحدث عن نفسها عندما كانت مراهقة فوجدتُ أنَّ قصتها تشبه قصتي وكيف أنّها تركت أسرتها الكبيرة شيئاً فشيئاً، وكيف أنّها اتخذت قراراتٍ لم تتوقعها عائلتها منها.

كان هذا الكتاب بالغ الأهمية بالنسبة لي لأنه كان قصة حول بناء الهوية. إنَّ قصة "سيمون" الفتاة الشابة المنحدرة من أسرة محافظة، والتي أصبحت تُعرف لاحقاً بـِ "سيمون دي بوفوار"، ونمط العلاقة التي ربطتها لاحقاً "بجان بول سارتر" كانت رائعة بالنسبة لي كفتاة من طرابلس، وقد جعلتني أحلم بأن أفعل مثلها، لأكتشف العالم والأدب، وأنْ يكون لي أصدقاء يفكرون بطريقة مختلفة، وأنْ أحاول تغيير بيئتي وطريقة تفكيري.

كان لي في المدرسة مدرسون مثيرون جداً للاهتمام ممّن لم يُظهروا أيّ شكلٍ من الإلحاد لكنهم قدموا لنا هذا النوع من الأدب الذي لم يكن جزءاً من المنهاج الدراسيّ، فقد كانوا حريصين على تطوير التفكير النقديّ لدى الطلاب، وقد قدموا لنا مفاهيم التنوع الثقافي وشموليّة القيم الإنسانية، وأفكاراً – كالوجودية – لم تكن تُدَرَّسُ في المدرسة ولكنّها كانت مقبولة.

كما أنَّ مدرّس مادة الأدب الفرنسي، الذي كان يدرسنا مسرحيات "راسين" Racine و"كورني" Corneille و"موليير Molière" الكلاسيكية، فتح لنا باباً صغيراً على النصوص الحديثة، وهو ما منحني الفرصة لقراءة بعض مسرحيات "سارتر" و"كامو" عندما كنتُ طالبة في المدرسة.

توقفت عن الإيمان بوجود الجحيم عندما قرأتُ مسرحية "سارتر" بعنوان "أبواب مؤصدة" Huis Clos. رغم أنَّ المسرحيّة لا تتطرّق لمسألة الدّين إلّا أنّي وجدت فيها لغة جديدة ومعجماً جديداً. لقد كان مصطلح "الجحيم" شيئا آخر بالفعل. كنت في سنّ المراهقة،

وبعد مضي عام على أخذي لهذه الدروس الإسلاميّة في المدرسة تغيرت اهتماماتي كلياً."

ترى بدرة أنَّ موت والدها وهي فتاة صغيرة ساهمَ في عدم حاجتها إلى الله، فتقول: "إنَّ حقيقة عدم وجود أب لي جعلني متحررة بطريقة أو بأخرى ... وتوصلتُ من تجربتي الخاصّة إلى نتيجة مفادها أنّي أستطيع أنَّ أعيش وأكبر دون أب."

يقول عالم الاجتماع السوري حليم بركات أنَّ الأب يتزعّم الأسرة العربيّة التقليديّة فيأمرها "باحترام تعليماته والالتزام غير المشروط بها" تماماً كما يفعل الله[4]، ويرى أنّه في المجتمع العربي يتمتع ربّ الأسرة ورئيس الدولة والله بالكثير من الخصائص المشتركة، فيقول: "هُمُ الرّعاة، ومن سواهم هم الخراف."[5] لقد كان هذا "الهرم الاجتماعي" أحد الأسباب التي دفعت امرأة شابة أخرى بعيداً عن الإسلام، وهي المصرية ريم عبد الرازق التي تقول:

"مَثلاً كثيراً ما كنت أقرأ عن العبيد وأنا أقرأ القرآن، وقد ذُكروا 29 مرّة، فلم أفهم كيف أنَّ الله الذي يدعو للعدل والمساواة، والذي أرسل رسالة يُفترَضُ بها نشرُ السلام، أنَّ يسمح لشخص باستعباد شخص آخر.

ليس ذلك فحسب، ولكن في حال كان العبد أنثى فيسمح لمالكه بإقامة علاقة جنسية معها، لكنّي أعتبر ذلك اغتصاباً، لقد كان هذا الأمر من أهم الأشياء التي جعلتني أرى أنَّ الإسلام بدا غير ما كنّا نتعلمه."

كما أنَّ كثيراً مِنَ الذّكور الذين أجريتُ مقابلات معهم ذكروا هيمنة الذّكور على المجتمع كأحد الأسباب التي دفعتهم لرفض الدّين؛ حيث يقول "الملحد العربي": "إنَّ معاملة النّساء في الإسلام كانت عاملاً أساسياً في إلحادي؛ لقد لاحظتُ حالَ النّساء في الغرب وكيف يختلف عن حال جميع النّساء في بلدي وبدأتُ أرى كيف يسيء الإسلام معاملة المرأة."

ويضيف أحمد سعيد: "حتى عندما كنتُ مسلماً كنت أعتقد أنّه بالرغم من أنَّ الإسلام كان الدّين الحقَّ، وأنّه كلام الله، كان هنالك مَنْ يُحرّفُ هذه الكلمات عن مواضعها لتحقيق مآربه الشخصية؛ فيتسلّطون على أسرهم، وربما يمارسون العنف المنزلي دون رادعٍ مِنْ أحد. انظر إلى كُرْهِ المملكة العربيّة السعودية للنّساء، نحن نعيش في منطقة يسيطر الأب فيها على الأسرة بأكملها."

بالنسبة لليمنيّ يحيى، كانت هذه واحدة من الأشياء التي جعلته "يشعر بالانفصال" عن الدّين؛ وذلك عندما كان في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، فيقول: "حين كنتُ أقرأ القرآن كنت أشعر أحياناً أنّه لم يكن كلامَ الله، بل مجرَّد كلامٍ بسيطٍ يمكن لأيّ شخصٍ أنَّ يقوله؛ كان فيه ما لم أقتنع بها؛ كتفضيلُ الذّكور على الإناث مثلاً. عندما كنت طفلاً بدا لي أنَّ هذا كلام لا معنى له، فكيف يمكن أنَّ يكون أبي أفضل وأعظم من أمي؟"

فالاختيار بين الإيمان ونقيضه، بالنسبة لكثيرٍ من النّساء العربيّات، ليس خياراً بسيطاً في واقع الحال. تقول نبيلة من البحرين: "هنالك الكثير من الضغط على النّساء لإلزامهنَّ بتعاليم الإسلام، حتى في أبسطِ أمورهنّ، كالعثور على شريك أو الدخول في علاقة ما. كلّ أمرِ النّساء بحسبانٍ، ويخضع للرقيب."

وتضيف نبيلة:

> "كانت البحرين رائدةً بين الدّول العربيّة من حيث مراعاتها لحقوق المرأة، ومشاركة المرأة في الحياة السياسيّة، ولكنّها أصبحت أكثر تقييداً بعد الثورة الإيرانيّة. كانت الأمور مختلفة قبل الثورة الإيرانيّة... فقد كانت النّساء أكثر انفتاحاً وتمرّداً، وأكثر تأييداً للمساواة مع الرّجل ممّا هنّ عليه اليوم. أمّا اليوم، فحتى والدتي، وهي من مؤيّدي المساواة، تريد منّي إيجاد حلّ وسط، لأنّي إنَّ لم أساوم فلن أكون مقبولة. وأنا بدوري قد ساومتُ إلى حدّ ما وقدمتُ بعض التنازلات؛ فكنتُ أتصرف أمام جدَّيَّ مثلاً وكأنّي مسلمة لأنهم سيقلقون أنَّ لم أفعل ذلك؛ وسيشعرون أنّهم أخطأوا ولم يتمكنوا من توجيهي نحو جادة الصواب. إنَّ كوني امرأةً ملحدةً هو أسوأُ بكثير لأنّي، برأيهم، لن أكون قادرة على العثور على زوج وأشياء من هذا القبيل. لقد عرفتُ الكثير من الفتيات اللواتي وجدنَ صعوبة في الإلحاد؛ رغم أنَّ شكوكاً حول الدّين كانت تساورهنّ، فهنَّ يعتقدنَ أنَّ الإلحاد سوف يبدّدُ فرصهنَّ في العثور على زوج."

وفي مصر تمكنت ريم عبد الرازق من ترك الدّين لكنها تعترف بوجود صعوبات تواجه النّساء الأخريات، فتقول:

> "هناك الكثير من النّساء في مصر يعتقدن أنّهن أقلّ شأناً من الرّجل. لا أقول إنهن تعرّضن لغسيل الدماغ. بطبيعة الحال يمكن أنَّ تدفعهنَّ الضغوط للشعور بالظّلم، إلّا أنَّ

معظم النّساء اللاتي قابلتهنَّ يقلنّ لمن هي ليست منهنَّ: هذا هو خيارنا. وهو متروك لنا، ولم نكنْ مجبراتٍ على اتخاذه؛ أمّا عندما يكون الكلام بيننا، نحن النّساء العربيّات، فتقول إحداهنَّ: أود أنَّ أخلع الحجاب لكنّي أعرف أنني لا أستطيع." فالأمر إذا هو نوع من قبولٍ بالواقع أكثر منه تمرداً ضده."

وتقول نبيلة: "عندما تراودك هذه الأفكارُ، تساورك تلك الشّكوك، ولكننا مقيدات للغاية. إنَّ الدّين في هذا الجزءِ من العالم هو جزء من النّظام، فهو ليس في أسرتك فقط، بل في النّظام برمته، في مدرستك، وحتّى في القوانين الخاصّة بك، وهو ما يجعل الفِرارَ منه صعباً جداً."

تصف سارة، وهي سورية الأبوين، كويتية المنشأ، زيارة عائلتها للأصدقاء:

"كنّا نذهب إلى منزلهم كثيرا لأنهم سوريون. كان الرّجل سنيّا، بينما كانت زوجته علوية ترتدي الحجاب. كانت زوجته تلزم الصمت طوال فترة الزيارة؛ رغم أنَّ للزوجين مستوى التعليم ذاتَه، ويعملان في المجال نفسه، فقد كانا ممرضين.

عندما كنّا نجلس ونتحدث، تبقى هي هادئةً دائماً. كان أطفالهم أذكياءَ جداً. أحد أكثر الأشياء التي آلمتني، وأحد الأسباب الرئيسة التي دفعتني لاحتقاري لهذا الرّجل ولدينه، كان صمتَ زوجته الدائم. لم تكن تقْدِمُ على التكلم كثيراً بوجود زوجها، وكان عليها أنَّ تجلس فقط، وتقوم بما تقوم بها المرأة، أيّا كان ذلك."

كان لديه ابنة، ربما أصبحتِ الآن في السادسة عشرة من عمرها. كانت جميلة جداً ولامعة. ويؤلمني جداً أنَّ صوتها لن يكون مسموعاً أبداً."

ولكنّ سارة أيضاً تعلّمت من تجربتها المؤلمة أنَّ للتمرّد ثمن، فتقول:

تزوّجتُ عندما كان عمري 18سنة، وكان زوجي السابق متديّنا جداً، وعنيفاً، وقال لي أنّه يريد أطفالاً منّي وأنْ أغطّيَ جسمي كلّه فيما عدا عينيَّ ولهذا السبب هربت.

لم أكنْ أعرفُ أين سأهرب. ذهبتُ إلى "كيبيك" Quebec في كندا وتواريتُ عن الأنظار. بقيت عاماً بلا مأوى، وكنتُ أستقلُّ أيّ سيارة كانتْ، وآكلُ من صناديق

القمامة، وأنام على الأرصفة. أمّا الآن فأنام عند صديقة لي، لكنني، على الأقل، وجدت مأوىً، وأحاول الآن تنظيم حياتي."

وتتأمل سارة أحيانا فيما قد ضحّت به، فتقول:

"أسأل نفسي: هل أريدُ أنَّ يكون لي صوتي وحريّتي، أم أريدُ أنَّ يكون لي بيتٌ وأسرةٌ وطعامٌ؛ أنَّ أكونَ تحت سقف بيتٍ ما، وألّا أقلق بشأن المال؟ أعلم أنَّ الكثير من النّاس يقولون بأنهم يفضّلون الحريّة، إلّا أنّي كثيراً ما أشعر أنني سأُضْطَرُّ للتخلّي عن هذا الخيار مقابل الأمن."

إنَّ ربط الإلحاد بانعدام الأخلاق يشكّل رادعاً للنّساء المشكّكات بالدّين، فالمجتمع العربيّ يتوقع منهنَّ أنَّ يتمتّعنَ بالفضيلة، وألّا يتمرّدنَ، وإلّا فلن يتزوجنَ. وقد نَشرتْ صفحة الملحد العربي على فيسبوك منشوراً يقول: "من الصعب إعلانُ الإلحاد؛ لأنَّ المجتمع سيعتبرك على الفور منعدماً من القيم الأخلاقيّة. وهذا أكثر ما يؤثّر على الفتيات؛ فقد كان علينا إزالة أسماء أعضاء الصفحة من الإناث لحمايتهنّ من الأسرة والمجتمع."[6]

ومن الواضح أنَّ مِثلَ هذه الضّغوط الاجتماعيّة ليست السبب الوحيد الذي أبقى العديد من النّساء متشبثات بالدّين. في الغرب، كانت العلاقة بين الدّين وجنسِ الشَّخص (النوع) مَدارَ أبحاثٍ اجتماعيةٍ عديدة، وقد وجدتِ الكثيرُ من الدراسات أنَّ المرأة عموماً قابلةٌ لأنَّ تكون "أكثر تديناً" من الرّجل، وهذا ينطوي على تناقضٍ واضحٍ؛ فالمرأة يتمّ إخضاعها بواسطة الدّين، وتلقى فيه دعماً وسنداً في الوقت ذاته.

وقبل النّظر في التّفسيرات المحتملة لهذا الأمر، من الضّروري أخذ الحذر، فمعظم الأبحاث التي تمّ نشرها – بما في ذلك النتائجُ التي تقول أنَّ المرأة " أكثر تديناً" من الرّجل – تتعلق بأشخاص ذوي خلفيّة ثقافيّة ودينيّة مسيحيّة يعيشون في الغرب، ولا تنطبق حالتهم على حالة المسلمين بالضرورة؛ وخاصةً أولئك الذين يعيشون في الشّرق الأوسط، حيث أعطتْ دراسة مقارنة أجريت سنة 2001، وشملت مسيحيين وهندوس ويهود ومسلمين ممَّن يعيشون في بريطانيا، نتائجَ مختلفة؛ ففي الجماعات غير المسيحيّة، ظهر أنَّ المرأة "أقل نشاطاً دينياً بشكلٍ لافتٍ" من الرّجل، وهذا ما دفع المشرفين على الدّراسة للتشكيك في الرأي القائل بأنّ النّساء أكثرُ تديناً من الرِّجال؛ مستندين في رأيهم إلى أنَّ الأبحاث السابقة أُجريت في إطارِ ثقافةٍ محدّدة، وتتوقّف على طريقة القياس المستخدمة. يقول المشرفون على الدراسة:

"تُفرِق الكثيرُ من التقاليد الدّينيّة بين الواجبات الدّينيّة للرجال من جهة وللنساء من جهة ثانية، وتضع مزيداً من الأعباء على عاتق الرّجل في أداء الفرائض "الدّينيّة" كالصلاة ودراسة النصوص الدّينيّة؛ كما أنَّ الدّيانتين اليهوديّةَ والإسلامَ تفرضانِ على النّساء واجباتٍ دينيةً أقلَّ إجهاداً من واجباتِ الرِّجال في بعض النواحي، وذلك بسبب دورهنّ التقليديّ في العناية بالمنزل ورعاية الأطفال.

فعلى سبيل المثال، يكون حضور النّساء في أماكن العبادة الإسلاميّة واليهوديّة أقلّ مقارنةً بالرجال... فالنّساء المسلمات لا يدخلنَ المسجد في المحيض، كما أنَّ النّساء ذوات المسؤوليات العائلية قد يَكُنَّ أقلَّ التزاماً بالصلاة والانخراط في الدراسة الدّينيّة. وبالتالي قد تظهر النّساء اليهوديّات والمسلمات من ناحية النّشاط الدّيني أقل "تديناً" من الرِّجال اليهود والمسلمين."[7]

وتجدر الإشارة إلى أنَّ هذه الدراسةَ لم تكن معنيةً بالإيمان، بل بالنشاط الدّيني؛ وبعدد المرّاتِ التي يحضرُ النّاس فيها أماكنَ العبادة للصلاة ودراسةِ النصوصِ الدّينيّة على وجه التحديد.

رغم قلّة الأدلّة على أنَّ الاعتقاد السائد بأنّ "النّساء أكثر تديناً من الرِّجال" ينطبق على النّساء العربيّات، والمسلمات منهنَّ تحديداً، إلّا أنّه يجدر بنا النظر في الفروق المحتملة بين العوامل التي تجذب الرِّجال والنساء نحو الدّين، والدورِ الذي يلعبه الدّين في حياتهم. ونكرّر هنا أنَّ معظم البحوث والنظريات تتعلّق بالمرأة في الغرب؛ ولكن من السّهل أنَّ نرى كيف أنَّ بعضاً منها قد تكون ذات صلة بالدول العربيّة.

فعلى سبيل المثال، قيل أنَّ مشاركة المرأة في الدّين قد يؤثر في دورها المنزليّ، وتقول أحد الأفكار أنَّ الأمهاتِ، باعتبارهنّ يقضينَ معظم وقتهنّ مع الأطفال، سيكنَّ مسؤولاتٍ عن غرس القيم الأخلاقية فيهم؛ وأن تكون مثالاً لأبنائها في الممارسات الدّينيّة. وهناك فكرة أخرى تقول بأنّ النّساء اللاتي يقضينّ معظم وقتهنَّ في المنزل "قد لا يجدنَ أنفسهن في مواقفَ تدفعهنَّ للتفكير بشكل نقدي" بخصوص معتقداتهنَّ الدّينيّة. أمّا الفكرة الثالثة فتقول أنَّ الدّور التقليديّ للمرأة، كالولادة والعناية بالأطفال والمرضى والمحتضَرين من الأقارب، يضعهنَّ "في علاقة مباشرة مع مشاكل الحياة والموت"؛ ممّا يؤدي ببعضهن للبحث عن الرّاحة النفسيّة في الدّين.[8]

ويبدو أنَّ لعامل "الرّاحة النفسيّة" الذي يوفّره الدّين أهميّةً خاصةً بين الفئات الاجتماعية المهمَّشة، بما في ذلك الأقلياتُ العرقيّةُ والنساءُ. وفي ذلك يقول "ميلاني بروستر Melanie Brewster ":

> "قد يداوي التديّن مشاعرَ الإحباط والخوف والقلق، ولكنَّ أعراضَ الكرْب هذه ناتجةٌ عن التّهميش والتّمييز والتحيّز المتفشيّة في المجتمع، وليست سمةً من السِّمات الفطريّة في الإنسان؛ وقد وجدتِ الكثيرُ منّ الدّراسات أنَّ مَنْ ينتمون إلى جماعاتٍ مضطهَدةٍ اجتماعياً يلجؤون إلى مجتمعاتِهِمُ الدّينيّة طلباً للدعم والمساندة ..."[9]

ويرى "بروستر" أنَّ الرِّجال أقلُّ حاجةً لهذا النوع من الدعم بسبب وضعهمُ المميّز نسبياً.

في بلدان كمصر ولبنان، حيث لا يُعتبَر تغيير الشخص لدينه أمراً مخالفاً للقانون وحيث التنافس بين الطّوائف قويّ، قد يسبّب تغيير النّساء لدينهنَّ مقارنة بالرجال – سواء كان فعلياً أو مجرَّد شائعات – جدلاً أكبر، ففي العام 2012 اختُطِفَ كاهنٌ مسيحيٌّ تحت تهديد السلاح في منطقة البقاع في لبنان لتعميده امرأةً شيعيّةً هربت من منزلها بعد اعتناقها المسيحيّة، وقدِ اتَّهَمَ كلّ طرفٍ الطرفَ الآخر بالإساءة، وقال رئيس أساقفةٍ لبنانيٌّ للصحافة أنَّ والد المرأة، وهو رجلُ دينٍ شيعيٌّ، قد أخضعَ ابنته للتعذيب الجسديّ والنفسيّ لاعتناقها المسيحيّة. أمّا والدها فقد صرّح على شاشة التلفزيون المحليّ أنَّ الرهبان والكهنة قد "مارسوا السحر والشعوذة" على ابنته لكي تعتنق المسيحيّة.[10]

إنَّ قصصاً من هذا القبيل لا علاقة لها بالدّين نفسه، ولكنّها تكشف الكثير من المواقف تجاه المرأة؛ حيث يتمّ توسيع المفاهيم القديمة عن الأسرة وشرف القبيلة ويتم تطبيقها على الدين. ولابدّ من فرض حراسةٍ مشدّدةٍ على المرأة باعتبارها مستودعاً للفضيلة، خاصةً أنَّ الأديان الأخرى، برأي البعض، تحاول إغرائها لتغير دينها.

وفي سنة 2010 اندلعتِ المظاهراتُ في مصرَ واستمرّت أسابيع عدة؛ وذلك على خلفيةِ قضيةِ كاميليا شحاتة، وهي زوجة كاهنٍ قبطيٍّ أُشيعَ أنَّ الكنيسة القبطية الأرثوذكسية أودعَتها السجنَ لاعتناقها الإسلام. بدأتِ القضيةُ عندما أبلغ زوج كاميليا عن اختفائها، ليتّضحَ لاحقاً أنّها تركتِ المنزلَ بسببِ خلافٍ مع زوجها؛ ورغم ذلك سرَتْ شائعةٌ تقول أنّها اختُطِفَتْ وأُجبِرَتْ على اعتناق الإسلام؛ ممّا دفع المئاتِ من المتظاهرين الأقباط إلى النزول إلى الشوارع. كشفتْ تحقيقاتُ الشرطة أنّها لم تُحْتَجَزْ رغماً عنها، وقيل أنّها بقيت في مكانٍ خاصٍّ بالكنيسةِ القبطيّةِ لم يُكْشَفْ عنه. أثار ذلك شائعاتٍ واحتجاجاتٍ جديدةً، وهذه

المرّة من قبل المسلمين الذين يؤمنون أنَّ كاميليا أسلمت بملء إرادتها وأنها اُحْتُجِزَتْ من قِبَلِ الكنيسة؛ وتعليقاً على هذه القضيّة، كتب "ماريز تادروس Mariz Tadros ":

"من البديهيّ في المجتمعاتِ الذكوريّة أنَّ تُربَطَ مفاهيمُ الشرف بالنساء، فمظاهرات المسيحيين الأقباط في صعيد مصر على خلفية "اختفاء" كاميليا أجّجها الشعورُ بأنّ الأقباطَ قد خسروا زوجةَ القسّ لصالح الأغلبيّة المسلمة التي يرون أنّها مصممة على ابتلاعهم. دائماً ما ترتبط ظاهرة الاختطاف في مصر بالمرأة، وليس بالرجل؛ حيث يُعتقدُ أنَّ سبب الاختطاف هو إجبارها على تغيير دينها.

وحين اندلعت مظاهرات المسلمين بعدها، وعمَّتْ أنحاء مصر، كانت تُغذيها الرغبة في تحرير كاميليا، والتي زعموا أنّها ارتدتِ النّقاب، من براثن الكنيسة.

وكانت المظاهرات تطالب بالدّفاع عن شرف المسلمين فهو حق لهم؛ وكاميليا في نظرهم أختٌ لهم في الإسلام. لم يسبق أنَّ شارك عددٌ كبيرٌ من النّساء المنقّبات في مظاهراتٍ احتجاجيّةٍ كتلك.

تحصل بالتّأكيد وبشكلٍ متكرر توتّراتٌ واشتباكاتٌ طائفيّةٌ من أجل الأرضِ، ودورِ العبادة، أو بسبب تعليقاتِ الزعماءِ الدّينيّين، لكنْ لم يسبق لهذه التوتّرات أنَّ ألهبتْ خيالَ المسيحيين والمسلمين كما هو الحال عندما تتولد بسبب المرأة في هذا المجتمع الذّكوريّ الخالص."[11]

في السودان، أُدينت مريم إبراهيم البالغة من العمر 27 عاماً بالرّدة، وحُكِمَ عليها بالإعدام. وفقاً للعُرْفِ السائدِ هناك. أعطتها السّلطاتُ السّودانيّةُ فرصةً لتعودَ عن قرارها؛ لكنّها رفضت قائلةً أنّها لم تُقْدِمْ على شيء لتتراجع عنه. لم تكن هذه الحالةُ مرتبطةً بالدّين، بل بهيمنة الذّكور على المجتمع وبالطائفيّة وبالشجار العائليّ.

كان والد مريم مسلماً، وقد غاب عنِ البيت منذ كانت في السادسة من عمرها، وربَّتها والدتها كمسيحيّة. في السودان، بموجب الشّريعة الإسلاميّة، يرث الأبناء دين الأبِ، وبالتالي تمّ تصنيف مريم رسميّاً على أنّها مسلمة، ممّا يعني أنّها كانت مرتدّة في عُرْفِ الشريعة الإسلاميّة لأنّها تخلّت عن الإسلام لتعتنقّ المسيحيّة.

وفي سنة 2011، قيل أنّها ارتَكَبَتْ "جريمةً" أخرى بزواجها من رجل مسيحيّ، وهو أمرٌ غير مشروعٍ لامرأة مسلمة، فحُكم عليها بالإعدام، كما أَعلنتِ المحكمةُ بطلانَ زواجها؛ وبالتالي جُلدت 100 جلدة لممارسة الجنس خارج إطار الزواج. لم ينفذ فيها حكم الإعدام على الفور لأنّها كانت حاملاً في ذلك الوقت، وتمّ إرسالها إلى السجن مع ابنها البالغ من العمر 20 شهراً؛ وقد أنجبتْ طفلها الثاني في السّجن، وتقول بعض الرّوايات إن ساقيها كانتا مقيدتين بالسلاسل حينها.[12]

أتت مقاضاة مريم بتحريضٍ من أخيها وأختها غير الشقيقين لدوافع ليست واضحة تماماً، فقد ادّعى أخوها غير الشقيق، السّماني الهادي محمَّد عبد الله، أنَّ زوجها قد مارسَ عليها السحر لتتخلّى عنِ الإسلام من خلال منْحِها جرعةً سحريّة. وقال لقناة CNN: "أمامها خياران: إمّا أنَّ تعود إلى ديننا الإسلامي وإلى أحضان العائلة، فنحن عائلتها وهي منّا، أو ينفذ فيها الحكم وتُعدم إنَّ رفضت."[13] ووفقا للمحامين الذي كُلِّفوا بالدفاع عنها، كانت مريم تملك العديد من الشركات الصّغيرة النّاجحة، كصالونُ حلاقةٍ وأراضٍ زراعيّةٍ ومتجرٌ، وأضاف هؤلاء أنَّ أقاربها كانوا يطمعون في الاستيلاء عليها.

وبعد كثيرٍ من الضّغط من كثير من الدول – فزوجها قد حصل على الجنسيّة الأمريكيّة – نقضت محكمة الاستئناف أخيراً الحكمَ الصادرَ بحقها، وأُطْلِقَ سراحها؛ لكن بعد فترة وجيزة أُعيد اعتقالُها في مطار الخرطوم مع زوجها وأولادها، بينما كانوا يحاولون مغادرة البلاد بتهمة وجود مشاكل في وثائقِ سفرهم.

وقد قيل مرةً أخرى أنَّ اعتقالهم في المطار جاء بتحريضٍ مِنْ أقارب مريم المسلمين؛ فقد صرّح أخوها غير الشقيق لصحيفةٍ سودانيّةٍ أنّه كان ينبغي تسليمها إلى عائلتها لا لزوجها، وزَعمَ أنّها قد "اخْتُطِفَتْ" وتمّ تهريبها رغماً عنها بعد خروجها من السجن. وأضاف: "عائلتنا غير مقتنعةٍ بقرار المحكمة بإسقاط التُّهم الموجّهة ضدّها. لقد أخفق القانون في الحفاظ على حقوقنا، وأصبحتِ المسألةُ الآن مسألةَ شرفٍ. فالمسيحيّون لوّثوا شرفنا، ونحن نعرف كيف ننتقم لذلك."[14]

بعد الإفراج عنها للمرة الثّانية، طلبت مريم اللجوء إلى السّفارة الأمريكيّة، ووصلت في نهاية المطاف إلى الولايات المتّحدة.

إنَّ الاتهاماتِ الموجهةَ إلى النّظام الذكوري موجودةٌ في الجانب الآخر أيضاً، أيْ بين غير المؤمنين؛ ففي الولايات المتّحدة تحديداً، كانت هنالك شكاوى منْ أنَّ الإلحاد شيءٌ خاصٌّ بالرّجال إلى حدّ كبير، وهو

ادِّعاءٌ لا يخلو من بعض الحقيقة، لكن ليس بالقدر الذي يتصوّره النّاس، فهناك من يلقي باللوم على وسائل الإعلام لتركيزها وبشكل حصريّ على مجموعة للرِّجال يطلق عليها اسم "الملحدون الجدد." تشكّل النّساء نحو 40% من الأميركيّين ممَّن قالوا إنّهم بلا انتماءٍ دينيّ رسميّ، وهي نسبة كبيرة،[15] كما أنَّ هنالك نساء ناشطات، لا مجرَّد ملحدات سلبيّات، ففي مقال نشرته مجلة Bitch، كتبت "فيكتوريا بيكيمبس Victoria Bekiempis":

> "لقد عملت نساء كثيرات كناشطات ملحدات، كمادلين مواري أوهير Madalyn Murray O'Hair مؤسِّسةُ منظّمة الملحدين الأمريكيّين،[16] والتي رفعت دعوى أمام المحكمة العليا، وضعت من خلالها حدّاً للصّلاة في المدارس العامة سنة 1963، والرقيب "كاثلين جونسونKathleen Johnson " التي أسَّست منظّمة للملحدين في الجيش الأمريكي، وأيضاً "ديبي غودارددDebbie Goddard " التي أسّست منظّمة نشاطاتٍ إنسانيّةٍ للأمريكيّين من أصلٍ أفريقيّ.
>
> وقد ألّفنَ الكتب، وترأسْنَ المنظّماتِ، ودافعنَ عن المواطنين المقموعين دينيّاً، لكنّ الصورة الشائعة للإلحاد في أمريكا تبقى محطَّ جدلٍ، حيث يُنظر إلى الطبقة المعاصرة، صاحبة التفكير الحرّ، والتي لا تخاف الله – والمعروفين أيضاً بالعلمانيّين أو المشكّكين أو غير المؤمنين – على أنَّ غالبيتهم من الشّباب من محبّي الاستعراض."[17]

تعتبر "إرنستين روزErnestine Rose" المولودة في بولندا سنة 1810 إحدى أولى النّساء الملحدات المدافعات عن حقوق المرأة، والتي فازت في معركة قضائية لإنقاذ نفسها من زواج لم ترغب به؛ كان قد رتّب له والدها الحاخام اليهودي بينما كانت لا تزال في سنّ المراهقة، وواصلت نشاطها في بريطانيا والولايات المتّحدة في وقت لاحق. تقول "جين مكرايت Jen McCreight"، التي ذكرتْ عدداً كبيراً من الملحدات الناشطات حينها في مقال لمجلة Ms Magazine: "لا يمكن إنكار أنَّ عدد الرِّجال يفوق عدد النّساء معظم الوقت، سواءً من ناحية حضور المؤتمرات، أو على مستوى المتحدثين في المؤتمر، أو من قُرَّاءِ المدوّنات ومؤلفي الكتب الأكثر مبيعاً" لكنّها تضيف: "ومما يزيد هذه المشكلة امتناعُ وسائل الإعلام عن ذكر أسماء النّساء الملحدات البارزات حتّى في المنشورات التي تدافع عن حقوق المرأة، وتتساءل أين كلّ النّساء الملحدات."[18]

ويرى البعض أنَّ النّهج العدوانيّ الذي تبناه "الملحدون الجدد" والقائل بوجوب محاربة الدّين بدلاً من التسامح معه يعطي صورة ذكوريّة قد لا تروق للنّساء؛ إلّا أنَّ "مكرايت" ترفض هذا الرأي حيث تشير إلى عدد من النّساء الملحدات اللاتي "كان صرير أسنانهن أعلى صوتاً حتى من ريتشارد دوكينز وكريستوفر هيتشنز."

وبالطبع كان المفكرون الملحدون في التاريخ العربي – ممَّن لا زالوا يُذكَرون إلى يومنا هذا – من الرِّجال؛ إلّا أنَّ وجود النّساء في موجة الإلحاد الجديدة في الشّرق الأوسط أمرٌ يمكن ملاحظته ولو بنسبة قليلة. تقول مريم نمازي، وهي إيرانيّة المولد وعضو في مجلس المسلمين السّابقين في بريطانيا، أنَّ منظّمة المسلمين الأمريكيّين السّابقين أسّستها امرأة، وأنّ مثيلتَها الألمانيّة تترأسها امرأتان، وأنّ لمجموعتها البريطانيّة متحدثتان رسميّتان من النّساء، لدرجة أنّها قالت: "أنا شخصيّا أعتقد أنّها منظّمة للنّساء." وتضيف قائلةً:

> "إذا نظرتَ الى الاحتجاجات في الشّرق الأوسط فستجد النّساء في طليعة الكثير منها، فالكثير منهنَّ ينتمين إلى المفكرين الأحرار حتى لو لم يطلقن على أنفسهم تسمية الملحدات.
>
> أعتقد أنَّ المشكلة تكمن في أنَّ النّساء غير ظاهرات في الحركة الإلحادية في الغرب؛ فلو ذهبتَ إلى اجتماعاتِ الملحدين فلن ترى إلّا الذّكور البيض. أنا أكره استخدام هذه المصطلحات لأنني أكره تقسيم النّاس بهذه الطريقة، ولكنّي أعتقد أنَّ القيادة الشعبيّة بحاجة إلى بعض الوقت لتظهر... لا ضير في أنْ تكون القيادة ذكوريّة ومن البيض، ولكنّ المشكلة في أنَّ النّاس الآخرين (أي النّساء) غير موجودين في هذه الاجتماعات.
>
> نحن ننظّم مؤتمراً، والغالبيّة العظمى من المتحدثين هم من النّساء الملوّنات، أي من الشّرق الأِوسط وشمال أفريقيا ومن خلفيّات مهاجرة هنا في الغرب، هؤلاء النّساء يقمن بعمل مدهش ولكنكم لا تعرفون شيئاً عنهن... لم نكن نعرف شيئا عنهن لأنهن يعملن على المستوى الشعبي وغالباً ما يكون من الصعب جدا علينا أنَّ نراهن."[19]

وتضيف نمازي أنّه من بين ستة وأربعين متحدثا رسمياً في المؤتمر، كان هنالك تسع وعشرون امرأة وسبعة عشر رجلاً.[20]

أمّا "ريتشارد دوكينز" فيقول: "هنالك عدد كبير من الملحدين الذين عليهم إعلان إلحادهم، وذلك تأييداً منه لحملة سُمِّيَتْ The OUT Campaign والتي أطلقت سنة 2007 لحث الملحدين، خاصة في الولايات المتّحدة، على إعلان إلحادهم من خلال ارتداء شارة حمراء على شكل حرف "A".[21] لم يكنِ استخدامُ الملحدين لمصطلح "الإعلان أو الظهور" لوصف إعلان إلحادهم صراحةً من قبيل المصادفة، فالمثلية الجنسية والإلحاد هما من الأشياء التي يفضّل النّاس إبقاءها طيّ الكتمان، ويُعتبران في المجتمع العربي من المحرّمات الاجتماعية وقد يرقيان إلى مخالفة قانونيّة.

يرتبط الإلحاد والمثلية الجنسية بطرق أخرى أيضاً، ففي الولايات المتّحدة أظهرتْ إحصاءات جمعها المسح الاجتماعي العام[22] أنَّ احتمالية إعلان الأميركيّين مثليي الجنس أنهم ملحدون أو لاأدريون هي ثلاثة أضعاف نظيرتها بين الآخرينَ[23]، وأن 62٪ من الأشخاص المثليين والمتحولين جنسياً في الولايات المتّحدة يرون بأن الدّين ليس جزءاً هاماً من حياتهم،[24] ومردّ ذلك أنَّ النّاسَ الذين تجرّم التعاليمُ الدّينيّةُ حياتَهم الجنسيّة من المرجّح أنَّ يبدأوا بطرح أسئلة حول الدّين ممّا يقودهم بدوره نحو الإلحاد.[25]

إنَّ الممارسات الجنسيّة المثليّة غير قانونيّة في معظم الدول العربيّة، وعندما لا توجد قوانين محدّدة، يكون هنالك قوانين أخرى يمكن تطبيقها كالقانون المصريّ ضدّ "الفجور"، وكون الشخص مثليّ الجنس ليس جريمة بحد ذاته – إلّا في حال تضمّن الأمر ممارسة الجنس– إلّا أنَّ بعض الأشخاص اعتُقِلوا لسلوكهم المخنّث وتمّت مداهمة حفلاتِ أقامها المثليون. يُعاقب من يمارس اللواط في البلدان العربيّة بالسجن عادةً، لكن العقوبة في موريتانيا والمملكة العربيّة السعودية والسودان واليمن هي الإعدام. على العموم، ورغم القمع في بعض الأحيان وميل القانون إلى كونه تعسفياً واعتباطياً، فإنّ السلطات لا تسعى لملاحقة مثليّي الجنس وتقديمهم للمحاكمة بشكلٍ ممنهجٍ؛ وذلك لأنّها ترى أن الشّذوذ الجنسيّ غير موجود بدرجة كبيرة في الدول العربيّة، ويُنظَر إليه على أنّه "مَرض" غربيّ أساساً؛ لكن في عراق ما بعد صدام حسين قامت جماعات الاقتصاص في كثير من الأحيان بمضايقة وحتى قتل المتّهمين بالمثلية أو قلّة الصّفات "الذّكورية."[26]

إنَّ التعاليم الإسلاميّة التقليديّة تجرّم المثليّة الجنسيّة، كما تتبنّى الكنائسُ المسيحيّةُ في المنطقة عموماً موقفاً مماثلاً. وغالباً ما يُنظر إلى هذا الأمر على أنّه "خَيار" وبالتالي خيار خاطئ، إلّا أنَّ البعض يعتبرونه مرضاً عقلياً، ربما لإظهار بعض التعاطف. ويبدو أنّه لم يُفرَض عقاب على المثلية الجنسيّة أثناء حياة النبيّ محمَّد، لذلك فإنّ اجتهادات الشريعة عادة ما تعاملها معاملة الزّنا.

اعتمد استنكار الإسلام للمثلية الجنسيّة بشكلٍ كبيرٍ على أحاديث الرسول وذلك أنَّ القرآن لم يأت على ذِكر هذا الموضوع في مواضع كثيرة، وأمّا من يستشهد بالقرآن فيركّز بشكلٍ أساسي على قصة النبيّ لوط الذي ذُكر في الإنجيل، حيث ورَدَ في سفر التكوين أنَّ الله لجأ إلى معاقبةِ قومي لوط وعمورة بأن أمطرهم بحجارة من السماء، وهي نفس القصّة التي ورَدَتْ في القرآن تقريباً.

وقد دأب المسيحيّون والمسلمون على حدّ سواء على تفسير القصّة كنوع من العقاب الإلهيّ للمثلية الجنسيّة، غير أنَّ القراءة المتأنيّة لهذه القصّة تبيّن أنّها أكثر تعقيداً من ذلك، فقد شمل العقاب ذنوباً عدة، كما أنّه لم يكن هنالك توافق بهذا الشأن؛ حيث يشكك المسيحيون من خارج منطقة الشّرق الأوسط وبشكل متزايد بهذه التّفسيرات التقليديّة، على عكس المسلمين الذين نادراً ما يشكّكون بها رغم التّشابه الكبير بين القصص التي يرويها كلّ من القرآن والإنجيل بهذا الخصوص. يقول "سكوت سراج الحق كوجل Scott Siraj al-Haqq Kugle" في كتاب يدرس الأدلّة الواردة في الإنجيل إنَّ الإسلام لم يحرّم المثلية الجنسيّة تحريماً قطعيّاً بل إنّه يدعو إلى المزيد من قبول التنوع في الدّين، وهذه بلا شك وجهة نظر إصلاحيّة تقابلها دعوة بعض مناصِرات المرأة المسلمات إلى إعادة قراءة القرآن بطريقةٍ أقلَّ ذكوريّة.[27]

في الدول الغربيّة، حيث لا تتّسمُ الكنائس كلّها بالعدوانيّة، فإنّ المثليّين والمثليّات وثنائيي الجنس والمتحولين جنسياً يَصِلُون في بعض الأحيان إلى تسوية بين حياتهم الجنسيّة والدّين ولكن التعليم الدّينيّ الحاليّ في الدّول العربيّة يجعل ذلك أكثر صعوبة. يقول حسن، وهو بحرينيّ مثليّ الجنس: "هنالك نصوصٌ دّينيّةٌ تدين مثليّي الجنس ولكنّها تدفعك للشعور بأنّ ما هو مكتوب فيها ربما لا يكون من عند الله؛ فلماذا خلق الله بعض النّاس مثليّين جنسيّاً، إذا كان ذلك محرّماً؟ هل يجب أنَّ أعيش حياة عازبة ابتغاءً لمرضاته ثم أنال الجنة؟" وعندما أعلن حَسَنٌ إلحاده أخيراً؛ حصل ما توقعه، وهو أنَّ ميوله الجنسيّة تم تقبُّلها بشكل أكبر من قبل الأفراد الأقل تديناً في عائلته، فيقول في ذلك: "لأنَّ والدِي وأخي وأختي ليسوا متدينين فقد تقبلوني، لكنّي لم أشأ أنَّ أخبر أمي لأنّها محافظة جداً ولا أعتقد أنّها ستتقبل الأمر برحابة صدر."

إنَّ الذين يصارعون بسبب ميولهم الجنسيّة أو يتهيؤون للإعلان عنها غالباً ما يكونون بحاجة إلى الدعم والمساندة، وهو نوع من الدعم يُفترَضُ أنْ يوفره الدّين في ظروف مختلفة. وهذا يشير إلى واحد من الاختلافات الرئيسية بين النّساء من جهة والمثليين جنسياً، وثنائيّي الجنس، والمتحولين جنسياً من جهة أخرى في علاقتهم مع الدّين، ففي حين أنَّ النّساء قد يجدنَ بعض الارتياح في تركهن للدين – وإنْ أدى

ذلك إلى تعرّضهن للقمع في الوقت ذاته – لا يجد المثليّون العرب هذه الراحة، فبدلاً من التعاطف معهم وتفهمهم يتم مقابلتهم بالإدانة.

أمّا في حالة حسن، فهو لم ينقلب على الدّين بكافة أشكاله، بل دفعه ذلك – أي ميوله الجنسيّة – إلى استكشاف إمكانيات "روحانية" أخرى، فيقول: "عندما تمر بأوقات عصيبة، تلجأ للبحث عن إجابات روحيّة أو أيّ شيء يعطيك الأمل." لقد كان يدرس في الهند عندما أعلن عن ميوله الجنسيّة، ويقول أنّه وجد بعض الرّاحة في بعض الأفكار البوذية، أفكار ليست من قبيل التقمص بل أفكار مثل عدم الثّبات، والمحبة واللطف والرّحمة."

إنَّ إحدى الطرق التي يتّبعها مناصرو النّساء ومثليّو الجنس من الرِّجال للتصالح مع الدّين هي من خلال ما يطلِق عليه علماءُ الاجتماع "مرونة الإيمان" التي هي في جوهرها عبارة عن إعادة تشكيل المفاهيم التقليديّة عن الله والإيمان بما يناسب احتياجاتهم. "طارق سيد رجب دي مونتفورت"، وهو فنان كويتي المولد ومثلي جنسياً، يصف نفسه بالمتديّن، ولكن بطريقة غير تقليديّة، وهو ما يبدو واضحاً للوهلة الأولى حيث وشَمَ حنجرته بكلمة "الحقيقة" وكتب آيات من القرآن على أجزاء أخرى من جسده.

إنَّ أول اتصال له مع الإسلام لم يكن من خلال المسجد كما هو متوقع، ولكن من خلال متحف عائلته، "متحف طارق رجب"، الذي أسّسه جدّه، ويحتوي على أكثر من ثلاثين ألفَ تُحفةٍ من مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

يقول طارق: "لم أشعر يوماً بالحاجة للذهاب إلى المسجد فعندنا أغطية للكعبة في المتحف.[28] لدينا ثلاثة منها من القرن التاسع عشر حين كانت لا تزال تُصنع في القاهرة بكثير من الزخرفة، وأوجه هذه الأغطية مطرزة بالذهب والفضة بشكل كامل، إنّها مدهشة بالفعل، ولدينا أيضاً واحدة من أكبر المجموعات من كتب الإنجيل المكتوبة بخط اليد على ورق الرق في الشّرق الأوسط، ونُسَخٌ من القرآن مكتوبةً بخطّ اليد من القرن التاسع عشر؛ ولذلك كان الله حاضراً بقوة، ولكنّ حضوره ذاك كان مجرَّداً وخفيّاً إلى حد كبير."

كان جدُّ طارق ومقتنياته الفنيّة هم من ألهموه الفكرة الأولى عن ماهيّة الدّين، وهي أنه جاء من تقديس الجمال. يقول طارق: "لقد وفّر لي ذلك الأساسَ كلَّهُ لأفهَمَ الفنّ الإسلامي. لقد رأيت كيف تتجلى كلمات الرسول: "إنّ الله جميل يحبُّ الجمال."[29] كانت تجربةُ طارق الآخذة بالنمو غير عادية؛ وربما فريدة من

نوعها، وأعطته وجهة نظر أكثر إيجابية بكثير من تلك التي يحصل عليها النّاس من خلال الاستماع إلى الخطب في المساجد، كما أنّها جعلته ينتقد الإسلام التقليدي السائد.

يضيف طارق: "أنا لا أقصد الإساءة، ولكنّ رأيي هو نتيجة محزنة لما كان من المفترض أنْ يكون عليه الإسلام... فالنبيّ سيصاب بالذهول لو رأى ما تحول الإسلام إليه اليوم. يرى طارق أنَّ له الحق في التعبير عن هذه الآراء لأنه من سلالة النبيّ على حد زعمه.

يضيف طارق قائلاً: "أشعر أنَّ هنالك صنفين متناقضين من النّاس تجاه الدّين اليوم، الصنف الأول يتقبل الدّين تقبلاً كلياً، أي يؤمنون بمبدأ "عليك القيام بذلك،" وهذه قمة اليقين والعقيدة، ولا أصِفُ ذلك بالسلبية ولا الإيجابية." أمّا النوع الآخر فيرفضون الدّين رفضاً كلياً ويتحولون إلى الإلحاد؛ ولكن هنالك آخرين كان لهم تجربة مختلفة مع الدّين إلى درجة أنَّ بعضهم تحول إلى عبادة الشيطان، إلّا أنَّ طارق يقول أنَّ هذه ليست "عبادة الشيطان الحقيقية" لكنها "النسخة الهوليوودية."

يزعم طارق أنَّ هنالك اهتماماً متزايداً، لكنه خفيّ، في الكويت بالبوذية والتي، باعتبارها ديناً غير توحيدي، تلقى قبولاً أقلَّ من الإسلام أو اليهودية أو المسيحيّة. يقول طارق:

> " وقعتُ مرةً في ورطة في مدرستي لأنّي تحدثت عن الهندوسية والبوذية. لا أعرف ما إذا كان يمكنني القول أنَّ هذا من المحرمات؛ لكنه كذلك بالنسبة لبعض النّاس؛ إلّا أنني أرى الأمور تتغيّر وخاصّة بعد وجود شبكة الانترنت؛ ففي الكويت اليومَ هنالك "مراكز الاستشفاء" البوذيّة، كما أنَّ الأشخاص الذين يديرون هذه المراكز يسافرون حول العالم لحضور الأحداث البوذية لكنّهم لا يعلنون عن مراكزهم بأنّها بوذيّة بل يعلنون أنّها مراكز استشفاء أو منتجعات أو حتى مراكز لدروس يوغا. وكل ذلك حصل منذ فترة قريبة، وكل الأشياء تحدث الآن."

حتّى اللحظة لم يلفت هذا النشاط البوذيّ السّريّ انتباه السّلطات أو الشّرطة الدّينيّة، حيث يقول طارق: "أعتقد أنَّ هؤلاء لا يشعرون بالتهديد لأنَّ البوذية لا يتم ذكرها بالاسم، فالأمر برمّته يتمّ تصويره على أنّه متعلق بالصّحّة فحسب. إنَّ المطوّعين، أو الرِّجال الضخام الملتحين، وبحكم نمط الحياة الذي يتبعونه ربما، لم يسمعوا عن المنتجعات (أو الينابيع المعدنية) أو أشياء من هذا القبيل."

ويضيف طارق أنَّ كونه مثليَّ الجنسِ لم يدفعه أبداً للشك في الدّين أو "بذلك الإحساس الإلهي" رغم أنّه أقرّ بأنّ الآخرين يمرّون بصدمة تجعل هذا الحس الإلهيّ "يضمحلُّ أو يتلاشى"، ويرى أنه لن تظهر هذه المشكلة إذا ما أخذ المسلمون بنصيحة الرسول بأن "يفكروا بأنفسهم". يضيف طارق قائلاً:

"أنَّ نقرّر شؤوننا بأنفسنا كما طلب النبيّ منّا... ولو أنَّ النّاس فعلوا ذلك، وقرأوا القرآن، فسيجدون من خلال الإسلام أشياءَ جميلة لا تتّفق مع فكرة أنَّ المثليّة خطيئةٌ، أو أنّ ارتداء الحجاب واجب، فالأمر برُمّته متعلّقٌ بالتفسير، ولو أننا نأتمر بأمر النبيّ، أي أنَّ نفسر القرآن على أنّه فيض من الرحمة، فسوف يأخذنا ذلك إلى شكل من الإسلام أكثرَ نقاوة، شكل لا أرى فيه أنَّ المثليّة الجنسيّة ذنْبٌ يعاقب عليه.

وبما أنَّ النبيّ محمَّد هو المسلم المثالي وقدوة الجميع، فلا توجد أحاديث تُدين أيَّ رجل مثليّ الجنس؛ وهناك إشارات إلى أنّه سمح للرجال المثليّين أنْ يروا زوجاته وهن مكشوفات الوجه، كما أنَّ القرآن يقول أنَّ باستطاعة الرِّجال الذين ليس لديهم رغبة بالنساء أنَّ يروهن (أي زوجات الرسول)."[30]

في عام 2013، أعلن سعيد كياني أنّه مثليّ الجنس وملحدٌ في تدوينة نشرها على الإنترنت. وهذا مقتطف ممّا كتبه:

"بدأ الأمر عندي حين ولِدتُ، فأنا لست عربيّ المولد بشكل خالص، حيث أنَّ والدي من الإمارات العربيّة المتّحدة ووالدتي من ولاية ألاباما في الولايات المتّحدة الأمريكيّة، وصنّفني البعض بأنّي "مختلف". لم أستطع أنْ أتكيّف مع الأمر، لقد غيّر كوني مثليّ الجنس ديناميّتي منذ البداية. لم أكن أميركياً خالصاً، أو عربيّاً بحقّ، ولا حتى "رجلا حقيقياً."

وَقعَ الحدث الأبرز في حياتي بينما كنت أعيش مع عائلتي في ولاية فلوريدا، عندما كنت في الصفّ السّادس كان يعتريني الارتباك والحرج الشديدان وأنا أبذل قصارى جهدي لأكون مسلماً وابناً صالحاً؛ ثم جاءت أحداث الحادي عشر من أيلول.

ومنذ ذلك الحين لم تعد الحياة ذاتها ما كانت عليه في الولايات المتّحدة، ولأن والدتي ترتدي الحجاب فقلمّا يمرّ يوم دون أنَّ يحدق النّاس بها، كانت نظراتهم تقول "أنت

خائنة"، لقد فقدتُ أصدقائي، وسخر النّاس من معتقداتي أمامي، وراح النّاس يتعاملون مع أُسرتي بجديّة أقلّ. بدأ شعور "بالغربة" يطفو على السطح نابعاً من داخلي، إلّا أنّني دافعت عن الإسلام بقدر ما استطعت كوني كنت فتىً مسلماً صالحاً.

وهذا أمرٌ مهم لأنّها المرة الأولى التي أدركتُ فيها أنَّ الدّين يمكن أنَّ يكون له تفسير مختلف. لسوء الحظ كان والداي لا يساعداني كثيراً في توضيح الأمور لي، فكل ما كانا يقولانه لي هو أننا على حق وهم على باطل.

وبعد ذلك بعام انتقلنا إلى الإمارات العربيّة المتّحدة بعد أنَّ أَنهى والدي دراسة الدكتوراه في علم النفس... لم يتساءل الكثير من النّاس عن سبب عدم مصادقتي لأية فتاة وقد كنت أبلي بلاءً حسناً في المدرسة، وبالكاد أعيشُ حياة اجتماعية. ظلّ الأمر هكذا حتى تعرفت على أول صديق مثلي الجنس، وحالما عرف النّاس بصداقتنا بدأت الشائعات تنتشر.

قال لي اثنان من الفتيان إنني بحاجة إلى الله، لكن المثير للسّخرية في ذلك هو أنّني كنت في هذه الفترة من حياتي أكثر تديناً من أية فترة أخرى. لقد دفعني الشّعور العميق بالذنب والألم إلى محاولة الرجوع إلى الله، لكن شعوراً بدأ ينتابني حينها بأنّ الله تخلى عني، ورحت أسأل الله لماذا يحدث هذا لي؟ أنا لا أريد أنَّ أشعر بهذا الشعور أكثر من ذلك. ساعدني لأكون طاهراً!

كنت أحاول أنَّ أعرف، من المنظور الإسلامي، ما الحكمةُ من خلق الله لي مِثليّا؟ لم أقتنع بفكرة أنّه يختبرني فحسب، فلماذا يُلحقُ الخالقُ مثل هذا الألم العاطفيّ بخلقه؟ ولماذا خلق الله المثلية الجنسيّة أيضاً وحرمها في الوقت ذاته؟

رغم أنّي بقيتُ مؤمناً رغم هذا كله، لكنّي كنت محطماً كلياً، فقد كنت أشعر بأنّي وحيد ومشوّش الذّهن ويتملّكني القلق حتى أنّي فكرت في الانتحار، خصوصاً بعد أنَّ سمعت ولعدة مرات كلاماً مهيناً من قبل ضدّ مثليّي الجنس.

وبعد أن قرأتُ عن الرِّدَّة في الإسلام، وكأنّي شعرت بضوء قد توهّج داخلي... هل يجب أنَّ يُقتل المرتدون؟ هل حقاً قال الله هذا؟ لا، لقد بدا الأمر أكثر من تخطيط البشر

لرحلتهم إلى الجنة. إنَّ تكتيكات مثل هذه كان لها غايات بشرية في العصور الوسطى. لماذا يأمر الله القدير والعليم بكلّ شيءٍ بقتل إنسان ضعيف مثير الشفقة لمجرد أنّه غيّر رأيه بخصوص وجوده؟

لقد تملكني الذهول والصّدمة عندما طرأتْ على مخيلتي هذه الأفكار، وشعرتُ وكأن وزناً كبيراً قد أُزيل عن كاهلي عندما تمكنت أخيراً من استجماع ما يكفي من الشجاعة لأقول لنفسي: "أنا لا أؤمن بالإسلام."

بعد مرور بضعة أشهر قال كياني واصفاً ردود الفعل على منشوره في مدوّنته أنَّ أغلب النّاس يخافون الخوض في الحديث بهذه المواضيع علناً. إلّا أنَّ بعض الأصدقاء والمعارف العرب عرضوا تقديم الدعم وبدا بعضهم مهتماً بمعرفة المزيد كونهم لم يلتقوا قطّ بملحد أو مثليّ الجنس، في حين كان آخرون أكثر عدوانيّة وتعالياً، قائلين أنَّ كيّاني كان بعيدا كلّ البعد عن الواقع أو متأثراً بالغرب جداً، أو أنَّ لديه مشاكل عقلية أو نوع من المخططات ضدّ الإسلام؛ حتى أنَّ أحدهم قال أنّه كان ممسوساً (أو مسحوراً)؛ ويضيف أنَّ معظم هذه الآراء العدوانيّة جاءت من جيل الشباب في دولة الإمارات العربيّة المتّحدة.

كان كيّاني لا يزال غير متأكد ما إذا كان والداه يعرفان بشأن منشوره الذي أعلن فيه عن إلحاده وأنه مثليّ الجنس، لكنّه لاحظ تغيّراً كبيراً في سلوكهم تجاهه ممّا دفعه للشكّ بأنهم قرأوا المنشور، فيقول في ذلك: "لقد أعطوني المزيد من المحاضرات عن الزّواج والدّين؛ حتّى أنهم ضغطوا عليّ لكي أراجع طبيبا نفسياً بانتظام، لكن لحسن الحظ وقف المعالج النفسي إلى صفّي وكان سنداً رائعاً لي."

يرى كيّاني أنَّ الانتماء إلى أقليّة جنسيّة كان أحد العوامل التي أدّت إلى إلحاده، ولكن هنالك اعتبارات أخرى أيضاً حيث يقول: "لم تتوافق الكثير من المسائل في الإسلام، من حيث المنطق، مع ما أحمله من قيم كالإنصاف؛ فكثير من النّاس يتعرضون يومياً لأذى لا مبرر له نتيجة لبعض أوجه الدّين. لقد واجهتُ مشكلة كبيرة مع هذا ولم أكن أريد أي جزء منها، وكان من الأسهل لي أنْ أصل إلى هذه النتيجة كوني مثلياً." رغم أنَّ كيّالي لم يبد دهشة من الربط الإحصائي بين المثليّة الجنسيّة والإلحاد، إلّا أنّه يرى أنَّ هنالك اختلافاً كبيراً بين الاثنين حيث يقول:

"إنَّ كون المرء مثليّ الجنس يجعل من الصعب جداً تلبية ما يتوقعه منه المجتمع، لكن هذا لا ينطبق على الإلحاد، فيمكن للمرء أنَّ يتعايش مع مجتمع متدين وأنْ يكون ملحداً

بنفس الوقت، لكن الشّذوذ الجنسيّ ذو طبيعة بيولوجية، ولهذا السبب فإنه في نهاية المطاف سوف يظهر جلياً للناس الآخرين سواءً أحبوا أم كرهوه، وهذا لا ينطبق على الإلحاد لأنه من الأسهل إخفاء عدم الإيمان بالله أكثر من إخفاء العواطف تجاه الآخرين.

"وغني عن القول أنَّ المثليين والمتحولين جنسياً وثنائيي الجنس على مرّ التاريخ لم يكونوا في موضع ترحيب من قبل الأديان الإبراهيمية، ولكن هنالك أيضاً من هم مثليون وفي نفس الوقت متدينون. قد يكون هذا هو حال جزء من المثليين وثنائيي الجنس والمتحولين جنسياً، لكن بالتأكيد ليس جميعهم، فهم ككل النّاس متنوعون ولديهم نفس التعقيدات والاحتياجات والمخاوف والأخطاء لأي شخص آخر.

وفي المجتمعات المتديّنة يجب على هذه الفئة من الأشخاص إمّا الطاعة أو العصيان أحياناً، لكي يستمروا في البقاء، إلّا أنَّ غالبيتهم ينتهي بهم المطاف في المنطقة الرمادية، فيعيشون حياة مزدوجة. على سبيل المثال، لديّ صديق إماراتيّ ملحد ومثليّ سيتزوج قريبا من امرأة على الطريقة الإسلاميّة، وزواجه هذا ليس نابعاً من الإسلام بل هو ما تمليه عليه ثقافة المجتمع وعلى سائر الرِّجال الإماراتيين لكي يتجنّبوا وصمة العار الاجتماعية التي ستلحق به وبعائلته، كما أنّه سيمضي في خطته للزواج لكيلا تتضرر فرَصه في الحصول على وظيفة حكومية. وكذلك ينطبق هذا عليّ ولا تزال العواقب الاجتماعية على عائلتي تخيفني."[31]

الجزء الثاني: حماية الدين

الفصل السادس: امتيازات الدِّين

يصوم كلّ مسلمٍ بالغٍ في شهر رمضان من شروق الشمس إلى غروبها، ويُفترَضُ أنّ يهدف الصيام إلى ضبط النفس وتهذيبها، لكنه عندما يتمّ تحت التهديد بالاعتقال فإنَّه يصبح انصياعاً أكثر من كونه ضبطاً للنفس، فاستخدام القانون لضمان الصّيام يقوّض الغرض الأخلاقيّ من رمضان كما هو الحال في العديد من الدُّول العربيّة التي يهمّهما الحفاظ على المظاهر فحسب.

تتميّز دول الخليج بكونها الأكثر صرامة بفرض الصيام على النَّاس في شهر رمضان، والعقوبة الدّارجة هي السجن لمدة شهر أو دفع غرامة ماليّة أو كلاهما معاً، وينطبق هذا على الجميع بغض النّظر عن ديانتهم بذريعة أنّ رؤية شخص ما يفطر على الملأ تمثل إساءة للمسلمين حتى لو كان الفاعل غير مسلم، فمثلاً في الكويت حيث معظم السّكان هم من الأجانب، كما أنّ نسبة غير المسلمين فيها تبلغ نحو 20٪ من مجموع السّكان،[1] يجب على المطاعم والمقاهي أنّ تُغلَقَ أبوابها أثناء النهار، بينما يُسْمَحُ لمحلات السوبّرماركت أنّ تبقيها مفتوحة، وفي دبي تتمّ الإهابة بالعامّة للانتباه لأيّ شخص يأكل أو يشرب أو يدخّن حتى لو كان في سيارته الخاصّة وإبلاغِ الشرطة عنه؛ ووفقا لشرطة دبي، اعتُقل27 شخصاً بين عامي 2005 و2009 لأنهم أفطروا على الملأ، منهم أوروبيون غير مسلمين.

أمّا في مصر ذات الأقليّة الكبيرة المسيحيّة، فلا يوجد قانون يُلْزِمُ النَّاس بالصيام، ومع ذلك شنّتِ السُّلُطات حملة قمع سنة 2009، حيث اعتُقِلَ أكثرُ من 150 شخص في محافظة أسوان وتمّ إغلاق المقاهي والمطاعم في منتجع الغردقة الواقع على ساحل البحر الأحمر كما اعتقل سبعة شبان في منطقة الدلتا لأنهم ضُبِطوا وهم يدخّنون في الشارع وغُرِّم كلّ شخص بمبلغ 500 جنيه (أو ما يعادل 90 دولار أمريكي)، وقد بدا أنّ موجة الاعتقالات كانت من تدبير بعض ضباط الشرطة المتدينين، لكن السُّلُطات دعمت هذه الاعتقالات على أساس أنّ الإفطار هو شكل من أشكال "قلة الأدب" بحسب قانون العقوبات المصريّ، كما أيّد رجال الدِّين معاقبة أولئك الذين يفطرون في الأماكن العامة، وقد قال الشيخ عبد المعطي بيّومي، عضو مركز البحوث الإسلاميّة في الأزهر: "النَّاس أحرار بعدم الصوم، لكن في بيوتهم،

أمّا القيام بذلك في العلن فهو ليس مسألة حريَّة شخصيّة... بل ينمّ عن استخفاف بالصائمين وبشهر رمضان وبالصيام باعتباره واجباً دينياً إلزامياً."[2]

إنّ الاعتقال بسبب التجاوزات في رمضان أمرٌ يتكرر في الجزائر أيضاً رغم أنّ هناك نقاشاً عاماً عمّا إذا كان ينبغي اعتبار الصيام شأناً قانونياً أم متعلقاً بالضمير الشخصي. فقد اعتُقِل ستة من سكان بلدة "بسكرة" لتناول الطعام ولعب الورق خلال النهار في شهر رمضان سنة 2008 وتمّ تغريم كلٍّ منهم مبلغ 120 ألف دينار (1770 دولار أمريكي) رغم أنّ قاضي محكمة الاستئناف ألغى الحكم في وقت لاحق قائلاً أنّهم انتهكوا الأحكام الدستورية لحرية المعتقد. وفي قضية منفصلة أُدين ثلاثة رجال في الجزائر بالتدخين خلال شهر رمضان، وكانت عقوبتهم السجن لمدة ثلاث سنوات خُفِّضَتْ إلى شهرين بعد استئناف الحُكم. وفي سنة 2011 سُجِنَ مجموعة من عمال البناء لتناولهم الطعام خلال شهر رمضان رغم أنهم أكّدوا أنهم غير مسلمين. وعادة ما تحدث اعتقالات عند كسر النّاس للصيام في الأماكن العامّة، ولكن الحادثة الأكثر غرابة كانت دخول الشرطة الجزائرية منزلاً في مدينة "أقبو" بعد تلقيها بلاغاً واعتقلت شباناً كانوا يتناولون الطعام داخل المنزل.

أمّا في المغرب فقد شَرَعت "الحركة البديلة من أجل الحريات الفردية" في سنة 2009 بتحدّي المادّة 222 من قانون العقوبات التي تقول:

> "إن الشخص المعروف بأنّه ينتمي للدّين الإسلاميّ ويكسر الصيام في مكان عام خلال في شهر رمضان دون مبررات مقبولة يُعاقب بالحبس من شهر إلى ستة أشهر وبغرامة تتراوح بين 12 و120 درهماً (أو ما يعادل 1.5 –50 دولار أمريكي.)"

قرّرت هذه المجموعة التي تنظم نشاطها من خلال موقع فيسبوك تناول الطعام في نزهة في مكان عام مستشهدين بالدستور المغربي الذي يضمن الحريّة الدينيَّة لجميع المواطنين وبالمادة 18 من الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان، والذي وقّعت عليه المغرب، واختاروا غابة تقع خارج المحمدية للتقليل من مخاطر أنّ يُنظر إلى عملهم هذا على أنّه استفزاز، وكان هذا العمل أول احتجاج سُجل ضد قانون رمضان في البلاد. وَصفَ موقع أخبار مغربي ما حدث كما يلي:

> "كان الاجتماع في محطة قطار المحمدية على بعد أميال قليلة من الدار البيضاء. وقال سبعون شخصاً أنهم سيحضرون لكن استطاع اثنا عشر شخصاً فقط الوصول إلى

المكان بعد اختراق طوق من رجال الأمن، وقد قالت زينب الغزاوي، وهي صحفيّة، وإحدى مؤسِّسي الحركة مع ابتسام الأشقر وهي طبيبة نفسانية: "لقد فوجئنا بالوجود المكثّف لرجال الشّرطة". أكثر من مِائة ضابط، بما في ذلك الشرطة وقوات مكافحة الشغب وأفراد من الجيش، حاصروا المحطة ومحيطَها؛ وتقول الأشقر: "كان علينا أنّ نريهم حقائب الظهر وعندما شاهد رجال الشرطة الطعام الذي أحضرناه معنا أجبرونا على العودة إلى الدّار البيضاء على متن القطار التالي.

كما تصدّت قوات الأمن لمجموعات من الشّباب المحليّين الذين كانوا يحاولون مواجهة المفطرين... تضيف السّيّدة الغزاوي: كان هدفنا أنّ نظهر بأننا مغاربة لكن لا نصوم وبأن لدينا الحق في الوجود، ورغم أنّ الدُّستور المغربي يضمن حريَّة العبادة إلّا أنّه في كلّ عام هناك اعتقالات للمفطرين علناً.

تحدثت السّيّدة الغزاوي عن قضيّة مواطن اعتقل في مدينة فاس وسُلِّم إلى الشرطة من قبل حراس الأمن المدنيين في العام الماضي لأنّه شرب الماء في الشارع، لكن أفرج عنه بعد ساعات بعد أنّ حضر أهله وأكّدوا أنّه مصاب بداء السكري."[3]

أمّا في الجزائر فقد حدثت احتجاجات أكثر نجاحاً سنة 2013 على إثر استجواب قوات الأمن لثلاثة شبان لكسرهم الصيام. أغضبَ هذا الأمر سكّان مدينة تيزي أوزو، وهي مدينة ذات أغلبيّة بربريّة يغلب عليها الطّابع العلمانيّ نسبيّاً، وتاريخها حافل بالتّوتّرات مع الحكومة المركزيّة، فأقاموا مأدُبة غداء علنيّة في رمضان حضرها نحو 300 شخص. يقول بوعزيز آيت شبيب، وهو رئيس حركة الحكم الذاتي القبليّة المحليّة: "لقد دعينا إلى هذا التجمع للتنديد باضطهاد المواطنين الذين يُعتقلون بسبب معتقداتهم ورفضهم للصوم."

أنّ تجريم النَّاس لمجرَّد تناولهم الطعام في وضح النهار هو مجرَّد مثال بسيط عن الامتيازات الخاصّة التي تمنحها الحكومات العربيّة للإسلام، وهي امتيازات تتّسم بالتحيّز ضد أتْباع الأديان والمعتقدات الأخرى، وضدّ من لا معتقد لهم ولا دين. غالباً ما تلقى ممارسات كهذه قبولاً لدى الرّأي العامّ، وبدلاً من منحِ الأولوية لمكافحة التمييز، تسمح الحكومات بالمحاباة والتمييز بين أفراد الشعب، فتساعد بالتالي على إضفاء الشرعية على التمييز في التصرفات الفردية.

يُعتبَر عمّال المنازل غير المسلمين كاليهود والمسيحيّين أنجاساً في نظر بعض المسلمين، مما يعني أنّه لا يُسمَح لهم بطهي وجبات الطعام للأسرة. يقول حسن، وهو بحريني: "أمي لا تستأجر خادمة إنّ لم تكن من الأديان الإبراهيمية"، فتدّعي بعضُ عاملات المنازل أنّهن مسيحيّات، فقط من أجل الحصول على عقد عمل، لكن الأمر في غاية الوضوح، فأغلبهن من نيبال أو الهند أو سريلانكا وأسماؤهن تدل بوضوح أنهن غير مسيحيات. "كان لدينا خادمة أعتقد أنها بوذية، ولذلك قام والدي بطبع صورة من الإنترنت للسيد المسيح وقال لها: "ضعيها في غرفتك لتثبتي أنك مسيحية بالتأكيد في حال فتشتها زوجتي."[4]

غير أنّ ذلك لم يرضِ أمّ حسن التي استمرّت الشّكوك تساورها بأنّ الخادمة بوذيّة وليست مسيحيّة، فاستغنت عن خدماتها في نهاية المطاف. ورفَضَت وكالة التّوظيف التي استقدمت الخادمة أنّ تستعيدها بذريعة أنّ العوائل الأخرى لن توظّفها لأنّها تركت وظيفتها. يضيف حسن: "لذا اشترى أبي لها تذكرة سفر إلى نيبال وأعطاها مبلغاً صغيراً من المال كمساعدة. وقد أعاد عمّي خادمة هنديّة لأنّها كانت هندوسية."

إنّ الإسلام هو "دين الدَّولة" في الجزائر والبحرين ومصر والعراق والأردن والكويت وليبيا وموريتانيا والمغرب وعُمان وقطر والمملكة العربيّة السّعوديّة وتونس والإمارات العربيّة المتّحدة واليمن. والصفة الرسميّة للإسلام في الجزائر والمغرب هي أنّه مادةٌ في الدُّستور لا يمكن تعديلها.

والشّريعة الإسلاميّة في الدُّستور اليمنيّ هي "مصدر جميع التشريعات"، وفي سلطنة عمان هي "أساس التشريع"، بينما في مصر هي "المصدر الرَّئيس للتشريع"، أمّا في البحرين والكويت وسوريا وقطر ودولة الإمارات العربيّة المتّحدة فهي "مصدر رئيس للتشريع". ينص الدُّستور العراقيّ الذي تمَّ وضعه بعد استفتاءٍ جرى سنة 2005 أنّ الإسلام "مصدر أساسيّ للتشريع" وأنَّه "لا يمكن سنّ أيّ قانون يتعارض مع ثوابت أحكام الإسلام، لكن ما يثير الحيرة هو أنّ هذا الدُّستور ذاتَه ينصّ على وجوبِ إلّا يتعارض أيّ قانون مع "مبادئ الديمقراطية" أو "الحقوق والحريّات الأساسيّة" المنصوصِ عليها في مواضعَ أخرى في الدُّستور. هذه البنود من الدُّستور التي قد تتعارض فيما بينها تعكس ضغوطاً سياسيّة متنافرة حين صياغته؛ والتوفيق فيما بينها عند تطبيق هذا الدُّستور ليس بالأمر الواضح.

أمّا دستور ما بعد الثّورة في تونس ففيه تضارب على نحو مماثل، ففي حين أنّه يَعِدُ "بِحريّة الضّمير والمعتقد" إلّا أنّه ينصُّ بأنَّ الدَّولة يجب أنْ "تحمي المقدسّات وتمنع أيّة إساءة لها." لقد أدّت صياغة الدُّستور الجديد في تونس إلى كثير من الجدل، وعلى حدّ تعبير آمنة جولالي، من منظمة هيومن رايتس

ووتش، كانت صياغة الدُّستور الجديد أشبهَ بالمهمّة المستحيلة في التوفيق بين رؤيتين مختلفتين جذرياً في المجتمع التونسيّ، فتقول: "من ناحية، يلبّي الدُّستور مطالب جمهور متديّن يرى في الحكومة الحارس والحامي لكلِّ القيم المقدّسة، ومن ناحية أخرى ينصُّ الدُّستور على مجتمعٍ يترك لكل شخص حريَّة اختيار الدِّين دون أن يتدخّل في ذلك."[5]

في الممالك العربيّة يُفترض بمن يعتلي العرش أنّ يكون مسلماً، وهو ما ينصُّ عليه الدُّستور في الأردن والكويت وعُمان وقطر، وفي بعض الجمهوريّات العربيّة كالجزائر وموريتانيا وسوريا وتونس واليمن ينصُّ الدُّستور على أنْ يكون الرَّئيس مسلماً – في اليمن يجب أنّ يكون مسلماً وملتزماً – وبالتّالي يُطبَّق مبدأ التمييز الدينيّ على رئيس الدَّولة. أمّا في لبنان تبدو الصّورة أكثر تعقيداً بسبب وجود مزيج من الأديان والطوائف، لكن مع ذلك هناك تمييز، فالرّئيس يجب أنْ يكون مسيحيّاً مارونياً، ورئيسُ الوزراء مسلماً سنيّاً، ورئيسُ البرلمان مسلماً شيعيّاً، رغم عدم وجود دين للدَّولة.

إنّ حرمان غير المسلمين من منصب الرئاسة قد لا يبدو أمراً يستحقّ الذِّكر؛ لأنّه في حكم المؤكّد تقريباً سيتم اختيار مسلم لشغل هذا المنصب؛ إلّا أنّ ذلك يخالف مبدأ المساواة في الحقوق لجميع المواطنين، وقد بَرزت هذه المشكلة أثناء المناقشات حول دستور ما بعد الثّورة في تونس حيث غابت هذه النقطة عن نجيب الغربي، المتحدّث باسم حزب النّهضة الإسلاميّ، عندما قال: "الإسلام هو دين غالبيّة التّونسيّين، والدّين الرسميّ لتونس هو الإسلام ولذلك من الطبيعيّ بالنسبة لرئيس للبلاد أن يكون مسلماً." صحيح أنّ الأغلبيّة السّاحقة من التونسيين هم مسلمون – بالاسم على الأقل – إلّا أنّ هناك فرق كبير بين أن نقول أنّه على ميزان الاحتمالات سيكون الرَّئيس التونسي مسلماً على الأرجح وبين القول أنّ الرَّئيس يجب أنْ يكون مسلماً. وكان بيانٌ سابقٌ للنّهضة قد بيّن أنّ أفراد الجالية الصّغيرة من يهودِ تونس "هم مواطنون يتمتعون بجميع الحقوق والواجبات" ولكن عندما يتعلق الأمر بالرّئاسة فمن الواضح أنّ الأمر ليس كذلك.[6]

ولوضع هذه النُّقطة في سياق أوسع، فإنَّ تسعةً وأربعين بلداً في جميع أنحاء العالم لديها نوعٌ من الشروط الدينيَّة لرئيس الدَّولة وفقاً لدراسة أجراها مركز بيو للأبحاث (Pew Research Center). وإنّ تسع عشرة دولةً من هذه الدُّول – ستة عشر عضواً في الكومنولث البريطاني بالإضافة إلى الدنمارك والنرويج والسويد – لديها ملك مسيحيّ شرفيّ دون أيّ سلطة سياسيّة. ومن بين البلدان التي يكون لرئيس الدَّولة فيها دورٌ أكثر من شرفيّ، فإنَّ سبع عشرة دولة تشترط أن يكون المَلِكُ أو الرَّئيس مسلماً وهذه في معظمها

تقع في الشرق الأوسط أو شمال أفريقيا، في حين يحدّد الدُّستور في كلّ من أندورا ولبنان أنْ يكون رئيس الدَّولة مسيحيّاً، وبوذيّاً في كلّ من بوتان وتايلاند، أمّا في إندونيسيا فيجب على الرَّئيس أنّ يؤيد "البانجاسيلا Pancasila" وهي فلسفة سياسيّة توحيديّة تقوم عليها الدَّولة. أمّا في ثمانية بلدان أخرى، بما فيها بوليفيا والمكسيك والسّلفادور، فيُشترط أن يكون الرئيس علمانياً لأن الدستور يَمنعُ رجال الدِّين من استلام منصب رئيس الدَّولة.[7]

إنّ وجود الأديان الرسميّة في جميع أنحاء العالم ليس أمراً غير مألوف أبداً، فقد وجدت دراسة أُجريَت سنة 2004 أنّ خمساً وسبعين دولةً من أصل 188 دولة مستقلة (أيّ ما نسبته 40%) لديها دين للدَّولة.[8] في بعض الحالات – كما في معظم الدُّول العربيّة – يظهر هذا في الدُّستور بوضوح، غير أنّ الصّورة ليست دائماً واضحة جدّاً، ففي حالات كهذه قد تدعم الحكومة ديناً معيناً بطرق مختلفة كدعمه مالياً أو من خلال نظام التّعليم. كما أنّ وجود دينٍ للدَّولة يعني أشياء مختلفة في بلدان مختلفة، فتأثير الدين على الحياة اليوميّة في بريطانيا، على سبيل المثال، ضئيل إلى حدّ ما؛ بينما في الدُّول العربيّة فتأثيره كبير جداً.

رغم أنّ ديانات الدُّولة لا تتعارض مباشرة مع القانون الإنسانيّ الدّوليّ، لكنّها في الممارسة العمليّة تؤدي لا محالة إلى انتهاك الحقوق، فقد بيّن تقرير خاصّ أعدّته الأمم المتّحدة حول حريَّة الدِّين والمعتقد سنة 2011 ما يلي:

> "إنّ مجرَّد وجود دين للدَّولة قد لا يتعارض بحدِّ ذاته مع حقوق الإنسان، لكن يجب ألّا يُسْتَغَلَّ هذا المفهوم على حساب حقوق الأقليّات فيؤدي إلى التمييز على أساس الدِّين أو المعتقد... في الواقع يبدو من الصعب – إنّ لم يكن مستحيلاً – أنْ نتصور وجود تطبيق لمفهوم "دين الدَّولة" الرسميّ من دون آثار سلبيّة على الأقليّات الدينيَّة، إذْ سيكون هناك تمييز تجاه أفراد هذه الأقليّات."[9]

وبصرف النّظر عن الجو العامّ للتديّن، هناك تفسيرات سياسيّة لانتشار ديانات الدَّولة في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، أحدها هو أنّ معظم هذه الحكومات لم يتم انتخابها بحريّة وبالتّالي تحتاج إلى البحث عن مصادر أخرى للشّرعيّة، فالمؤهلات الدينيَّة، إنْ وجدت، يمكن أنْ تكون بديلاً مفيداً. وهكذا فملك المملكة العربيّة السّعوديّة يُلقب بخادم الحرمين الشّريفين وهو اللقب الذي ينبغي أنْ يُذكر أولاً وفقاً للبروتوكول

السّعوديّ قبل أنْ يشار إليه بأنّه الملك، كما أنّ ملكي كلٍّ من المغرب والأردن يستخدمان المؤهّلات الدينيَّة لكن بدرجةٍ أقلّ، فالعاهل الأردنيّ عبد الله الثّاني يتباهى بأنّه "ينحدر من الجيل الثالث والأربعين من أحفاد النبيّ محمّد" وأنّه الوصيّ الرسميّ على المسجد الأقصى في القدس والذي يعتبر ثالث أقدس موقع في الإسلام، أمّا ملك المغرب فيلقب بأمير المؤمنين.

كما أنّ وجود دين للدَّولة يوفّر ذريعة قانونيّة للسّلطات للتدخّل في الشّؤون الدينيَّة واستثمار بعض السلطة فيها، كتوظيف رجال الدِّين المؤيدين للنظام مثلاً في مراقبة مضمون الخطب الدينيَّة، وعندما تواجه تحديّات خطيرةً من حركات المعارضة الإسلاميّة تلجأ هذه الحكومات إلى الادّعاء بأحقيتها الأخلاقية أحياناً، أو حتى بأنها موكلةٌ بحماية الإسلام، وعادة ما يكون القصد من وراء ذلك استرضاءَ الإسلاميين أو حتى تقويضهم لكن هذه الحكومات لا تنجح في ذلك دائماً وقد يؤدّي ذلك إلى استلام الإسلاميين زمام المبادرة بسهولة كلّما تعلّق الأمر بالدّين.

في سنة 1991 غيّر صدّام حسين، الذي لم يكن معروفاً بالورع أو التقوى، علَم العراق بإضافة عبارة "الله أكبر" إلى العلم بخطّ يده، فاعتُبِرَ ذلك محاولةً منه لتعزيز مؤهّلات النّظام الإسلاميّة قبل بضعة أيامٍ فقط من بدء الحرب التي أدّت إلى إخراج القوات العراقيّة من الكويت.

تُقدّم سوريا تحت حكم آل الأسد مثالاً مثيراً للاهتمام عن نظام استطاع صوغ شكل معين من الدِّين وشجع عليه، رغم أنّه علمانيّ نسبيّاً، فرغم أنّ النظام البعثيّ بشكل خاصّ لم يكن دينيّاً أبداً، إلّا أنّ هيمنة الأقليّة العلويّة – التي تُعتبر عادةً واحدةً من فِرَقِ الطائفة الشيعية – قد يشكّل نقطة ضعف يمكن استغلالها من قبل المعارضين للنّظام، أيّ أنّ العلويّين ببساطة مهدّدون بأنْ يتمَّ وصفهم بالمهرطقين.

استجاب حافظ الأسد لهذا التّهديد بطرق شتّى، وأوّل شيء قام به هو محاولة السّيطرة على الأغلبيّة السنيّة بدفعها نحو أشكال "مقبولة" من الإسلام الذي لا يشكّل أيّ تهديد لنظامه أو إلى العلويّين، وهو ما يشرحه "تورستاين وورين Torstein Worren" بقوله:

> "لقد أدرك حافظ الأسد أنّه من أجل تحقيق الاستقرار في البلاد عليه تقديم تنازلات للسنّة، فسعى من خلال ما أطلق عليه "الحركة التصحيحيّة" إلى إعادة الإصلاحات العلمانيّة الأكثر راديكاليّة والخاصّة بأنظمة البعث السّابقة، كما قام باستمالة رجال الدِّين بمنحهم سلطة أكبر في الميدان الاجتماعيّ وذلك لكي يحدَّ من نفوذهم في المجال السياسيّ،

بالتّالي، وبدلاً من بناء مجتمع علمانيّ حقيقيّ، أسّس حافظ الأسد دولة علمانيّة ظاهريّاً ولكنّها ليستْ كذلك في مسائل الأسرة، وقانون الأحوال الشخصيّة، فكانت هذه المسائل خاضعة لأحكامٍ دينيّة خاصّةٍ بكل طائفة دينيّة، أيْ أنّ المسلمين يُحكَمون بالشريعة الإسلاميّة والمسيحيّين بقوانين الكنيسة."

وفي الطرف المقابل كان على حافظ الأسد إعادة التّعريف بالعلويّين على أنّهم من عامّة المسلمين، فعلى سبيل المثال، لم يسمح للعلويّين بإقامة المحاكم الدينيَّة الخاصّة بهم، بل تحكمهم أحكام الشريعة التي تحكم السنّة.

ويساعد هذا في شرح النّظرة الرسميّة – ولكن المضللة – من الإسلام التي تمَّ تدريسها في المدارس السوريّة. يضيف "تورستاين وورين":

"إنّ الإسلام في الكتب المدرسيّة هو الإسلام السنيّ التقليديّ، وليس هناك أيّ ذِكر للأقليات المسلمة التي تعيش في سوريا ولا للإسلام الشّيعيّ بشكلٍ عامٍّ ولا حتى للمدارس الفكرية المختلفة في الإسلام السنيّ، كما لا تشير هذه المناهج إلى وجود تنوعٍ داخل الإسلام، وبالتّالي لا يوجد في سوريا أيُّ ذِكر للطّائفة العلويّة في المدارس التي تمثّل خلاصة الخطاب الرسميّ، بل يتم تصنيفها ضمناً في الإسلام. لذلك فإنَّ السوريّين لا يتعلّمون شيئاً عن معتقدات بعضهم البعض والفروقات بينها؛ وما يعرفونه أو يظنّون أنّهم يعرفونه يقوم على الشّائعات والقصص التي يتداولها الأصدقاء والأقارب."[10]

يرى الملحد السّوري هاشم الشّامي أنّ اتّباع هذه السّياسة ساهم في بروز الخصومات الطّائفيّة إلى السطح منذ ذلك الحين، حيث يقول: "لقد أبقى النظام الجميعَ رهينة لرؤيته بامتناعه عن تثقيف النَّاس حول الطّوائف الأخرى وبمنعه الطّوائف من أنْ تعرف المزيد عن بعضها البعض، فكلما قلّ ما تعرفه عن شخص ما تزداد صعوبة أنْ تتقبلهم كأقران؛ وإنّ الحرب الأهليّة المستمرة في سوريا وازدياد حدّة الطّائفيّة هو نتاج عقود طويلة من هذه السّياسات."[11]

إنّ للربط بين الدِّين والدّولة تاريخٌ طويلٌ حول العالم، وليس أقلُّه في أوروبا، فالفصل بين الكنيسة والدّولة ليس كاملاً في أوروبا رغم الانخفاض الكبير والمطِّرد لعدد مرتادي الكنائس ورغم كون المجتمع علمانيّاً إلى حدّ كبير الآن؛ فرئيس الدَّولة في بريطانيا مثلاً هو رأس الكنيسة الأنغليكانية في الوقت ذاته، كما أنّ

بريطانيا أبقت على قانون التّجديف حتى سنة 2008، لكنَّ تطبيق هذا القانون كان نادراً جدّاً في المِائة سنة التي سبقت إلغاءه. تتمتع الكنائس في دول أوروبيّة كثيرة بامتيازات منحتها إياها الدَّولة، كالامتيازات الضريبيّة أو التّمويل من خلال الضّرائب التي تُجمع لصالح هذه الكنائس، كما أنّ المدارس الدينيَّة موجودةٌ جنباً إلى جنب مع التّعليم الحكوميّ. لكن، ورغم ذلك، تُعتبر الرّوابط بين الدِّين والدّولة في أوروبا أقلَّ أهميّة بكثير ممّا هي عليه في الدُّول العربيّة اليوم.

على عكس ما هو عليه الحال في دول أوروبيّة كثيرة، يوجد في الولايات المتّحدة فصلٌ رسميّ بين الدِّين والدّولة لكن الأخيرة لا تزال متديّنة جدّاً اجتماعياً، وحتى سياسياً. إنّ هذا النّموذج الأمريكيّ يدحض فكرة أنّ الدِّين ينحسر تلقائيّاً في مجتمع متقدم ومتطور من النّاحية التكنولوجيّة. وإذا كان الأمر كذلك، فيجب أنْ يكون هناك تفسير آخر لشعبيّةِ الدِّين في الولايات المتّحدة وتراجعِ شعبيّتِه في أوروبا نسبيّاً.

وقد اقتُرِحت نظريّاتٌ عدَّة لتفسير هذا الاختلاف الذي تقف وراءه عدّة عوامل، ولكن "عامل الارتياح" قد يكون ذا أهميّة خاصّة، فهنالك الكثير من الأدلّة، في جميع أنحاء العالم، على أنّ انعدام الأمن يجذب النَّاس نحو الدِّين. إنّ خدمات الرّعاية الاجتماعيّة التي تقدمها الحكومة الأمريكيّة أقلُّ بكثير ممّا تقدمه غالبيّة الحكومات في أوروبا رغم أنّ الولايات المتّحدة بلد مزدهر، وبالتّالي يمكن القول أنّه في الوقت الذي يَقصد فيه الأوربيون الدَّولة للحصول على هذه الرعاية، فإنَّ الأمريكيين يلتمسونها من باب الدِّين، إلا أن البعض يَعْزُوْنَ ذلك إلى التنوّع العرقيّ والثقافيّ في الولايات المتّحدة حيث عامل الارتياح، مرة أخرى، قد يكون مهماً، أضف إلى ذلك أنّه يمكن ملاحظة رواج الدِّين بين الأميركيّين السّود، حيث تُوفِّر كنائسُ السّود الدّعم الاجتماعي والتضامن في وسط يمكن اعتباره في كثير من الأحيان بيئة معادية.[12]

وفيما يتعلق بتوفير الدِّين "لعامل الراحة" فالدّول العربيّة هي أكثر قرباً إلى الولايات المتّحدة منها إلى أوروبا حيث يزدهر الدِّين بوضوح في الشّرق الأوسط حيث الفقر والاضطرابات وانعدام الأمن الاجتماعي، وقد اكتسبت الحركات الإسلاميّة قوَّتها من خلال تقديم خدمات الرعاية الاجتماعيّة التي فشلت الحكومات في توفيرها؛ غير أنّ دولَ الخليج الغنيّة تشكّل استثناء في هذا الطرح لأنها توفّر رعاية اجتماعيّة أكثر شمولاً مما يعني أنّ الدِّين قد ينحسر هناك إذا ما غاب الدّعم الحكوميّ القوي له (أي للدين).

وهناك نظريّة أخرى قد تنطبق على الدُّول العربيّة، فهي – أيّ النّظريّة – تنظر إلى الدِّين على أنّه سوق تُمنح فيه دياناتُ الدَّولة حقّ الاحتكار أو الحماية من المنافسة؛ وقد كان "آدم سميث Adam Smith"، الخبير الاقتصاديّ الذي عاش في القرن الثامن عشر، أولَ من نظر إلى الدِّين من هذا المنظور:

> "يرى "سميث" أنّ الجانب الأبرز في دين الدَّولة هو ترويجها للموقف الاحتكاريّ للدّين المفضّل، ويعمل هذا الترويج جزئيّاً من خلال فرض قيود على دخول المنافسين، وجزئياً من خلال الإعانات. تركز دراسة "سميث" على الآثار السلبيّة الناجمة عن المواقف الاحتكاريّة للكنيسة الأنغليكانيّة في انجلترا والكنيسة الكاثوليكيّة في بلدان أخرى، ويرى أنّ محتكري الخدمات الدينيَّة يميلون – كما هي حال جميع الاحتكارات – إلى أنّ يصبحوا خاملين وغيرَ مبدعين، ونتيجة لذلك تنخفض جودة الخدمة والمشاركة الدينيَّة."[13]

وقد تمَّ التعمّق في دراسة هذه النُّقطة في الآونة الأخيرة، وخاصّة بواسطة "رودني ستارك Rodney Stark" و"روجر فينك Roger Finke" في كتابهما "ممارسات الإيمان".[14] أمّا الجانب الآخر من الحجّة فهو أنّه في حين أنّ الأديان التي ترعاها الدَّولة محكومة في نهاية المطاف بفقدانها لأتباعها، إلّا أنّ "السّوق الحرّة" في الإيمان تُجبر الأديان على الاعتماد على نفسها، وتسمح لها بالازدهار، طالما أنها تبذل المزيد من الجهد لإرضاء "زبائنها". ومن أبرز الأمثلة على ذلك الولاياتُ المتّحدة. وفيما يتعلق بالدّول العربيّة، توحي النّظريّة آنفةُ الذِّكر أنّ دعم الدَّولة لا يخدم الإسلام على المدى البعيد، رغم أنّ خدمة الإسلام ليست بالضرورة غايةَ الدّعم الذي تقدمه الدَّولة؛ أمّا في الممارسة العمليّة، فنادراً ما تتبنّى الحكوماتُ الدِّينَ بدافع من الخير فيها، إنّما بسبب المصالح السّياسيّة التي تأمل أنْ تجنيها من وراء ذلك.

إنّ الامتيازات التي تمنحها الحكومات العربيّة للدّين تثير قضايا محدّدةً فيما يتعلق بالتعليم، فالدّول الموقِّعة على العهد الدّوليّ للحقوق المدنيّة والسّياسيّة عليها ضمان التّعليم الدينيّ والأخلاقيّ للأطفال "وفقاً" لقناعات ذويهم، وهذا يعني – من بين أمور أخرى– أنّ لهم الحقّ في الانسحاب في حال كان نوع التّعليم الدينيّ الذي تقدّمه الدَّولة يتعارض مع معتقدات الوالدين. يُذكر أنّ جميع الدُّول العربيّة موقّعة على هذه الاتفاقيّة باستثناء عُمان وقطر والمملكة العربيّة السّعوديّة والإمارات العربيّة المتّحدة.

ومن المهمّ هنا التمييزُ بين التربية الدينيَّة والإرشاد الدينيّ، فالإرشاد الدينيّ هو تدريس دينٍ أو معتقدٍ معيّنٍ بناءً على مبادئه، وغالباً ما يطلب العامّة ذلك كما وردَ في تقرير للأمم المتّحدة:

"يرى كثير من الآباء أنّ تطوير المعارف والمهارات الاجتماعيّة لدى أطفالهم من خلال التّعليم المدرسيّ سيكون غير مكتمل ما لم يتضمّن حِسّاً بالوعي الدينيّ والتعرّف على دينهم أو معتقدهم، وبالتّالي فإنَّ توفير الإرشاد الدينيّ في نظام التّعليم الحكوميّ قد يكون مبنيّاً على رغباتٍ صريحةٍ أو ضمنيّةٍ لتيّارات كبيرة من سكّان البلاد."[15]

غير أنّ التّقرير قد ذهب إلى القول بأنّ الإرشاد الدينيّ في أنظمة التّعليم الحكوميّة "يجب أنّ يصاحبه ضمانات محددة" للأقليات الدينيَّة وأنْ يحترم قناعاتِ الآباءِ والأوصياءِ الذين لا يؤمنون بأيّ دين، ويضيفُ أنّ إمكانيّة الانسحاب من هذه الأنظمة لا ينبغي أنْ تكون مرتبطةً "بإجراءاتٍ بيروقراطيّةٍ مرهقةٍ" أو بعقوبات.

وفي حين يهدفُ الإرشاد الدينيّ إلى تعريف التلاميذ بالتقاليد الدينيَّة الخاصّة بهم، تهدف التربية الدينيَّة إلى توسيع معارفهم حول مختلف الأديان والمعتقدات؛ ومن هذا المنطلق، فإنَّ توفير المعلومات حول الأديان الأخرى لا يُعتبر جزءاً من التربية الدينيَّة، بل هو أقربُ إلى التخصّصات الأخرى كالتّاريخ أو العلوم الاجتماعيّة. وهذا النّوع من التّعليم، في حال تمَّ بطريقة محايدة، سيكون له أثر إيجابيّ في الحثّ على التسامح ومكافحة التحيز. يضيف تقريرٌ للأمم المتّحدة:

"ينبغي للمعلومات حول الأديانِ والمعتقداتِ أنّ تتضمّن دائماً الرؤيةَ الحاسمةَ بأنّ الأديان – بوصفها واقعاً اجتماعياً – غيرُ متجانسةٍ. ذات الأمر ينطبق على النُّظُم العقائديّة غيرِ الدينيَّة. إنّ لهذه الرّسالة أهميّةً خاصّةً، لأنّها تساعد في تفكيك المفاهيم القائمة على عقليّةٍ جماعيّة والتي غالباً ما يتم نسبُها إلى جميعِ أتباعِ الدياناتِ أو المعتقداتِ المتنوعةِ بطريقةٍ سلبيّةٍ ونمطيةٍ ...

من المهمّ أنْ ترسم الكتبُ المدرسيّةُ وغيرُها من الموادّ صورةً معقّدةً للدّيانات أو المعتقدات المختلفة وتعدّديّتها الداخليّة، وعلاوةً على ذلك، يجب الاهتمام دائماً بالأصوات البديلة الموجودة في التّقاليد الدينيَّة، بما في ذلك أصوات النّساء... لا يمكننا إدراك حقيقة التنوّع بين البشر إلّا عندما نتغلّب على التصوّرات والفهم المتجذّر في داخلنا."[16]

هنالك اختلافاتٌ أساسيّةٌ – قد لا يمكن التوفيق بينها – بين فكرة استخدام التّربية الدينيَّة لتوسيع أُفُق الطّلاب، وبين ما يحدث بالفعل في الكثير من المدارس العربيّة؛ حيث يمكن أنْ يكون للتّدريس تأثيرٌ

عكسيّ في تعزيز التعصّب والتصوّرات المتجذّرة، فالقانون الأساسيّ للمملكة العربيّة السّعوديّة ينصُّ صراحةً على استخدام نظامِ تعليمٍ "يغرس العقيدة الإسلاميّة في جيل الشباب"؛ كما أنّ المحاولات في أماكن أخرى لاعتماد نهج مختلف قد تلقى معارضةً شديدة. بعد الإطاحة بنظام القذافي في ليبيا، على سبيل المثال، طالب المفتي صادق الغرياني بإحداث تغييرات في الكتب المدرسية الجديدة بما في ذلك إزالة فقرة تقول أنّ النَّاس أحرار في اختيار دينهم.[17]

أمّا الكويت، ورغم أنّها موقِّعةٌ على العهد الدّوليّ للحقوق المدنيّة والسياسيّة، إلّا أنّ حقَّ الانسحاب من نظام تعليميّ معيّن كما هو منصوص عليه في هذا العهد غيرُ مسموح به إلّا في حال اختيار الآباء للتعليم الخاصّ، وتفرض الحكومة الإرشاد الدينيّ الإسلاميّ على جميع الطلاب في المدارس الحكومية وهي إرشادات تستند إلى حدّ كبير على التّفسير السّنّي للإسلام بالرغم من وجود أقليّة شيعيّة كبيرة تقدر بشكل غير رسميّ بنحو 30 –40٪ من مجموع السّكان، بل إنّ بعض الكتب المدرسيّة "تصف بعض المعتقدات والممارسات الدينيَّة الشيعية بالهرطقة."[18] أمّا في العراق، الموقِّع أيضاً على العهد ذاته، فلا يُفرض على الطّلاب غير المسلمين المشاركة في الإرشاد الدينيّ في المدارس الحكومية، على الأقل من الناحية النظرية؛ إلّا أنّ هنالك تقارير عن ضغوط يمارسها المدرسّون وزملاء الدراسة على الطّلاب غير المسلمين للمشاركة في هذا الإرشاد، كما وردت أنباء عن إجبار بعض الطلاب غير المسلمين على المشاركة ولم يُسمح لهم بمغادرة الفصول الدراسية خلال دروس الإرشاد الدينيّ.[19]

يتمّ تسجيل الانتماء الدينيّ للمواطنين على بطاقات الهويّة الوطنيّة في عدد من الدُّول العربيّة، وهذا أمر مثير للجدل؛ وقد وصَفه تقرير أعدَّته الأمم المتّحدة بأنّه "يتعارض نوعاً ما مع حريَّة الدِّين أو المعتقد المعترف بها عالمياً." وتبرر السُّلُطات ذلك الأمر بأنها بحاجة الى معرفة دين النَّاس لأنّه يتمّ تطبيق أنظمة قانونية مختلفة على أديان مختلفة في مجال قانون الأحوال الشخصيّة كالزّواج والطّلاق والميراث وحضانة الأطفال... الخ، ولكن في حالة الأقليّات الدينيَّة فإنَّ تسجيل الانتماء الدينيّ على بطاقات الهويّة يفتح الباب أمام التمييز من قبل المسؤولين والشّرطة وغيرهم.

وبصرف النّظر عن مسألة ما إذا كان يجب على أيّ شخص أنّ يكشف عن دينه، يمكن أنّ تنشأ، خاصّةً على المستوى العمليّ، صعوباتٌ خطيرةٌ في حال أراد شخصٌ ما تغييرَ دينه أو اختار ألّا يلتزمَ بأيّة عقيدة كانت. ففي مصر يجب على الجميع، وبموجب القانون، الحصولُ على بطاقة هويّة عند بلوغهم سن

السّادسة عشرة مما يضع المسؤولين الحكوميّين في موقف قويّ للغاية بشأن إصدار بطاقات الهويّة والديانة التي يتم تسجيله عليها، وبدون بطاقة الهويّة يصبح المصريّون عملياً غير مواطنين وبالتّالي لا يستطيعون العمل بشكل قانونيّ ولا الدراسةَ بعد المرحلة الثانويّة ولا التصويتَ ولا فتحَ حساب مصرفيّ ولا الحصولَ على رخصة قيادةٍ ولا شراءَ الممتلكات أو بيعها ولا استلامَ الراتب التقاعديّ ولا السّفر.

قد يكون من المألوف للمصريّين أنْ يغيروا ديانتهم، وقد يقومون بذلك عن قناعة، ولكن في كثير من الأحيان يقدمون على ذلك بسبب الزواج من شخص من دين مختلف؛ حيث يوجد في مصر أقليّة مسيحيّة كبيرة ووفقاً للشّريعة الإسلاميّة لا يمكن لامرأة مسلمة أنّ تتزوج من رجل غير مسلم، كما يعتنق المسيحيّون الإسلام في بعض الأحيان لغرض الطلاق لأنّ الكنيسة القبطيّة الأرثوذكسيّة تفرض قوانين مشدّدة في الطلاق.

إن اعتناق الإسلام سهل جدّاً في مصر من الناحية العملية، أمّا العكس فهو أكثر صعوبة بكثير، فقانون الأحوال المدنيّة المصريّ يقول إنّ للمواطنين الحقُّ بتغيير المعلومات الشخصيّة في بطاقات الهويّة بما في ذلك انتماؤهم الدينيّ، وذلك ببساطة عن طريق تسجيل التفاصيل في وزارة الداخلية. من الناحية النّظريّة لا يمكن للوزارة رفض ذلك لكن المحاكم والمسؤولين قالوا في بعض الأحيان أنّ تسجيل الارتداد عن الإسلام قد يرقى إلى ارتكاب "خطيئة" الرِّدّة وبالتّالي يرى هؤلاء أنّ التحول عن الإسلام أمرٌ غير دستوريّ، لأن الدُّستور ينصّ على أنّ الإسلام هو دين الدَّولة، ويرى آخرون أنّ التحول من الإسلام إلى المسيحيّة يعكس "ازدراءً" "لدين سماويّ" وهذا مخالف للقانون في مصر، كما يرون أنّ ذلك يشكّل تهديداً للنّظام العامّ. تؤدي الرِّدّة عن الدِّين في بعض الأحيان إلى أعمال عنف إذا علم العامّةُ بأمرها، لكنّ هذا، إلى حدّ ما، نتيجةٌ لفشل الحكومة في معالجة مسألة الطّائفيّة وعدم تعزيز تلك الحكومة لمبدأ التسامح مع التنوع الدينيّ. لقد علّقت منظمة هيومن رايتس ووتش في تقرير يدرس تدخل الدَّولة في الحريّة الدينيَّة في مصر قائلةً:

> "إنّ المصريّين الذين يولدون مسلمين ويعتنقون المسيحيّة يواجهون ازدراءً اجتماعياً كبيراً ومضايقاتٍ رسميةً كذلك، ولذلك فإنَّ عدداً قليلاً جدّاً ممن يتحوّل من الإسلام إلى المسيحيّة يبادر لاتخاذ الخطوات الرسميّة اللّازمة لتعديل وثائق الهويّة الخاصّة بهم لتعكس دينهم الجديد وفقا لما يسمح به قانون الأحوال المدنية. وقد هاجر عدد غير

محدّد إلى بلدان أخرى، ومنهم من يعيش خِفْيَةً بوثائقَ مزورةٍ... قال بعض الذين أعلنوا تحولهم على الملأ أنهم اعتُقِلُوا مِنْ قِبَلِ مسؤولي الأمن بتهمة انتهاك النّظام العامّ، وتعرضوا في بعض الحالات للتعذيب."[20]

كما وَجدت منظّمة هيومن رايتس ووتش أنّ بعض المسيحيين في مصر تمَّ تحويلهم إلى الإسلام من قبل السُّلُطات الرسميّة بطريق الخطأ، ودون علمهم أحياناً، حتى أنّ المسؤولين قد يغيرون لهم أسماءهم في حال كانت أسماؤهم الأصلية توحي بأنهم غير مسلمين.

من بين هذه الحالات حالة فادي نجيب جرجس المولودِ في عائلة مسيحيّة في الإسكندريّة. عندما كان عمره خمس سنوات تحوّل والده إلى الإسلام وترك المنزل واعتمد اسمَ شُهرةٍ إسلاميّاً، لأن اسمَ شهرتِه "جرجس" (أيّ جورج) تدلّ بوضوح على أنّ حاملَه مسيحيٌّ؛ غير أنّ فادي واصل استخدام اسم الشهرة جرجس وهو اسم الشهرة المكتوب في شهادة ميلاده واعتبر نفسه مسيحياً. انتقل فادي في التاسعة عشرة من عمره إلى القاهرة للعمل، وتقدم بطلبٍ للحصول على بطاقة هويّة جديدة، ويقول في ذلك:

"كانت هويتي الورقيّة مهترئةً، وأردتُ الحصول على بطاقة الهويّة الوطنية ... لكنّهم أوقفوني بسبب اسمي فلم يكن اسم الشهرة جرجس مُدْرَجَاً في سجلاتهم، بل عبد الحكيم – وهو اسم شهرة والده الإسلاميّة الجديدة – كما كان الدِّين مدرجاً بشكل خاطئ حيث أدرجوا اسمي على أنّي مسلم ثم اتهموني بتزوير هويّتي وشهادة ميلادي وشهاداتي الدراسيّة أيضاً، بل واتّهموني بأنّي كنت أحاول التحوّل من الإسلام إلى المسيحيّة، فصادروا وثائقي ونقلوني إلى مكتب النّيابة العامّة."[21]

احتُجِزَ فادي خمسةَ أيامٍ ثم أُطْلِقَ سراحُه بعد تدخّل البابا القبطيّ، وأسقط المدعي العام في نهاية المطاف تهمةَ التزوير لعدم كفاية الأدلّة، وطلب منه إعادة تقديم طلبِ الحصول على بطاقة الهويّة لكن طلبه قوبل بالرّفض مرّة أخرى.

في الأيّام التي كان فيها الموظّفون الحكوميّون يملؤون خانات بطاقات الهويّة باليد كان من الممكن في كثير من الأحيان إقناعهم بوضع خط في خانة "الدِّين" أو تركها فارغة، لكن في سنة 1995 بدأت مصر بإصدار بطاقاتِ الهويّة عن طريق الكمبيوتر؛ وكان نظام الكمبيوتر يسمح بثلاثة خيارات فقط في خانة

"الدِّين" وهي مسلم أو مسيحيّ أو يهوديّ، وهي الدّيانات "السماويّة" الثّلاث، ما يعني أنّ كلّ من يرفض قبول أحد هذه الخيارات لا يحقّ له الحصول على بطاقة الهويّة.

وبصرف النّظر عن أولئك الذين يفضّلون عدم الالتزام بأيّ دين، كان النَّاس الأكثر تضرّراً من هذا الأمر هم أتباع الطائفةِ البهائيّةِ الذين يُعتقد أنّ عددهم يبلغ نحو ألفَيْ شخص في مصر. في سنة 2006 ذهبَ حسام عزّت محمود وزوجته إلى المحكمة فحصلا في بادئ الأمر على الحقّ في تسجيل نفسيهما وابنتيهما كبهائيين، لكنّ ذلك أزعج المسلمين والمحافظين، ولذلك قرّرت الحكومة استئناف الحكم، ثم ألغتِ المحكمة الإداريّة العليا قرار المحكمة الدنيا بذريعة أنّ البهائيّة ليست ديانة معترفاً بها وأنّ من يعتنقها مرتدٌّ. استقبلَ الجمهور الذي حضر المحكمة الحكمَ بصيحات "الله أكبر! النصر للإسلام"، وكتب صحفيّ في صحيفة الجمهوريّة مقالاً قال فيه:" إذا تمَّ الاعتراف بالبهائيّة رسميّاً، فإنَّ عَبَدَةَ البقر والشمس والنار سيطالبون بذلك أيضاً."

وبصرف النّظر عن اعتبارها فرقة مهرطقة من الإسلام، فالبهائيّة لا تحظى بشعبيّة في مصر بسبب ارتباطها غير المقصود بإسرائيل، ففي سنة 1868 وبعد أنْ أُبْعِدَ عن بلده الأم إيران، قام الأتراكُ بنفي مؤسِّس هذه الديانة ويُدعى بهاء الله مع أسرته ومجموعةٍ صغيرةٍ من أتباعه إلى مدينة عكّا، ونتيجة لذلك تمَّ إنشاء المقر الدّوليّ لهذه الديانة في عكّا والتي أصبحت فيما بعدُ جزءاً من إسرائيل. وفي ستينيات القرن العشرين سحب الرَّئيس جمال عبد الناصر اعتراف الدَّولة بالطّائفة البهائيّة وصادر ممتلكاتِهم، وفي سنة 1975 أكّدت المحكمة العليا قرار عبد الناصر من خلال إصدار قرار ينصّ على أنّ الديانات "المُنزلة" الثلاث هي المحميّةُ بالدستور دون سواها، ورغم السّماح للبهائيّين باعتناق معتقدهم ذاك، لكن ممارسة العقيدة البهائيّة اعتُبِرَتْ حينئذٍ "تهديداً للنظام العام."

غير أنّ البهائيّين واصلوا معركتهم القانونيّة المتعلّقة ببطاقات الهويّة؛ وفي سنة 2008 أمرت محكمةُ القضاء الإداريّ وزارةَ الداخليّة بوضع خطٍّ على بطاقات الهويّة وشهادات الميلاد في خانة الانتماء الدينيّ للمواطنين البهائيّين، ولم تستأنفِ الحكومةُ المصريّةُ القرار بعد ذلك.

يُنظَّم الزّواج في لبنان وفقاً لعادات وتقاليد 18 طائفةً معترفاً بها رسميّاً في البلاد، ولا يُسمَح ببعض أنواع الزّواج بين الأديان، ولا يوجد نصّ في القانون يخصُّ زيجات أتباع الديانات غير المعترف بها كالهندوسيّة والبهائية أو من لا دين لهم، أو أولئك الذين يريدون ببساطة إقامة مراسم زواج غير دينيّة؛ غير أنّ لبنان

يعترف بالزيجات التي تمّت في الخارج ممّا أدّى إلى سلسلة طويلة لا تنتهي من الرّحلات عبر البحر للزّواج في قبرص.

في سنة 2012، قررت خلود سكرية ونضال درويش المولودان في طائفتين مختلفتين (السّنيّة والشّيعيّة) تحدّي القوانين السّائدة بدلاً من السفر إلى قبرص ليتزوجا، وكانت النّتيجة أولَ زواجٍ مدنيٍّ معترفٍ به رسمياً في لبنان.[22]

وقد بدءا العمليّة بإزالة انتمائَيْهِما الطّائفيّ من وثائق هويتيهما، وهي خطوة أصبح القيام بها مسموحاً في لبنان منذ سنة 2009. ووفقاً لمرسوم يكاد يكون منسيّاً صدر سنة 1936 في عهد الانتداب الفرنسيّ أصبح نضال وخلود "خاضعين للقانون المدنيّ" بسبب عدم انتمائهما إلى أيّة طائفة دينيّة، غير أنّ ذلك أدخلهما في تجربة مجهولة بسبب افتقار لبنان لنسخةٍ علمانيّةٍ من قانون الأحوال الشخصيّة ذي الصّبغة الطّائفيّة، كما لا يوجد حالياً قوانين تخصّ الجوانب الأخرى من الزّواج المدنيّ كالميراث والطّلاق.

وقد كلّفا محامياً بصياغة عقد زواجٍ صحيحٍ قانونياً بالاستناد إلى وثائقَ عدّةٍ، بما في ذلك الدُّستور اللبناني والمادّة 16 من الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان (الحقّ في الزواج وتأسيس أسرة)، كما توجّب عليهما الحصول على استمارة موقّعة من رئيس البلديّة لإثبات أنّه لا مانعَ لزواجهما، وإعلانه على الملأ قبل 15 أيام من الزفاف أيضاً، لكن ما تزال هناك شكوك حول ما إذا كانت وزارة الداخليّة سوف تعترف بزواجهما رسميّاً.

أجّجت الأنباء عن الزواج المدنيّ النقاشَ مجدّداً حول نظام المحاصصة الطّائفيّة في لبنان، ففي حين أعلن رئيس الجمهوريّة العماد ميشال سليمان دعمَه لهذا الزواج إلّا أنّ رئيس الوزراء نجيب ميقاتي أبدى معارضته له. ثم ما لبث أنّ انضمّ مفتي لبنان إلى الجدال، وهدّد بتكفير أيّ نائبٍ مسلمٍ في البرلمان، أو وزيرٍ في الحكومة إنْ أيَّدوا الزواج المدنيّ وقال:

> "كلّ مسؤول مسلم، سواءً كان نائباً أم وزيراً ممن يدعم إضفاء الشرعيّة على الزواج المدنيّ، حتى لو كان مخيّراً، هو مرتدٌّ وخارج عن الدِّين الإسلاميّ ... فهؤلاء المسؤولون لن يُغسّلوا ولن يكفّنوا ولن يصلى عليهم وفقاً للشّريعة الإسلاميّة ولن يُدفنوا في مقابر المسلمين."[23]

وفي تهديدٍ واضحٍ بمقاومة أيّ تشريعٍ يسمح بالزواج المدنيّ، حذّر المفتي الشّيخ محمّد رشيد قبّاني من أنّ علماء الدِّين لن يتوانَوا عن القيام بواجبهم، وقال "هنالك متربّصون بشرعنا يحاولون زرع جرثومة الزواج المدنيّ في لبنان"، وقد ردّ النّائب المسيحيّ الماروني البارز سامي الجميّل مستنكراً تصريحات المفتي واصفاً إياها بأنّها تمثّل "انتهاكاً للدَّولة المدنيّة ولحق كلّ شخص لبنانيّ كما هو منصوص عليه في الدُّستور."[24]

أصرّ رئيس الوزراء اللبنانيّ على أنّ "الزواج المدنيّ هو قضيّة حسّاسة ونحن لا نستطيع تحمّل الدّخول في جدال جديد في هذا البلد"، لكن في أبريل من سنة 2013 وبعد ما يقارب السّتّة أشهر من حفل الزفاف وافق وزير الداخليّة بالوكالة مروان شربل أخيراً على العقد مما جعل الزواج رسميّاً.

وفي أيلول التالي، أنجبت خلود سكرية ولداً أسمياه غدي الذي قيل أنّه أصبح أولَ طفل متحرّر من الطّائفيّة في لبنان، وقد رحّب الرَّئيس ميشيل سليمان بذلك بنشر تغريدة على موقع تويتر جاء فيها: "هنيئاً لنضال وخلود واللبنانيين بولادة غدي، أولِ مولودٍ يُسَجّل دون طائفة."

الفصل السابع: مسلمٌ للمرة الأولى مسلمٌ دائماً

أثار قرار المملكة العربيّة السّعوديّة استئجار ورشةِ عمّالٍ صينيّين لبناءِ سكّةٍ حديديّةٍ في مدينة مكّة جدلاً واسعاً لأنّ مكّة مدينةٌ مقدّسة يُحرَّمُ دخولها على غيرِ المسلمين، غير أنّ ذلكَ لم يثنِ السُّلطات السّعوديّة ولا الشركة الصينيّة – وهي فرعٌ من جيشِ التحريرِ الشعبيّ – التي كان حريصاً على الفوزِ بعقدِ بناءِ سكّةِ الحديدِ تلك كونه كان مربحاً. قام السّعوديّون بحلّ المشكلة بكل بساطة عن طريق تقديمِ هديةٍ صغيرةٍ لكلِ عاملٍ من عمالِ الشركة، وهي عبارة عن كتاب مطبوع باللغة الصينية يتحدث عن الإسلام. عند تلك اللحظة حصل أمرٌ لا يمكن وصفه سوى أنّه معجزة، ففي غضون 24 ساعة قَرَّرَ أكثرُ من 600 عاملٍ صينيّ اعتناق الإسلام – بكامل إرادتهم على ما يبدو– وتمّ ذلك باحتفالٍ كبيرٍ حَضرهُ الدّكتور عبدالعزيز الخضيريّ وكيل إمارة منطقة مكّة المكرّمة.[1]

يُعتَبَرُ اعتناق الإسلامِ أمراً سهلاً للغاية –رغم أنّ تركهُ يعتبرُ أكثر صعوبة – حيث أنّ كلَّ ما يحتاجه الفرد للدخول في الإسلام هو نطق شهادة أنْ لا إله إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله، ولكي تكونَ الشهادةُ مقبولةً يجب النطق بها بكل إخلاصُ، وربما لم يكن هذا حال العمال الصينيين الستمائة.

ترحبُ أغلبُ الدّيانات بالمنتسبين الجدد، ويتم حثّ المسلمينَ على المشاركة في الدّعوة إلى الإسلام، فالعديد من آيات القرآن تشجع على ذلك: "أدع إلى سبيلِ ربّكَ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة" (سورة النحل الآية 125)، "ولتكن منكم أمةٌ يدعون إلى الخير" (سورة آل عمران الآية 103).

من خلال تنفيذ هذه الآيات بشكلٍ عمليّ أصبحتِ المملكةُ العربيّة السّعوديّة واحدةً من أكبر الدّول المصدّرة للدّينِ منذ ثمانينيات القرنِ العشرين، ويعزى ذلك إلى تخوّف المملكة من انتشار الإسلام الشّيعيّ إبّان الثّورةِ الإيرانيّةِ والغزوِ السوفييتيّ لأفغانستان والذي قاد، بالإضافةِ إلى أشياء أخرى، إلى إنشاءِ عددٍ

كبيرٍ من المدارسِ الدّينيّة المُتأثّرة بالسّعوديّة في باكستان؛ كما أنّ المؤسّسات والأفراد السعوديّين على حدٍ سواء نشروا كميّاتٍ كبيرةٍ من الأدبِ الإسلاميّ في العديدِ من المناطقِ حول العالم إما بكلفة قليلة أو بالمجّان. كان الهدفُ من بعض هذه الجهود الدَّعويّة جذبُ المُسلمينَ الآخرين نحو الإسلامِ الوهابيّ، وقد لاقتْ هذه الجهود نجاحاً في دول كثيرة. إنّ المملكةُ العربيّة السّعوديّة هي موطنُ النبي ومسقط رأسه، ولذا فإنَّ الأفكارَ والممارساتِ الدّينيّة السّعوديّة "الوهابيّة" تُعتبرُ الأكثرَ "صحّة وموثوقيّة". كان الهدفُ من بعضِ المنشوراتِ الأخرى دخول أشخاصٍ جددٍ في الإسلام من خلال كتب مثل "دليلُ مختصرُ موَضَّح لِفهمِ الإسلام" الذي يمكن قراءته على الأنترنت كما يمكن أيضاً إعادة طباعته مجاناً من قبلِ أي شخص طالما لم يُغير أيّ شيء في محتواه،[2] كما أصبحت نسخ القرآن المترجمة إلى الإنكليزية التي تمّت طباعتها بإشرافِ جمعيّةِ "اقرأ" الخيريّة ومقرّها في مدينة جدّة متوفرة في الولاياتِ المتّحدة الأمريكيّة مجّاناً.

غير أنّ الدعوة في العديدِ من الدّول العربيّة تُعتبر طريقاً يخدم هدفاً واحداً، ففي حين تُشَجَعُ على الدّعوةِ إلى الإسلام، تُعتَبَرُ الدعوة التي يقوم بها غير المسلمين عملاً تحريضيّاً ومحرّماً من قِبَلِ القانون أو السّياسة الحكوميّة، ففي الجزائر على سبيل المثال، يواجه أيّ شخص "يحرّضُ أو يجبرُ أو يستخدم وسائل إغرائيّة في سبيلِ تحويلِ مسلمٍ إلى ديانةٍ أخرى" غرامةً محتملةً تقدرُ بمليون دينارٍ جزائري (أو ما يعادل 12900 دولار أمريكيّ) وسجنٍ لمدة خمس سنوات. كما يمنع القانون صناعةَ أو تخزينَ أو توزيعَ موادّ مطبوعةٍ أو مسموعةٍ أو مرئيةٍ بغرضِ "زعزعة إيمانِ" المسلمين؛ أمّا في الكويت، لا يمنع القانونُ الكويتيّ الدّعوة لأي ديانةٍ غيرَ الاسلامِ فحسب بل إنه يُحرّمُ أيضاً التعليمَ الدينيّ المنظّم لديانات غيرَ الدّيانة الإسلاميّة. كان من نتائج ذلكَ القرار منعُ المدارس البريطانيّة في الكويت من تعليم الدّين المقارَنْ والذي يُعتبر أحد الموادّ الدّراسيّة المطلوبة في المنهاج الدّراسيّ البريطانيّ، وفي قَطَر يُعاقَبُ من يدعو إلى ديانة غير الإسلام بالسّجن لفترةٍ تصلُ إلى عشر سنوات كما أنّ عقوبةَ حيازةِ وسائل دعويّة غيرَ إسلامية

تصل للسّجن لسنتين، فضلاً إلى دفعِ غرامةٍ تقدر بـِ 10000 ريال قطري (2740 دولار أمريكي) كما يتمّ ترحيل الأجنبيّ الذي يُشتبَه بقيامه بنشاط تبشيري.

تُعتبر هذه الإجراءات نوعاً من سياساتِ الحمايةِ الاقتصاديّة التّقليديّة القديمة والتي فيها تقوم الحكومات بحماية الصّناعات غير المربحة من المنافسة من خلال دعمها ماليّاً أو من خلال فرض قيود على المستوردات. إنّ فكرة أنّ الدّين بحاجة للحماية بهذه الطريقة لن يعزّز عقيدة أتباع تلك الدّيانة، ولن يزيد من محاسن ومزايا هذا الدّين، وبلا شك ليس من صميم عمل الحكومة الجزائريّة، بأيّ شكل من الأشكال، منع "زعزعة إيمان" المواطنين الجزائريّين كما يقول القانون الجزائريّ.

سوف يدافعُ البعض عن هذه القوانين بحجّة أنّ الإسلام يجب معاملته معاملةً خاصّة لأنّه الدّين الصّحيح الوحيد. تحاولُ الحكوماتُ العربيّة على الطّرف المقابل تبرير هذه الإجراءات في سياقِ الاستثناءات الثقافيّةِ، وحتى في سياق المخاوف الأمنيّة، أي أنّ هذه الحكومات تخشى أنْ يؤدّي التبادُلَ الحرَّ للأفكارِ حول الأديان إلى الفتنة، لكن في حال وقعت هذه الفتنة، فإنَّ الجزء الأكبر من المسؤولية يقع على عاتقِ هذه الحكوماتِ العربيّة لأنّها حاولت ولسنوات عديدة المحافظةَ على التّناسقِ الاجتماعيّ عن طريقِ الإكراهِ بَدَلَ القبولِ الطوعيّ، كما أنَّها لم تسمح للعامّة بمناقشة الاختلافات الدّينيّة بشكلٍ منفتحٍ ومتحررٍ. إنّ اعتبار وجود معارضين محتملين هو سببٌ لقمع المعارضة الدّينيّة يعطي هؤلاء الحجة ليقولو ما يشاؤون.

إنّ ممارسات وسياسات أغلب الحكومات العربيّة تتعارض بشكلٍ جوهريّ مع المواثيقِ الدّوليّة التي وضعتها الأمم المتّحدة بخصوص حريّة المعتقد، فالمادّة الثامنة عشر من الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان تقول أنّ لكلِّ إنسان "الحقّ في حريّة الفكرِ والضمير والدين" وتَعْتَبِرُ الأمم المتّحدة هذا الحقّ مطلقاً وغيرَ مشروط "ولا يمكن تعديله بأيّ شكل من الأشكال من قِبَلِ أيّ دولة." ولا تسمح هذه المادّة

بأيّ قيدٍ على حريّة الفكرِ والضمير أو على حريّة تبنّي عقيدةٍ أو دين أو التخلّي عنهما مهما كان نوع هذا القيد."[3]

يمكن تأويل المادّة 18 على أنَّها تحتوي على صِيَغٍ متعددةٍ من عدم الإيمان إلى جانب الأيمان، بل إنّ ذلك هو ما صرّحت به لجنةِ الأممِ المتّحدة لحقوقِ الأنسان سنة 1933 عندما قالت: "تحمي المادّة 18 المعتقداتِ التوحيديّةِ واللاتوحيديّة والإلحادية والحقَّ في عدمِ الاعتقاد بأيّ دينٍ أو عقيدة."

كما تُبيِّن المادّة 18 بوضوح أنّ للنّاس الحريّةَ في تغيير ديانتهم أو معتقدهم، وهي نقطة يوليها المسلمون الراغبون بالرِّدَّةِ عن الإسلام اهتماماً خاصّاً، فمن خلالِ تخليهم عنِ للإسلام، يعرّض هؤلاء الأشخاص أنفسهم لاتّهاماتٍ محتملةٍ بالرِّدَّة، وهي "جريمةٌ" تستحقّ أنْ يُعاقَب مرتكبُها بالموت في نظر الكثير من المسلمين وبعض الحكومات العربيّة.

تمّ تضمين نصّ حريّة تغيير الدّين في المادّة 18 بطلب من تشارلز مالك، وهو مسيحيٌّ لبنانيّ كان عضواً في اللجنةِ الدّوليّة التي وضعت مسوّدة الإعلان إبّان الحربِ العالميّة الثانية. رغم أنّ "حريّة المعتقد" توحي ضمناً بحريّة تغيير المعتقد، إلّا أنّ إصرار تشارلز مالك على ذِكر ذلك صراحةً في المادّة 18 ناتجٌ عن تجاربهِ السابقةِ في لبنان وهو بلدٌ عُرف عنه حينئذ التّعايش المتآلف نسبيّاً بين مجموعاته الدّينيّة والعرقيّة المتعدّدة، وهو ما حوّله إلى ملاذ للهاربين من الاضطهاد الدينيّ،[4] غير أنّ عدّة دول عربيّة عارضت مُصطلح "تغيير الدّين" لأنّ قوانين الشّريعة تُعارِضُ الرِّدَّة عن الدّين وبسبب توجّسها من نشاطِ البعثاتِ التبشيريّةِ المسيحيّة، وقد أتى الاعتراض الأشدّ من المملكة العربيّة السّعوديّة التي أبدتْ، بشكل عامّ، اعتراضاً على ما اعتبرته تأثيراً ثقافيّاً غربيّاً في مسوّدة القرار، وعلّلت رفضها للمسوّدة بأنّ الحقّ في تَغيير الدّين "سوف يفتحُ الباب على مصراعيه أمام النشاط التبشيريّ والاضطرابات السّياسيّة

وربما يؤدي إلى نشوب الحروب."[5] إلّا أنّ الدّول المسلمة الأخرى قبلت بالمسوّدة في نهاية المطاف، في حين كانت المملكة العربيّة السّعوديّة هي الوحيدةَ التي لم تصوِّت لصالحه.[6]

بعد بضع سنوات، أُدخلّت المادّة الثامنة عشرة حرفيّاً في الميثاق الأوربي لحقوق الإنسان، والذي يُعتبر ملزِماً للدّول الأوروبيّة السّبعة والأربعين الأعضاء في المجلس الأوروبي حينئذٍ؛ غير أنّ محاولات إدراج هذه المادّة في العهد العالميّ للحقوق المدنيّة والسّياسيّة قوبلت بمعارضة من الدّول المسلمة مرّة أخرى وبشكلٍ خاصّ من قِبَلِ أفغانستان والمملكة العربيّة السّعوديّة واليمن والعراق ومصر؛ حيث كان موضوع الحقّ في تغيير الدّين حَجَرَ العثرة أمامَ قبولهم بالقرار.

تبنّت الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة مسوّدة العهد العالميّ سنة 1966 بعد أنْ حُذِفَتْ منه كلمة "تغيير" ليحلّ مكانها عبارة تقول أنّ كل شخص لديه "حريّة اعتقاد أو تبني العقيدة أو الدّيانة التي يختارها"، وأضاف العهد أنّه "لا يجوز إكراه أحدٍ على ما يَمنعُ حريتهُ في تبنّي العقيدةِ أو الدّين الذي يختاره." لقد مثّل هذا مراوغةً دبلوماسيّةً لضمانِ الموافقة على مسوّدة الإعلان التي في جوهرها لا تختلف عن مضمون المادّة 18 كونها سمحتْ للنّاس باختيار دينهم دونِ اللجوءِ إلى كلمةِ "تغيير" المثيرة للجدل. وفي سنة 1981 خفّفَ "إعلانُ الأمم المتّحدة لإلغاء جميع أشكال التعصّب والتّمييز على أساس الدّين أو المعتقد" من لغة المسوّدة قليلاً من خلال حذف كلمة "تبنّي"، لكنْ بغضِّ النّظرِ عن المصطلحات، يشير كلا الإعلانين صراحةً إلى حقّ النّاس في تغيير ديانتهم.

من بين الدّول الأعضاء في جامعة الدول العربية، كانت الجزائر وجيبوتي والعراق والأردن ولبنان وليبيا والمغرب والصّومال والسّودان وسوريا وتونس واليمن من بين الدّول التي صَادقتْ على العهد العالميّ للحقوقِ المدنيّة والسّياسيّة، فأصبحت هذه الدّول مُلزَمة ببنود هذا العهد نتيجةً لذلك؛ أمّا البحرين ومصر والكويت وموريتانيا فقد صادقت على العهد ولكنها أبدت بعض التحفّظات؛ حيث علّلت البحرين وموريتانيا

ذلك بأنّ للشّريعةَ الإسلاميّة الأولويّةُ على هذا العهد، وقد وقّعت جزر القمر عليه ولكنّها لم تصادق عليه في حين لم توقع عُمان وقطر والسّعوديّة والإمارات العربيّة المتّحدة على الميثاق ولم تصادق عليه.

وعلى الصعيد الدوليّ، دفع الإصرارُ المتزايدُ على قضايا حقوق الإنسان العديدِ من الدّول المسلمة إلى صياغة أنظمةٍ حقوقيّةٍ بديلةٍ لمواجهة الفكرة التي تقول بأنّ المسلمين على وجه الخصوص غيرُ معنيين بحقوق الإنسان وللتّصدي لما اعتبروه مفاهيمَ "غربيةً" من خلال تطوير بدائلَ تغني عن هذه المفاهيم، لكن في الواقع؛ كانت تلكَ محاولاتٍ لخلقِ بيئةٍ محدودة لحقوق الإنسان باستخدام قَدَاْسِةِ الإسلام ذريعةً للإتيان بهذه البدائل.

إنّ أحد أبرز الأمثلة الفاضحة عن هذه البدائل هو الإعلانُ الإسلاميّ العالميّ لحقوق الإنسان الذي أُقِرَّ سنة 1981 وتُرجم إلى الإنكليزيّة؛ وأوضحَتْ "أنّ إليزابيث مايرAnn Elizabeth Mayer" أنّه تمّ طمس الأجزاءِ الأكثرِ تقييداً والموجودة في النّصّ العربيّ للإعلان[7] حيث تبدأ المادّة 12أ في التّرجمة الإنكليزيّة بالقول أنّ: "لكلّ شخص الحقّ في التعبير عن أفكاره ومعتقداته طالما بقي ملتزماً بالحدود المنصوص عليها في القانون." إنّ هذه الترجمة تجعلُ الإعلان يبدو متوافقاً مع الأعرافِ الدّوليّة لأنّ التعبيرَ عن المعتقداتَ – بخلاف اعتناق المعتقدات – يمكن، وفي ظروفٍ معيّنة، أنّ يتمّ تقييدُه بالقانون. (انظر الفصل التالي.)

إنّ التّرجمة الإنكليزيّة للقرار مُضَلِلَةَ وغيرُ دقيقةٍ، حيث يقول النّصّ العربيّ، في واقع الأمر، أنّ "لكل شخصٍ الحقّ في التّفكيرِ والاعتقاد والتعبيرِ عن أفكارهِ ومعتقداتهِ دون تدخّلٍ أو معارضةٍ من قِبَلِ أيّ شخصٍ طالما أنه ملتزمٌ بالحدودِ المنصوصِ عليها في الشّريعة." المشكلة الأولى هنا هي أنّ النّصّ العربيّ لا يميز بين اعتناق المعتقد والتعبير عنه، فكِلا الأمرين خاضعان لضوابطَ قانونيّةٍ بشكلٍ يتعارض مع النّظرة الدّوليّة المقبولة، أمّا المشكلة الثانية فهي أنّ كلمة "القانون" الواردة في التّرجمة الإنكليزيّة لا

تعني القانون الأساسيّ بل تعني الشّريعة الإسلامية. لا يمكن في الحقيقة اعتبارُ الوثيقة إعلاناً للحقوق بقدر ما هي إعلانٌ بأنّ الشّريعة الإسلاميّة هي ما يحدّدُ الحقوقَ التي باستطاعة الناس التّمتّعُ بها؛ أضف إلى ذلك أنّه لا يمكنُ تحديدُ هذه القوانين بدقّة، لأنّ الشّريعة الإسلاميّة لا تُعتَبَرُ نظاماً قانونياً مدوَّناً، إنما تحتمل العديدِ من التأويلات والتفسيرات من قِبَلِ رجال الدّين.

يتضمّنُ "إعلان القاهرة لحقوق الإنسان في الإسلام" مشاكلَ مشابهة، وقد تمّ تبنّيه سنة 1990 من قِبَلِ منظّمة المؤتمر الإسلاميّ[8] التي تتألف من 57 بلداً، ويُوصَف هذا الإعلان بأنّه "دليلٌ أو مرشدٌ للدول الأعضاء في جميعِ مناحي الحياة." يشير هذا الإعلان إلى "الحقوق والحريّات الأساسيّة وفقاً للإسلام" ولا يتحدث عن حريّة المعتقد، بلْ يرفض التّمييز بين النّاس على أساس المعتقد الدينيّ. كما تُعتَبَرُ حريّة التّعبير مَصونةً "طالما أنَّها لا تتعارض مع مبادئ الشّريعة، وينتهي الإعلان بالقول أنّ "جميع الحقوق والحريّات المنصوصِ عليها في هذا الإعلان تتماشى مع الشّريعة الإسلاميّة" وأنّ "الشّريعة الإسلاميّة هي المصدرُ الوحيدُ لتفسير أو توضيح أيّة مادةٍ في هذا الإعلان."

تُوضِّح هذه الصّيغ "البديلة" مقاربة محدّدةً مع قضايا حقوق الإنسان، وهي صيغ لا يجب المغالاة في تقدير أهميتها، فكما تُبَيِّنُ "زيا ميرال Ziya Meral" هذه الحقوقُ معروفةٌ فقط لدائرةٍ صغيرةٍ من رجال الدّولة المسلمين والنّاشطين، وبالكاد تتِمّ الإشارة لها من قِبَلِ المسلمين أثناء النّقاشات حول انتهاكات حقوق الإنسان في العالم الإسلاميّ.[9]

إنّ الرِّدَّة عن الدّين أمرٌ قد يرحّب به المسلمون أو يدينوه، تبعاً للظرف؛ فهم يرحّبون بها عندما يرتدُّ أحدٌ ما عن الدّيانة المسيحيّة ويدخل في الإسلام، بينما يعتبرون خروج المسلم عن دينه جريمةً نكراء.

هنالك العديد من الاختلافات في وجهات النظر بخصوص ما يمكن اعتبارُه رِدَّة، وبخصوص العقوبة التي يجب تطبيقها، ولا يوجد نصّ واضح في القرآن بخصوص هذا الأمر، تقول إحدى الآيات، والتي كثيراً ما

يُسْتَشْهَدُ بها: "لا إكراه في الدّين" (سورة البقرة: الآية 256)، إلّا أنّ بعضهم يردّ بقولٍ يُنْسَبُ إلى الرسول "من يرتدَّ عن دينه يُقتل"، ويرى البعض أنّ الرِّدَّة تتجاوزُ تخلي الفرد عن معتقده الدينيّ ببساطةٍ، بل يجب النّظر إليها في سياقها التاريخيّ خلال حياة النبيّ، فعلى سبيل المثال يقول طارق رمضان:

> "اتّخذ النبيُ تدابيرَ صارمةً، في زمن الحرب فقط، ضدّ مَنِ اعتنقوا الإسلام رياءً ولغرضٍ وحيدٍ هو اختراق المجتمعِ الإسلاميّ والحصول على معلوماتٍ لتسريبها إلى العدو. كان هؤلاء في الواقع خونةً اقترفوا خيانة عظمى تستحقّ أنْ يعاقّب عليها بالموتِ لأنّ أفعالهم من شأنها أن تؤدّي إلى تدميرِ المجتمعِ المسلم."[10]

يرى عبد المعطي بيومي، البروفيسور في أكاديميةِ الأبحاثِ الإسلاميّة في القاهرة، أنّ الرِّدَّة عن الإسلام ليست كافيةً بحدِّ ذاتها للحكم على المرتدِّ بالإعدام، وقال في مقابلةٍ على محطة بي بي سي أنّ عقوبةَ الإعدام تُطَبَّقُ فقط إذا وُجِدَ أنّ الملحِدَ يعملُ بشكلٍ يتعارض مع مصالحِ المجتمعِ والأمةِ الإسلاميّة، وعمليّاً لا يُعاقَب الملحد بِتُهمَةِ تخليه عن الدّين وإنما بِتُهمَةِ الخيانة. أمّا عبد الصّبور شاهين، الكاتبُ الإسلاميّ والأكاديميّ في جامعة القاهرة، فيرى أنّ التخلي عن الدّين لا يُعتبرُ جريمةً بحدِّ ذاته، لكنّه يقدّمُ نظرةً أكثرَ محدوديّةً لما يمكن قبوله فيقول: "إذا تحوّل الإنسان من الإسلام إلى الكفر فيجب أنّ يظل الأمر مسألة شخصيّة يجب عدمُ المجاهرة بها، ولكن إذا جَاهَرَ الإنسان برِدَّته فإنَّ ذلك يرقى إلى التسبب بالفِتنَةَ، وبالتالي يُعتبر تصرّفه تصرّفاً مشابهاً لمن يحارب الإسلام، ويجب عند ذلك قَتلُهُ." إنّ ذلك يعني أنّ المرتدّين عن الدّين يفقدون حقّهم في حريّة التعبيرِ ويعاقَبون بالموت.[11]

لا يُعتبر مثلُ هذا النوع من المواقف إسلاميّاً صِرفاً؛ فالفيلسوف اليونانيّ أفلاطون، على سبيل المثال، يعتبر أنّ الإلحادَ والمعصية هي من أسباب ارتكاب الرّذائل، بالتّالي هي مشاكل يجب التعامل معها بالقانون، كما ويؤيّد أفلاطون في الجزءِ العاشر من كتاب القانون وضعَ الدّين تحت سُلطة الدولة، ومعاقبةَ

مَنْ يتحدّثون أو يتصرّفون بوقاحة مع الآلهة، وهذ فكرة لا تبدو غريبة للعرب في يومنا هذا. يقول أفلاطون:

"يجب أنْ يكون هناك قانون واحد يجعل الرّجال عموماً أقلّ عُرضة لانتهاك القانون بالقول أو الفعل أو ارتكاب الحماقات، لأنّه لن يُسمَح لهم بممارسة الشّعائر الدّينيّة التي تخالفُ القانون."

كما حَدَّدَ أفلاطون نوعين من غير المؤمنين يجب معاقبتهم تبعاً للقانون؛ الأول هو المنافق، والثاني هو الشخص الذي تمّ تضليله، فيكون بالتالي بحاجة لردعه وفرضِ قيودٍ عليه، حيث يضيف أفلاطون:

"دع أولئك الذين غيّروا قناعاتهم، بسبب افتقارهم للفهم لا بسبب خُبْثٍ أو طبيعةٍ شريرةٍ، ولْيرسلهمُ القاضي إلى دار الإصلاح وأنْ يحكم عليهم بمقاساةِ السّجن لفترةٍ لا تقل عن خمسِ سنواتٍ يُسمح لهم خلالها بالتواصلِ مع المواطنين الآخرين، باستثناء أعضاءِ المجلسِ الليلي، واجعلْ أعضاءَ المجلسِ يتناقشون مع المساجين فيما يخصّ تحسين صحّتهم الفكريّة، وعندما تنتهي فترة سَجنهم يجب إعادة من تعافى فكرُه إلى مجتمع العقلاء، لكن في حال لم يحدث ذلك، وفي حال تمّت إدانتهم مرّة أخرى، يجب أنّ يعاقَبوا بالموت."

يقول "آر أف ستالي R.F. Stalley" في كتابه "مقدمةٌ إلى قوانينِ افلاطون": "لا شكّ أنّ أفلاطون كان يتوقع من أعضاءِ المجلسِ الليلي أنْ يحوّلوا الملحدين إلى الدّين من خلالِ نقاشٍ فلسفيّ، ولكن بما أنّ أَمَلَ الملحدِ الوحيدَ في الحريّة – والنجاة في الواقع – يكمن في موافقته على إرشادات مرشديه، فإنَّ من الصعب أنّ تتّسم ظروفُ النّقاش بالإنصاف والحريّة، وبالتالي يُعتبَر وصف هذه الخُطوة بأنها "غسيل

للدّماغ" هو الوصفَ الأكثرَ دقَّةً".[12] أما النوع الأخطر من المذنبين فهم من يجمعون بين الإلحاد "وازدراء البشريّة" وهؤلاء يجب سجنهم مدى الحياة، يقول أفلاطون:

"لا تدع إنساناً حرّاً يقتربُ منه، وأتركه يحصل على وجبات طعامه التي يخصّصها له حُرّاس القانون من أيدي العبيد، وعندما يموت ألقِه خارجَ حدود الدّولة ولا تدفنْه."[13]

رسم "توماس مور" في كتابهِ "المدينةُ الفاضلة" صورةً تخيليةً لمجتمعٍ مثاليّ في بداياتِ القرنِ السادسِ عشر، وهو مجتمع يسود فيه التسامح الدينيّ إلّا مع الملحدين. آمن سكان المدينة الفاضلة بالحياة بعد الموت حين يُعاقب المذنب ويُكافأ التقي، وقد اعتُبِرَ ذلك ضرورياً للنّظامِ الصّحيح، فالنّاس سيحتقرون جميع القوانين والأعراف الاجتماعيّة علانيةً في حال لم يكن هنالك ما يردعهم. يقول "مور" في الكتاب:

"من يشك أنّ رجلاً لا يخشى شيئاً سوى القانون، ولا أملَ لهُ في الحياة بعد الموت، سيقوم بكل ما بوسعه ليلتفّ على قوانينَ دولتهِ بالحيلةِ أو ينتهكها بالعنفِ، لا من أجلِ شيء سوى إشباعِ غرورهِ الشخصيّ؟"

ومن هذا المنطلق لا يمكن معاملة غير المؤمنين كمواطنين يتمتّعون بحقوق المواطنةِ الكاملة. يضيف "مور":

"يجب ألّا يُمنحَ أيّ شخص يحمل مثلَ هذه الآراء أيّة مراتبَ شرفيّةٍ أو مناصب أو مسؤولياتٍ عامة، فهو مُصَنَّفٌ عالمياً بأنّه وضيعٌ وبليد، غير أنّهم لا يعاقبونه لأنهم مقتنعون أنّه لا يمكن إرغام شخصٌ على اختيار معتقد ما بالقوّة."

لا يختلف هذا عن فكرة "الموت المدنيّ" في الأردن اليوم حيث يُجَرَّدُ المرتدون عن الإسلام من جميع حقوقهم الاجتماعيّة الأساسيّة مثل الزّواجِ والميراث وحضانةِ الأطفال.

كان الفيلسوف الإنكليزيّ "جون لوك John Locke" مؤيّداً للحريّة الدّينيّة، فقد قال في رسالةٍ كتبها سنة 1689 بعنوان "رسالة في التّسامح": "لا يحقّ لأيّ إنسانٍ بأيّ شكلٍ من الأشكالِ تجريدُ أيّ شخصٍ من حقوقهِ المدنيّة بحجّة انتمائه إلى كنيسةٍ أو ديانةٍ أخرى، كما لا يحقّ لأيّ شخص أو كنيسة أو حتى أحدِ دول الكومونويلث مصادرةُ الحقوقِ المدنيّة أو الممتلكات باسم حمايةِ الدّين."[14]

اعتبر "لوك" التنوّع الدينيّ أمراً مفيداً وليس سبباً للاضطرابات الأهلية، تلك الاضطرابات التي يَرى أنَّها تحدثُ نتيجة محاولة محاربة التنوّع الدينيّ، لكنّه وَجد أنّه من الصعب تقبّل الملحدين بحجّة أنّ إطلاق العنان لهم يمكنُ أنْ يوهنَ العقيدةَ الدّينيّة للأمّة، وبالتّالي سيقوّض قيمها الأخلاقية؛ كما شكّك "لوك" بنزاهة الملحدين حيث يقول: "إنّ الوعود والمواثيق والأَيْمان التي تمثّل روابط المجتمع ليس لها أيّة قيمةٍ بالنّسبة للملحدين، لأنّ الابتعاد عن الله – ولو بالفِكر فقط – سيؤدّي إلى حلّ هذه الرّوابط."

إنّ النّظريّة القائلة أنّه لا يمكن الوثوق بالملحدين – لأنهم لا يخشون العقوبة الإلهيّة إنْ كذبوا أو أخلّوا بالوعود – وقّرت أساساً قانونيّاً للتّمييز الذي استمرّ في إنكلترا لمدّة قرنين بعد وفاة "لوك"، فقد مُنِعَ الملحدون من شغل مناصبَ محدّدةٍ، أو أنْ يُدْلُوا بشهادتهم في المحاكم لأنّها كانت تشترط على الشّاهد أنّ يؤدّي قَسَماً دينيّاً، لكن في نهاية الأمر تمّ التغلّب على هذه النّقطة من خلال القبول "بتأكيدات" غير دينيّة كبديلٍ للقَسَم. وفي سنة 1880 انتُخِبَ "تشارلز برادلاف Charles Bradlaugh"، وهو ملحد وعضو في الحزب الجمهوريّ، عضواً في البرلمان عن مقاطعة "نورثامبتون Northampton" وعند وصوله إلى مجلسِ العموم طَلَب أنّ يؤدي "التأكيد" غير الدّينيّ بدلاً من قَسَمِ الولاء، غير أنّ البرلمان رَفَض طلبه فدار نقاش حادّ كانت نتيجته خسارة "برادلاف" لمنصبه؛ بعد ذلك أُجريت انتخابات جديدة شارك "برادلاف" فيها ونجح ليتمّ حرمانه من مقعده مرة أخرى. تكرّر هذا الأمر ثلاث مرّات لكن في سنة

1886 أعيد انتخاب "برادلاف" للمرّة الرّابعة وسُمِحَ له عندها بتأدية "التّأكيد" غير الديني بدل القَسَم لشغل مقعده في البرلمان.

من الصعب تحديد الموقف القانونيّ من الرِّدَّة في الدّول العربيّة بدقّة، وأحد أسباب ذلكَ أنّ النّظم القانونيّة في هذه الدّول هي مزيجٌ من القوانينِ الدّينيّة والعلمانيّةِ. إنّ قوانين الشّريعة الإسلاميّة في بعض الدّول هي المهيمنة، بينما تُطبَّق قوانين الشّريعة على قوانين أحوال الشّؤون المدنيّة كالزّواجِ والطّلاقِ ... إلخ في الدّول الأخرى. قد يشوب بعضَ نصوص الشّريعة الإسلاميّة بعضُ الالتباس والإشكال لأنها نصوصٌ غير وضعيّة (أي ليست من وضع البشر) وغيرُ مدوّنة على شكل قانون، ولأنها تقبل الكثير من اجتهادات القضاة وتأويلاتهم، أضف إلى ذلك أنّ ما تنصّ عليه نصوص الشّريعة – أو يبدو أنَّها تنصّ عليه – قد لا يعكس بالضرورة التطبيق الفعليّ لهذا القانون، والمضمون الحقيقيّ للّنصّ الشّرعيّ قد لا يتطابق بالضّرورة مع تطبيقه فعلياً، فالمرتدّون عن الإسلام يتمّ التعامل معهم وفقاً للمزاج العامّ للمجتمع بقدر أكبر ممّا تنصّ عليه الشّريعة الإسلاميّة.

ليس هناك قوانين وضعيّة في الجزائر ومصر والأردن ولبنان وليبيا والمغرب وعُمان وتونس ضدّ الرِّدَّة عن الإسلام، ولا تُعتبر الرِّدَّة خروجاً عن القانون في دولة البحرين رغم أنّ الدّستور ينصّ على أنّ قانون الشّريعة "مصدر أساسيّ" للّتشريع ما يعني أنّ الرِّدَّة قد تُعتبر أمراً غيرَ قانونيّ، أمّا في العراق فتَمنعُ القوانين والتّشريعاتُ الحكوميّة الرِّدَّة عن الإسلام؛ لكنّ القوانينُ المدنيّة وقانون العقوبات لا ينصّان على أيّة عقوبةٍ على الرِّدَّة.

تُعتَبر الرِّدَّة عن الإسلام في كلٍّ من الكويت وقطر والسّعوديّة والسّودان والإمارات واليمن جريمةً عقوبتها الموت من الناحية النّظريّة، لكن من النّاحية العمليّة لم تطبَّق أيّ عقوبةِ إعدام بتهمة الرِّدَّة في أيّ من هذه الدّول، كما لم تحصل أيّة عملية إعدامٍ بِتُهمة الرِّدَّة في السّعوديّة منذ أكثر من عشرين عاماً وفقاً لوزارة

الخارجيّة الأمريكيّة،[15] وفي الحالات النّادرة التي يصبح فيها حكم الإعدام ممكناً، تتفادى هذه الدّول تطبيقه عادةً.

فعلى سبيل المثال صادفت السُّلطات الكويتيّة سنة 1996 أول حالةِ رِدَّة عن الإسلام منذ الاستقلال عندما ارتدَّ حسين علي قمبر، وهو شيعيّ، عن الإسلام وتحوّل إلى المسيحيّة وغيّر اسمه إلى "روبرت"، وكان قمبر قد انفصل عن زوجته وأصبح موضوعُ ردّته معروفاً أثناء جلسة محكمةٍ بخصوص حضانة أطفالهما. بموجب الشّريعة الإسلاميّة بُذلتِ الكثير من الجهود لثني قمبر عن قراره ولكن دون جدوى؛ عند ذلك بدأ الإسلاميَون بمضايقته ورفع الدّعاوى القضائيّة المطالبة بإدانته بتهمة الرِّدَّة، ثم تمّ تحويل القضية إلى المحكمة، فحَكَم أحد القضاة على قمبر بالموت. وَضَعَ ذلك الحُكمُ السُّلطاتِ الكويتيّة في مأزقٍ لأنّه لم يكن هناك شكّ – في نصوص الشّريعة – أنّ قمبر مرتدّ، فراحت تبحث عن حلّ للخروج من هذا المأزق فأصدرت له جوازَ سفرٍ وسمحت له بمغادرة البلاد بهدوء.[16]

حدثت قصّة مشابهة في اليمن سنة 2000 وذلك عندما ارتدّ محمّد عمر حجي اللاجئ الصّومالي عن الإسلام واعتنق المسيحيّة؛ فاعتُقِلَ ووُجِّهَت إليه تهمة الرِّدَة، إلّا أنّ كثيراً من المحاولات أُجريت خلف الستار لتفادي حكم الإعدام، وانتهتِ القضيّة بمنحِ حجي إعادة توطين طارئ له ولزوجته ولطفله في نيوزيلاندا.[17]

من بين اثنتين وعشرين من الدول الأعضاء في جامعة الدّول العربيّة، تُصّنف السّعوديّةَ والسُّودانَ من قِبل قانون الولايات المتّحدة الأمريكيّة للحريّة الدّينيّة الدّوليّة على أنّها "دولٌ تثير قلقاً استثنائياً." بعد انفصال جنوب السّودان عن السّودان واستقلاله سنة 2011، اتّخذ الشطرُ الشماليّ، والذي ما يزال يعرف بالسّودان، طابعاً إسلاميّاً أكثر قوّة وبروزاً، فوفقاً لتقديراتٍ حكوميّةٍ يشكّل المسلمون 97% من السّكان، وأغلبهم من السنّة، بينما يشكّل المسيحيّون ما نسبته 3%. ينقسم المسلمون في هذا البلد في فِرَقٍ وطوائفَ

دينيةٍ متنوّعةٍ، كالشّيعة والصّوفيين والإخوان الجمهوريون وعدد متزايد من السلفيّين. إنّ التّمييز والانتهاكاتِ الدّينيّةَ والطّائفيّة منتشرةٌ في السّودان رغم أنّ التعصّب الدينيّ يغلب عليه البعد العرقيّ، وفي هذه الدوّامة فإنَّ الاتهامات بالرِّدَّة هي أمرٌ شائعٌ نوعاً ما، ولكن نادراً ما ينتج عنها اتهاماتٌ رسميّةٌ، وقانون الرِّدَّة في السّودان يتّصف بالغموض ويجرّم والرِّدَّة وما يشجّع على الرِّدَّة.

تميل الرِّدَّة في السّودان إلى كونها متعّلقةً بالاختلافات الدّينيّة والعرقيّة أكثر من كونها متعلقة بالتخلّي الفعليّ عن المعتقد، ففي سنة 2011 على سبيل المثال اعتقلت الشرطة في جنوب الخرطوم 150 رجلاً وامرأة وطفلاً أغلبهم من العِرق الهوسيّ بِتُهمةِ الرِّدَّة، مستندين في ذلك إلى الطريقة التي كانوا يؤدّون فيها الصّلاةَ الإسلاميّة، فاحتُجِز بعضهم شهرين تقريباً ليفرَجَ عنهم جميعاً في نهاية المطاف، وذلك بعد تعليمهم "كيفيّة أداء الشعائر الدّينيّة بالشّكل الذي تراه السلطة السودانية صحيحاً."[18] يشدّد القانون السّوداني على منحِ كلّ متهمٍ بالرِدّة فرصةً للتوبة؛ رغم أنّ الرِّدَّة تُعتبرُ جريمةً عقوبتها الإعدام، وهذا ما يفسّر عدم حدوث حالات إعدام، وقد يفسّر أيضاً عدم الجدّيّة في التّعامل مع قانون الرِّدَّة.

في المقابل، هنالك من يعتقد أنّ قانون الرِّدَّة لا يُطَبَّقُ على النحو الكافي، كما يَظهر في خبر نُشر في صحيفة سودان تريبيون:

> "قال عمار صالح رئيسُ المركز الإسلاميّ للدّعوة والدّراسات المقارَنَة أنّ حالاتِ الرِّدَّة والإلحادِ في السّودان في ارتفاعٍ مستمرٍ؛ متهماً السُّلطات بالتّقصير في معالجة هذه القضيّة، وقال في مؤتمر صحفيّ عَقده الثلاثاء أنّ عدد المرتدّين عن الإسلام في الخرطوم وحدها وصل لنحو 109 مرتدين؛ موضحاً أنّ هذا الرقم في تزايد مستمرّ ومخيف خاصّة مع تواجد الملحدين والمثليّين جنسياً. هاجم صالح الحكومة السّودانية لعدم قيامها برَدٍّ حازم ضدّ المبشّرين الذين يعملون بكل جرأة في السّودان، وأضاف أنّ

أيّ شخص يُنكر وجود النّشاط التبشيري أو الزيادة في عدد الذين يتحولون إلى المذهب الشيعيّ هو إما يعيش في المريخ أو في حالة إنكار. ناشدَ صالح الجهات الرسميّة والمجتمع السّوداني الوقوفَ في وجه حملات التبشير بالنّصرانية والعثور على حلٍّ طويلِ الأمد للمشكلة، وأضاف أنّ جهودَ الحكومة في هذا السياق متواضعةٌ مقارنةً بجهود حملات التبشير بالنّصرانية."[19]

قد يكون كثير ممّا سبق مجرّد رُهاب ليس أكثر، ولكنّه أيضاً علامةً على الغليان الدينيّ متعدّدِ الأبعاد في السّودان. ذَكَرت وزارة الخارجيّة الأمريكيّة في تقريرٍ لها عن الحريّة الدّينيّة نُشِرَ سنة 2002 ما يلي:

"في شهر كانون الأول/ديسمبر قام أشخاص مجهولون بنشرِ ملصقاتٍ في الخرطوم تحثّ المسلمين على عدم الاحتفال بأعياد الميلاد ورأس السّنة؛ مشدّدين على أنّ الاحتفال بأعياد غير المسلمين يرقى إلى رتبة الكفر. خلقَ تزايد أعداد السلفيّين بين المسلمين صراعاً مع المسلمين غيرِ السلفيّين، ففي التّاسع والعشرين من شهر كانون الثاني/فبراير حثّ أفرادٌ من مجموعةِ أنصار السنَّة في الخرطوم عامّة المسلمين على الامتناع عن الاحتفال بعيد المولد النّبويّ الشّريف، ممّا أدّى إلى ملاحقتهم من قبل ناشطين صوفيّين. في اليوم التالي اندلعت مواجهاتٌ عنيفةٌ بين الطرفين مخلّفة ما بين 35 إلى 50 مصاباً."

في الطّرف المقابل تبدو الأمور في الدّول التي ليس فيها قانون محدد بخصوص الرِّدَّة أكثرَ تعقيداً، فلا يوجد في الأردن مثلاً قانونٌ واضحٌ يَمنَعُ المسلمين من التخلّي عنِ الإسلام، كما لا يوجد عقوبات قانونيّة رسميّة لذلك، غير أنّ الحكومة الأردنيّة لا تعترف رسميّاً بحالات الرِّدَّة عن الإسلام؛ الشّيءُ الذي قد

يكون له عواقبُ خطيرةٌ على المرتدّين حيث تستمر معاملتهم على أنّهم مرتدّون عن الإسلام بدلاً من معاملتهم على أنّهم معتنقون لديانة أخرى أو ملحدون.

إنّ قانون الأحوال الشخصيّة في الأردن يُعمل به من قِبل نوعين من المحاكم، وهي محاكم شرعيّة للمسلمين، ومحاكم أخرى لأتباع الدّيانات غير الإسلاميّة المعترف بها. يُعرَض المرتدّون عن الإسلام على المحاكم الشّرعيّة – بشكاوى ذويهم أو أشخاص آخرين – ويتمّ تجريدهم من الحقوقِ المهمّةِ، وهذا عملياً هو "الموت المدنيّ".

> "استمعتْ المحاكم الشّرعيّة في الأردن بين عامي 2005 و2006 إلى حالتَيْ رِدَّة عن الإسلام، ففي كانون الثاني/يناير من سنة 2005 أعلنت محكمةُ الاستئناف الشّرعيّة عن وضعِ مسلمٍ تحوّل إلى المسيحيّة تحت وصاية الدّولة، وجرّدته من حقوقهِ المدنيّة، وأعلنت أنّ زواجه باطلٌ، كما وأعلنت المحكمة أنه لم يعد له أيّ حقّ في الميراث وأنّه لن يُسمح له بالزّواج مرّة أخرى من زوجته إلّا إنْ عاد إلى الإسلام، كما أنّه حُرِمَ من اعتباره تابعاً لأي دينٍ آخر؛ وتضمَّن قرار المحكمة احتمال تحويل رعاية الطفل القانونيّة والجسديّة إلى شخصٍ آخر. عندئذٍ غادر هذا المرتدّ الأردن وحصل على لجوءٍ واستقر في دولةً أخرى. حصلت حالة مشابهة سنة 2006 عندما قرّرت المحكمة تجريد مواطن أردنيّ آخر من أوراقه الثبوتية حارمةً إياه من حقوقهِ الاجتماعيّة الأساسيّة."[20]

كما هو الحال في الأردن، لا يوجد في مصر قانون محدّد يحرّمُ الرّدَّة ولكن حَصَلت حالة "موت مدنيّ" أخرى عندما وُضِعَ طفل في السابعة من عمره تحت وصاية جدّه البالغ من العمر 73 عاماً لأنّ والدَي الطّفل غيّرا دينهما واعتنقا الدّيانة البهائية. قال الجدّ واسمه محمّد عبد الفتّاح أنّه ذهب إلى المحكمة عملاً بنصيحة المفتي المصريّ العامّ حيث قال: "نصحني المفتي أنْ أعتبر أبنتي قد ماتت، وأن أرفع دعوى

قضائيّة للمطالبة بالوصاية على حفيدي." غير أنّ قرار المحكمة لم يُطبَّق لأنّ والدَي الطفل كانا قد غادرا مصر مصطحبين طفليهما.[21]

يُعتَبرُ اللجوءُ إلى الدعاوى القضائية في النّزاعات الدّينيّة أمراً شائعاً جدّاً في مصر، ويستخدمها الإسلاميّون لمضايقة من لا يتّفقون معهم في الرّأي على وجه الخصوص، حتّى لو كانوا مسلمين. يروي ناصر أبوزيد، أستاذُ الأدبِ العربيّ في جامعةِ القاهرة، كيف بدأت المشكلة سنة 1992 عندما تقدّمَ لوظيفةِ مدرّس في الجامعة. دَرَستِ اللجنة المسؤولة عن التّرقية الوظيفيّة ثلاثة تقارير عن عمله، وقررت أنّ اثنين منها كانا يصبان في مصلحته، أمّا التقرير الثالث الذي تمّ تحضيره من قبل الدّكتور الإسلاميّ عبد الصّبور شاهين فقد شكّك في معتقداتِ أبو زيد الدّينيّة، مدّعياً أنّ بحث ابو زيد تضمّن "إهانةً واضحة للعقيدة الإسلاميّة" ممّا دفع باللجنة إلى رفض تعيينه في المنصب بمعارضة سبعة أصوات يقابلها موافقةُ ستة أصوات. لم يكتفِ الدكتور شاهين بحرمان أبو زيد من ترقيته في الوظيفة، بل كتب مقالاً في إحدى الصحف يتهم فيه أبو زيد بالرِّدَّة، فدفعت تلك المقالة بدورها مجموعةً من المحامين الإسلاميّين إلى رفع دعوى قضائيّة ليجبروا أبو زيد على طلاق زوجته بذريعة أنّ المرأة المسلمة لا يحقّ لها الزواج من مُرتَدّ عن الإسلام، وعندما فاز المحامون بالدّعوى لم يكن أمام أبو زيد سوى الهروب من مصر برفقة زوجته.[22]

وجدت الكاتبة المصريّة، والمدافعة عن حقوق المرأة نوال السعداوي، نفسها في موقف مماثل سنة 2001 عندما سعى الإسلاميّون في طلاقها من زوجها بعد 37 عاماً من الزواج، بحجّة أنّ آراءها تخرجها من الإسلام، ويبدو أنّ السّبب الرّئيس وراء ذلك كان مقابلةٌ أجرتها السّعداوي وقالت فيها أنّ تقبيلَ الحجرِ الأسود في الكعبة ما هو إلّا "بقايا طقوس وثنيّة"[23] لكن لحسن حظّ السّعداوي، قُوبل طلبُ الطّلاقِ بالرّفض.

كلتا هاتين الحالتين أصبحتا ممكنتين بسبب وجود الحِسبة، وهي مبادئ قانونيّةٌ إسلاميّةٌ مبنيّةٌ على فكرة المسؤوليّة الجماعيّة، أي أنّ لكلّ مُسلمٍ دور يقوم به ليساهم في عمل الخير ومحاربة الشر. بعد نجاح الإسلاميّين في القضيّة التي رفعوها ضدّ أبو زيد أصبحت الحِسبة في مِصر عبارة عن ميثاقٍ للفضوليين، ممّا سمح لذوي الميول الدّينيّة – وغير الدينية أحياناً – برفع عددٍ لا يُحصى من الدّعاوى القضائيّة الكيديّة ضدّ شخصياتٍ مرموقة يُشكّ في معتقداتها الدّينيّة.

من النّاحية العمليّة كانت هذه دعاوى قضائيّة خاصّة، لم يُعرَض كثيرٌ منها أمام القضاء، ولكن كان لها تأثير مخيف. في سنة 2009 اتّهمت الشّبكةُ العربيّة لمعلوماتِ حقوقِ الإنسان ومقرُّها في القاهرة أنّ حكومة مبارك تسمح لبعض القضايا بالوصول إلى المحكمة رغم أنّ المتّهمين فيها لم يكن لهم أيّة مصلحة حقيقيّة أو وضع قانوني فيها، وأضافت قائلة: "أصبحت هذه الحالات غير القانونيّة أصلاً تشكّل تهديداً يخيّم فوق رؤوس جميع المثقّفين في مصر، فبدلاً من عقد نقاشٍ منطقيٍّ مفتوح مبنيّ على آراءِ المثقّفين، يقوم مسؤولو الحِسبة بملاحقتهم قضائيّاً ويرفعون ضدّهم سلسلة من الدعاوى القضائيّة،[24] ويُقال أنّ محامياً يُدعى نبيه الوحش رَفَع أكثر من 1000 قضيّة حِسبة خلال 10 سنوات.[25]

بغضّ النّظر عن الإجراءات القانونيّة، يبقى احتمال أنْ يقوم بعض الحمقى بتسوية الأمور بأنفسهم ممكناً، ففي سنة 1992 قام عضوان من الجماعة الإسلاميّة – وهي حركة مسلّحة – بإطلاق النار على فرج فودة وقتلوه، وفودة علماني بارز كثيراً ما كان يَسخرُ وبلا هوادة من شخصيّات إسلاميّة بارزة. رحّبت جماعةُ الإخوان المسلمين علناً بقتل فودة، وأثناء محاكمة القتلة وَصَف أحدُ علماء الأزهر، وكان عضواً سابقاً في جماعةِ الإخوان المسلمين، تصرُّف القاتليْن بأنه عملٌ مبرّرٌ لأنّ السُلطات المصريّة فشلت في معاقبةِ فودة بعد أنِ ارتدّ عن الإسلام.[26] وبعد ذلك بعامين طُعِنَ نجيب محفوظ – العربيّ الوحيد الذي فاز بجائزة نوبل للأدب – في رقبته خارج منزله بعد أنِ اتّهمته بعض الجماعات المسلّحة بالرِّدّة. نجى

محفوظ، الذي كان في الثانية والثمانين من عمره في ذلك الوقت، من محاولة الاغتيال تلك، ولكنّها تسبّبت في شللٍ جزئيّ في يده اليمنى.

يتضح مما سبق أنّه ما يزالُ أمامَ الدّول العربيّة طريقٌ طويلٌ جداً قبل أنْ تصبح حريّة العقيدة واقعاً ملموساً، وليس مردّ هذه المشكلة السّياساتُ الحكوميةُ فحسب، وإنما مجتمعات لا تتقبل أنّ ما يختاره الفرْد من اعتقادات هو أمرٌ يعنيه وحده ولا يعني أحداً سواه.

الفصل الثامن: الحقّ في الإساءة والتسبّب الصّدمة والإزعاج

إن تبادل الأفكار والمعتقدات هو أحد نشاطات البشر الطبيعية، ولولا تجريب النّاس للأفكار، ولولا تعبيرهم عن آرائهم واختلافهم في الرّأي لبقيت الحضارة تراوح في العصر الحجريّ، ولذلك لا يمكننا الادعاء بأنّ أفكارنا هي مُلكنا ما دمنا نحتفظ بها لأنفسنا، فنحن بحاجة لأن يُسمح لنا بالتّعبير عنها، وبحاجةٍ للقيام بذلك التّعبير رِفقة الآخرين أحياناً. إنّ الحقّ في حرّية الفكر والعقيدة وحرّية التّعبير وحرّية تكوين الجمعيات مترابطة فيما بينها، وقد تمّ جمعها معاً على التّوالي في المواد 18 و19 و20 من الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان.

وخلافاً لحرّية المعتقد، لا تُعتبر حرّية التّعبير ولا حرّية تكوين الجمعيات حقوقاً مطلقةً، لأنَّ ممارستها قد تتعارض أحياناً مع حقوق الآخرين، ولذا قد يكون من الضّروري أحياناً فرض بعض القيود من أجل تحقيق توازن بين هذه الحقوق التي قد تتعارض مع بعضها البعض، لكن وفقاً للعهد الدّوليّ للحقوق المدنيّة والسّياسيّة، يجب أنْ تبقى مثلُ هذه القيود في حدّها الأدنى، فيقول هذا العهد مثلاً أنّ أيّة قيود على حرّية التّعبير لا يجب ألّا تكون محدّدة بالقانون فحسب، بل يجب أيضاً أنْ تكون ضرورية من أجل احترام حقوق الآخرين وسمعتهم أو لحماية الأمن القوميّ والنّظام العامّ أو الصّحة العامّة أو الآداب العامّة.

ترى المحكمة الأوروبيّة لحقوق الإنسان أنّ المطالَبات بالتّعدّدية والتّسامح وسعة الأفق كثيرةٌ جدّاً – على الأقلّ في المجتمعات الديمقراطيّة – قد تصل إلى المطالبة بحماية حرّية التّعبير حتى لو تسببت في الإساءة إلى الآخرين. وفي قرارٍ تاريخيّ صدر سنة 1976 قرّرتِ المحكمة الأوروبيّة أنّ حرّية التّعبير لا تنطبق على الأفكار "الإيجابيّة أو الأفكار غير المؤذية أو ما يأتي منها على سبيل اللامبالاة، بل تنطبق أيضاً على الأفكار التي تسيء وتصدم وتزعج أيّ شريحةٍ من السّكان."

ترفضُ معظم الحكومات العربيّة وكثيرٌ من المسلمين هذا الأمر رفضاً قاطعاً، ويرون أنَّه يجب حماية الأشخاص المتديّنين من التّعليقات التي تحمل إساءةً ما لهم أو تضعهم موضع السّخرية. ولو طُبِّقَ هذا في الماضي لتمّ سجْن الكثير من المفكّرين والكُتّاب الأكثر أهميّة في التّاريخ الإسلاميّ، أمّا محاولة تطبيقه في الوقت الحاضر فينتج عنها جميع أنواع الممارسات التمييزيّة والمُجحفة، فكلّ ما يحتاجه الأمر

هو أنْ يزعم أحدهم أنَّه تعرّض للإساءة، وهذا ما يخلق فرصاً لتصفية الحسابات، إمّا عن طريق المحاكم أو في الشّارع، وغالباً ما يكون ذلك لأمورٍ تافهةٍ للغاية.

وبعد بضع سنوات من إصدار المحكمة الأوروبيّة حكمَها بخصوص الحقّ في الإساءة، راحت منظّمة إسلاميّة تُعرَف باسم المجلس الإسلاميّ في أوروبا تدفع في الاتجاه المعاكس، فأصدرَتْ هذه المنظّمة في سنة 1981 الإعلان الإسلاميّ العالميّ لحقوق الإنسان الذي يقول فيما يقول أنَّه لا يجوز أنْ يُسمَحَ لأحدٍ "بازدراء المعتقدات الدّينيّة للآخرين أو السّخرية منها أو التّحريض علانية على العداء ضدّها أو الاستخفاف بالمشاعر الدّينيّة للآخرين. بعبارة أخرى سعى الإعلان الإسلاميّ لمنح حصانةٍ خاصّة للمعتقدات الدّينيّة بوصفها تختلف عن غيرها من أشكال الاعتقاد. وإنِ استبدلنا كلمة "دينيّة" في الإعلان بكلمة "سياسيّة" لأصبحت المشاكل أكثر وضوحاً، أي سيؤدّي ذلك إلى تقييد النّقاش العام. وما يدعو للسّخرية غير المقصودة، سعى الإعلان الإسلاميّ أيضاً إلى حظر نشر "الباطل أو الزّور"، إذ سيقول الملحدون في هذه الحالة أنَّه يجب حظر الدّين نفسه لأنَّهم يرونه زوراً.

بين عامي 1999 و2011، وبطلبٍ من الدّول الإسلاميّة بشكل أساسيّ، أصدرتِ الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة، ولجنة الأمم المتّحدة لحقوق الإنسان، ومجلس حقوق الإنسان في الأمم المتّحدة، سلسلةً من القرارات لمواجهةِ "تشويه الأديان". انتُقِدَتْ هذه القرارات بدعوى أنّها تتعارض مع حرّية التّعبير، وتعكس إلى حدّ ما السّياسةَ الدّوليّةَ في ذلك الوقت، أيْ أنّها كانت استجابةً للتعصّبِ والتّحاملِ الذي ازداد حينها ضدّ المسلمين عموماً، وخاصّة في الغرب، وَوصمِ عامّة المسلمين بالإرهاب؛ لكن من ناحية علاج هذه المشكلة، كانت هذه القوانين غيرَ مدروسةٍ وتسير في الاتجاه الخاطئ.

تقول إحدى المنظّمات التي تدافع عن حرّية التّعبير في المادة 19: "إنّ مفهوم التّشهير بالدّين غير واضح، ويفتقر إلى أساس متين في القانون الدّوليّ." فمصطلح "تشهير" بمعناه الطبيعيّ يشير إلى الإساءات غير المبرّرة لسمعة شخصٍ ما. ومثله مثل المعتقدات الأخرى لا يمكن أنْ تقول أنّ الأديان لديها سمعتها الخاصة بها، وقد وَردَ في تقريرٍ للأمم المتّحدة أنّ حماية السّمعة في القانون الدّوليّ "تهدف إلى حماية الأفراد، وليس القيم المجرّدة أو المؤسّسات."[1]

يعالجُ القانون الدّوليّ التعصّب الدّينيّ والأشكال الأخرى من التّحامل والتّعصب بوصفها خطابَ كراهية. ويدعو العهدُ الدّوليّ للحقوق المدنيّة والسّياسيّة على سبيل المثال الحكوماتِ لحظرِ "الدّعوة إلى الكراهية

القوميّة أو العنصريّة أو الدّينيّة التي تشكّل تحريضاً على التمّييز أو العداوة أو العنف." وقد وَرَد في المادة (19):

"من الأنسب حظر أشكال معينة من خطاب الكراهية، غير أنّ تقييد النّقاش في القضايا الخلافيّة، بما في ذلك الدّين، لن يعالج المشاكل الاجتمّاعيّة الكامنة وراء التّحامل والتّعصّب، والتي تقوّض المساواة. يحتاج الأمر بدلاً من ذلك إلى نقاشٍ مفتوحٍ حول هذه القضايا للتّعريف بالضّرر الذي قد يسبّبه التّحامل والتّعصب، ولمحاربة القوالب النّمطية السّلبيّة (أو التّعميم الزائد)."

في سنة 2009، أصدر ثلاثة من المقرّرين الخاصّين بالأمم المتّحدة بياناً مشتركاً يعزّز هذه النّاحية:

"علينا ألا نغفل غايتنا في إيجاد أنجع السّبل الممكنة لحماية الأفراد من الدّعوة إلى الكراهية والعنف من قِبل أفرادٍ آخرين؛ وإنّ خطاب الكراهية ليس سوى عَرَضٍ لهذه الظاهرة، أي التجلّيَ الخارجيَّ لمكنوناتٍ أعمقَ بكثيرٍ ألا وهي عدم التسامح والتعصّب الأعمى؛ ولذلك فإنّ الرّدودَ القانونيّة، كالقيود على حرّية التّعبير وحدها، هي أبعدُ من أنْ تكون كافيةً لإحداث تغييرات حقيقية في العقليّات والتّصورات والخطاب.

لمعالجة الأسباب الجذريّة للتعصّب نحتاج إلى مجموعةٍ أوسعَ من التّدابير السّياسيّة، كالحوار في مجال الثقافات مثلاً، أو بتكثيف التّعريف بالتّسامح والتّنوّع."[2]

وأضاف هؤلاء أنَّه ينبغي أنْ تتضمّن هذه السّياسات تعزيزَ حرّية التّعبير بدلاً من تقييدها فيقولون: "إنّ الرّدَّ الاستراتيجيّ على خطاب الكراهية هو مزيد من الكلام." كما حذّروا من اعتبار قضيّة "التشهير" بالدّين مساويةَ لقضيّة العنصريّة التي يرون أنّها تقوم في كثير من الأحيان، وبشكلٍ واضح، على أفكار باطلةٍ عن التفوّق العنصريّ، فغالباً ما تدّعي الأديان التفوّق، وبالتّالي "فإنّ العناصر التي تشكّل تصريحاً عنصريّاً قد لا تكون مساوية للعناصر التي تشكّل تصريحاً يشهر بالدّين على هذا النحو."

وعلى المستوى العمليّ البحت، وجدتْ دراسة للأمم المتّحدة أنّ القوانين الوطنيّة التي تحمي الدّين تفشل في حماية الحقوق الدّينيّة للأفراد وتكبتُ أيّ حوارٍ يمكن أنْ يكون "بنّاءً وصحيّاً وضروريّاً"، وغالباً ما ينطوي تطبيق هذه القوانين على التّمييز لأنَّها تحابي الدّين السّائد في بلد ما. تقول الدراسة:

"وهناك أمثلة كثيرة على اضطهاد الأقلّيات الدّينيّة والمعارضين والملحدين وغير الموحّدين نتيجةً لتشريعات تخصّ الإساءة للدّين، أو نتيجةً للتّطبيق المفرط للقوانين المحايدة إلى حدّ ما. وعلاوة على ذلك، فإن الحقّ في حرّية الدّين أو المعتقد كما هو منصوص عليه في المعايير القانونيّة الدّوليّة ذاتِ الصّلة لا يشمل الحقّ في امتلاك دين أو معتقد محصّن ضدّ النّقد أو السّخرية."[3]

وثمّة نقطة أخرى جديرة بالملاحظة، وهي أنَّ القادة في المؤسّسات الدّينيّة، في كثير من البلدان، يتمّتعون بنفوذ وتأثير يتجاوزان القضايا الدّينيّة، وبالتّالي فإنّه ليس من المصلحة العامّة أنْ تكون هنالك قوانينُ تحميهم من التمّحيص والّنقد.

تضاءلَ دعم حماية الأديان من "التّشهير" تدريجيّاً في مجلس حقوق الإنسان في الأمم المتّحدة، وفي سنة 2011 تبنّى المجلس قراراً لم يذكرِ "التّشهير أو تشويه السّمعة أو ازدراء الأديان" على الإطلاق، وتحدث بدلاً من ذلك، وبشكلٍ بنّاء أكثر، عن سبل مكافحة التعصّب، واعتماد القوالب النّمطيّة السلبيّة (التعميم المفرط)، وتشويه السّمعة والتمّييز والتّحريض على العنف، والعنف الفعليّ ضدّ الآخرين على أساس الدّين أو المعتقد. تبنّى المجلس القرار الذي تقدمت به باكستان لصالح منظّمة المؤتمّر الإسلاميّ ودون إجراء تصويت.

كان هذا القرار بمثابة انتصار كبير لحرّية التعبير على المستوى الدوليّ، ورأتْ الدول المسلمة في تبني المجلس للقرار انتصاراً إدراكاً منها بأنّها كانت أقلَّ عدداً في المجلس أكثر من كونه يمثّل تغييراً في آرائها فيما يتعلق بحرّية التّعبير. لم يكن للقرار تأثير كبير على المستوى الوطنيّ، بل إنّ بعض الدّول تحرّكت في الاتّجاه المضادّ.

كانت تونس، على سبيل المثال، علمانيةً نسبياً خلال 23 عاماً من حكم الرّئيس المخلوع زين العابدين بن علي رغم القيود الكبيرة التي فرضها نظامه على حرّية التّعبير، وقد خلقتِ الانتفاضة الشّعبيّة التي أطاحت به في كانون ثاني/يناير 2011 فرصة للعلمانيين والمتدينين المتشدّدين على حدّ سواء، فقد سعى المتشدّدون السّلفيّون لفرض تفسيرهم للإسلام وهاجموا الأضرحة الصوفية – التي تَعتبرونها وثنيةً – والفعاليّات التي كان ينظّمها الشّيعة، كما هاجموا بعض الفنادق والأفراد الذين يبيعون الكحول، وضايقوا الكنيسة الأرثوذكسية الرّوسيّة؛ وقد تمّ اعتقال خمسة أشخاص بينهم ضابط شرطة بتهمة التّخطيط لخطف اليهود.

ويبدو أنّ السّلطات في تونس ما بعد الثورة كانت محتارةً في كيفية الرَّدِّ، وربّما كانت متردّدة في القيام بذلك أصلاً، وقد وَرَد في تقرير لوزارة الخارجيّة الأمريكيّة أنّ التّحقيقات الحكوميّة بشأن الهجمات على المواقع الدّينيّة أسفرتْ عن عدد محدود من الاعتقالات والمحاكمات، كما اتُّهمتِ السلطاتُ بعدم توفير الحماية اللازمة لدور العبادة المسيحيّة واليهوديّة وبالفشل في حماية المواقع الصوفيّة، غير أنّها اتّخذت خطوات لمنع الأئمة "المثيرين للشقاق والفتن" من إلقاء الخُطب في المساجد بما في ذلك الأئمة السّلفيّون.

في تشرين أول/أكتوبر من سنة 2011 بثّت قناة نسمة التلفزيونية الخاصّة فيلم الرسوم المتحركة "برسيبوليس Persepolis" الذي فاز بجائزةٍ في مهرجان كانْ السينمائي والذي عُرِضَ آنِفاً في دور السّينما التونسيّة دون أنْ يحدث ضجّة تُذكر. الفيلم مبنيٌّ أصلاً على رواية تحكي السّيرة الذّاتية لمرجان ساترابي، ويصوّر الأيام الأخيرة من حكم الشّاه وقيام الثّورة الإسلاميّة في إيران سنة 1979، كما عاشتها تلك الفتاة الشابّة التي تظهر في مشهد قصير وتتخيل أنّها تتحدث الى الله الذي صُوِّرَ على هيئة رجلٍ مسنٍّ ذي لحيةٍ بيضاءَ.

يعتبر تصوير الله تصرّفاً وثنيّاً في التّعاليم الإسلاميّة، فقامت مجموعةٌ من نحو 300 متظاهراً بمهاجمة محطة التّلفزيون، وحاولوا إضرام النار فيها. في وقت لاحق، تمّ تغريم مالك المحطّة نبيل القروي بمبلغ 2400 دينار (أو ما يعادل 1500 دولار أمريكي) بتهمة "الإخلال بالنظام العامّ وتجاوز الآداب العامّة"، كما تمّ تغريم اثنين من موظفي القناة كذلك. وقد سعى الادّعاء إلى الحكم عليهم بالسّجن، وطالبَ اثنان على الأقلّ من المحامين الاسلاميّين بإنزال عقوبة الإعدام بهم، وصرّح أحدهما لصحيفة واشنطن بوست أنّ "أيّ شيء متعلق بالله فهو مُطلق."

وتعليقاً على المحاكمة، اتَّهمتْ منظّمةُ العفو الدّوليّةُ الحكومةَ التّونسيّةَ "بعدم وجود إرادةٍ" للدّفاع عن حرّية التّعبير، وأضافت قائلة: "لا يمكن فرضُ هذه القيود إلّا عند الضّرورة القصوى، رغم أنّ حماية الآداب العامّة أو النّظام العامّ قد تكونان أحياناً سبباً مشروعاً لتقييد حرّية التّعبير، واتّضح أنّ الحال لم يكن كذلك... فلا يجوز إدانة النّاس وإطلاق الأحكام ضدّهم بسبب آرائهم، حتّى لو كانت الآراءُ مثيرةً للجدل أو جارحةً."

في الفترةِ ذاتِها تقريباً حُكِمَ على اثنين من الملحدين التّونسيّين بالسّجن لسبع سنوات ونصف، وتغريم كلٍّ منهما بمبلغ قدره 1200 دينار (أو ما يعادل 800 دولار أمريكي) بعد نشرهما موادّ على شبكة الإنترنت اعتُبِرت "ضارّةً بالنّظام العامّ أو بالآداب العامّة". وهذان الملحدان هما الصديقان جابر الماجري وغازي

الباجي وهما في أواخر العشرينات من العمر من منطقة المهديّة وهي منطقة ساحليّة جنوب المنستير، وهما معروفان محليّاً بآرائهما الإلحاديّة.

ألّف الماجري عدة كتبٍ قصيرةٍ، وجعلها متاحةً للتحميل من شبكة الإنترنت؛ كانت إحداها عن الجنس وآثارِه على الصّحة، وذكرَ العديدَ من الممارساتِ الجنسيّةِ، بما في ذلك المثليّة الجنسية التي وصفها بأنَّها تُقبل على نحو متزايد "في المناطق ذات التفكير المنفتح،" ووصف الاعتداء الجنسي على الأطفال وأرفَقهُ برسمٍ كرتونيّ "للنبيّ محمّدٍ في الخمسينات من عمره وهو يحاول غواية عائشة وهي في السّادسة." وكان شكل رداء النبيّ في الرّسم يوحي بوضوحٍ أنَّه كان في حالة هيجانٍ جنسيّ. كما نَشَر الماجري كتاباً آخر بعنوان "الهدى والنّور" والذي يبدأ بالسّؤال:

"هل يُحتمل أن يكون القرآنُ ليس سوى كتاب كامل من الأكاذيب الشّيطانيّة والآيات الّتي "تدغدغ آذان" العرب؟"

لم يتسبّب أيّ ممّا سبق أيّ ضجّة في ذلك الوقت، لكن محامياً في المهديّة، يدعى فؤاد الشّيخ زوالي، اعترض على بعض الصّور على صفحة الماجري في فيسبوك وطلب منه إزالتها لكن الماجري رفض، ما دفع الزوالي إلى رفع دعوىً قضائيّة ضدّ الماجري ليُلقى القبض عليه وفق الأصول.

شَعَرَ غازي الباجي في تلك الأثناء بالقلق على صديقه وذهب للتّحقّق من ملفّ المحكمة عن القضيّة ليكتشف أنَّ قضيةً رُفعَتْ ضدّه هو أيضاً، ففرّ من البلاد كي لا يتمّ القبض عليه، لكنّه أُدِين غيابياً.

سافر الباجي إلى الجزائر وتركيا قبل التّسلّل بطريقة غير شرعيّة إلى اليونان حيث قال لمَوقِعٍ إلحاديّ على شبكة الإنترنت أنّ وجهات نظره حول الإسلام قد بدأت تسبّب له المشاكل منذ أنْ كان طالباً في الجامعة، وبعد أنْ تخرّج سنة 2007 قال أنَّه لم يتمّكن من العثور على عمل يتناسب مع مؤهلاته، ممّا دفعه إلى العمل في بيع تذاكر للمترو في تونس. سَخر منه زملاؤه عندما علموا بأمر إلحاده، وفي نهاية المطاف طُرِدَ من وظيفته "بسبب الاتّهامات الكثيرة بالهرطقة الموجّهة ضدّه." وذَكرَ الموقع ذاته أنّه قد طُرد من وظيفة أخرى بعد أنْ لاحظ زملاؤه أنَّه لم يكن يصوم شهر رمضان، وراحوا يسألونه عن سبب تركه للصّلاة وعدم قراءته للقرآن، ثم راحوا ينادونه بأبي لهب (عمّ الرّسول)، كما كثرت الشّائعات حول ميوله الجنسيّة، وقال أنَّه استُدْعِيَ من قبل الإدارة وسئل عن آرائه الدّينيّة، فكان جوابه أنَّه أتى إلى المصنع وأنّ دينه غيرُ ذي صلةٍ بالموضوع.[4]

أمضى الباجي في سنة 2011 أربعة أشهر يتعافى من عمليّة جراحيّة في الرّكبة، وأمضى تلك الفترة في كتابة كتاب باللّغة العربيّة بعنوان "وهْمُ الإسلام"، ونشره على شبكة الإنترنت معتقداً – وفقاً لما قاله للموقع الإلحاديّ آنفِ الذِّكر – أنَّه كان يعيش بعد الثّورة التّونسيّة "في حقبةٍ جديدة". ضمّ أحد فصول الكتاب أربعة رسومٍ كرتونيةٍ معدّلة، اثنان منها يربطان المسلمين بالإرهاب، وأخرى مسيئة للرسول، أمّا الرسم الرابع فكان يتعلّق بالسّيّدة عائشة والنبيّ محمّد، وهو ذات الرسم الذي ظَهَر في كتاب الماجري عن الجنس.

قال المحامي الزوالي الذي قام برفع القضيّة أنَّه يعتبر إهانة الرّسول جريمةً أكثرَ خطورةً من جريمة القتل، وأضاف لموقع نواة الالكترونيّ التّونسيّ: "هذه القضيّة لا علاقة لها بحرّيّة التّعبير ولا بالحرّية عموماً. آمل أنْ ينصّ الدّستور الجديد على فرض عقوبةٍ صارمةٍ لهذا النّوع من الجرائم لحماية الدّين ومشاعر المسلمين التّونسيّين."

وقال والد الباجي لموقع نواة أنَّه كان يفكّر ببيع منزله نتيجة للمحاكمة، لأنَّ العائلة أصبحت منبوذةً من قِبل الجيران وأضاف: "أصبحتُ أذهبُ إلى مسجدٍ في حيّ بعيد كي أصلّي ... ولم يعد بإمكاني قضاء بعض الوقت في المقهى. حذرونا في المحكمة من الاتّصال بأيّ صحفيّ أو منظّماتٍ لحقوق الإنسان، وأنّنا إنْ فعلنا ذلك فإنّ ردّة فعل الرّأي العامّ ضدّنا قد تكون عنيفة." وأضاف أنّ ابنه تلقّى تهديداتٍ بالقتل من قبل السّلفيّين وأنّ زوجته تلقّت رسالة فحواها أنّ الماجري لن يفلت من عقاب السّلفيّين حتّى لو كان في السّجن. وقال إمامُ واحدٍ من أكبر المساجد في المهديّة لموقع نواة أنَّه رغم كونه لا يقف وراء هذه التّهديدات إلّا أنَّه يعتبر "جريمة" الماجري لا تُغتفر، وأضاف: "لا يمكن لومُ المسلمين الذين أسيئ لهم على ردّ عنيف قد يصدر عنهم."

وبعد حملة دوليّة للدّفاع عنه، أُفرِج عن الماجري بموجب عفوٍ رئاسيّ في آذار/مارس 2014، وتحديداً بعد سنتين من اعتقاله، أمّا الباجي فقد حصل في نهاية المطاف على اللّجوء في رومانيا.

في حزيران/يونيو من سنة 2012 وقعت اضطرابات بسب معرض للفنّ المعاصر في تونس وخلّفت نحو 100 مصاب، وتمّ اعتقالُ 160 آخرين، وفُرِضُ حظر على التجوال ليلاً في ثمان مناطقَ من البلاد، وتركّزت الاحتجاجات على معرض "ربيع الفنون" في المرسى وهي بلدة ساحليّة أنيقة في ضواحي تونس العاصمة، وتُعتبر بمثابة منتجع صيفيّ يقصده الأثرياء في تونس. سَمَحتْ وزارة الثقافة بإقامة المعرض

الذي استمّر عشرة أيام، وشارك فيه عدد كبير من الفنّانين، وكان موجّهاً بالدّرجة الأولى إلى جمهور علمانيّ ليبراليّ.

وعشيةَ افتتاح المعرض وصلتْ مجموعةٌ صغيرةٌ من السّلفيّين للاحتجاج، لكنّهم غادروا بعد أنِ اكتشفوا أنَّ المعرض لم يكن للاحتفال بالشّذوذ الجنسيّ كما ظنّوا بادئَ الأمر؛ واستمّر المعرض حتى أوشك على النّهاية، وهنا تقول هيلا عمار وهي واحدةٌ من المشاركين في المعرض:

> "سار كلّ شيء على ما يرام حتى يوم الاختتام حين حضر مسؤول محليّ لتقييم لوحات معيّنة اعتبر أنّها صادمةٌ، وشارك الصّور على الإنترنت، مضيفاً تفسيراته الخاصّةَ، وحذّر أئمّة بعض المساجد من طبيعتها التجديفيّة."[5]

عندئذٍ نُشر شريطُ فيديو على شبكة الإنترنت يحثّ "جميع المسلمين" على "الغضب"، فوصل نحو 20 متظاهراً إلى المعرض فضلاً عن عدد كبير من مؤيّدي المعرض الذين تمّت دعوتهم من قبل المنظِّمين، وبعد جدالات حادّة، فصلت الشّرطة بين المجموعتين سلميّاً وأمرت بإزالة عدد قليل من الأعمال الفنّيّة الّتي أثارت الجدل، للتّخفيف من حدّة التّوتّر.

لكن في وقت لاحق من ذلك المساء اجتمع عدد أكبر بكثير من المحتجّين لتنظيم مسيرة، واتّجهوا نحو المعرض، وأفاد أحد الشهود برؤية المئات من النّاس، كان يلوح بعضهم بالسّيوف، "ثم راحوا يلقون بالحجارة على الشرطة. شعرتُ بالخوف وركضت إلى السيارة وأغلقت الباب." تمّكن بعضهم من دخول المبنى ومزقوا لوحتين من اللوحات وحطّموا قطعة منحوتة بضربها بالسّقف، وقاموا بإخراج تجهيزات كثيرة خارجَ الفناء وأضرموا فيها النّار، وكتبوا عبارات على الجدران من قبيل: "ليكن الله هو القاضي" و "تونس دولة إسلاميّة، ومع ذلك يهان فيها رسول الله برخصة من وزارة الثّقافة." وقد تلقى بعض الفنّانين رسائلَ تهديدٍ ورسائلَ مسيئةً ونُشِرَتْ أسماؤهم على موقع فيسبوك.

ليس هنالك شكّ في أنّ الكثير من الأعمال الفنّيّة المعروضة كانت استفزازيّة وتَسْخر من المظاهر المتطرّفة في الإسلام، فتصوِّر إحدى اللّوحات مثلاً شخصيّةَ سوبرمان بلحية على النّمط السّلفيّ يحتضن رجلاً ملتحياً آخر بين ذراعيه، ويظهر في لوحة أخرى وجه رجل ملتح قد غضب والدّخان يخرج من أذنيه، ويظهر في لوحة ثالثة امرأة عارية يغطي أعضاءَها التناسليةَ طبقٌ من الكُسكُس (نوع من الأطباق في شمال أفريقيا) ويحيط بها رجال يرمقونها بنظرات ظلاميّة تهديديّة. وعَرَض نحّات ثلاثة تماثيل لنساء

محجّبات تمّ دفنهن بالحجارة إلى صدورهنّ، ويظهر في أحد الأعمال الفنّيّة خطوط نمل تزحف إلى حقيبة الطّفل المدرسيّة حيث شكّلت خطوط النّمل عبارة "سبحان الله" باللغة العربيّة، ويظهر في لوحة أخرى هلال وصليب ونجمة داود مع عبارة "République Islaïque de Tunisie " حيث كلمة Islaïque مؤلفة من كلمتين هما Islam وكلمة laïque وهي كلمة فرنسيّة تعني "العلمانيّة".

لكنّ هيلا عمار ترى أنّ الفنّانين أصبحوا كبش فداء في صراع أكبر حول مستقبل تونس، وصرّحت لقناة الجزيرة:

> "لقد اخْتُلِقَتْ هذه القضيّة للتغطية على قضايا أكثر خطورة، فنحن وسط حرب بين العديد من الحركات السّياسيّة يحاول فيها السّلفيّون والحركات الرّجعيّة الأخرى الضّغط على الحكومة الحاليّة لثنيها عن الاعتدال والتّهدئة. إنّ النّقاشات في الهويّة والدّين هي مشاكل زائفة هدفها صرف النّظر عن الوضع الأمنيّ غيرِ المستقرّ، والمشاكل الاقتصاديّة والاجتمّاعيّة الخطيرة التي لم تُحلَّ بعدُ، وعن نظام العدالة الانتقاليّة الذي ثَبتَ أنَّه من الصّعب إقامته... وإنّ جُلَّ معاناتنا في زمن حكم بن علي كان بسبب الرّقابة الذّاتية حين فَرضها لمعالجة الموضوعات السّياسيّة. أمّا الأن فتعتمد الرّقابة على مسائلَ دينيّة وأخلاقيّة، وهذا يجعل الوضع أكثر سوءاً."

أدّت قضيّة "ربيع الفنون" إلى إطلاق دعواتٍ لسنّ قانون جديد لحماية "المقدّسات"، فمقاضاة تلفزيون نسمة والملحدين تمّت بموجب القوانين التي سُنَّتْ في عهد بن علي الذي طالما استخدمها ضدّ خصومه السّياسيّين. كما أنّ حزب النّهضة، وهو الحزب الدّينيّ المهيمن على الجمعيّة التأسيسيّة، اشتكى من عدم وجود قانون للتّعامل مع الكفر على نحو خاصّ، وأصدر بياناً قال فيه: "إنّ الرّموز الدّينيّة فوق كل سخرية أو استهزاء أو انتهاك." وفي شهر آب/أغسطس؛ قدّم الحزب مشروع قانون لإدراج الله والأنّبياء والقرآن والإنجيل والتّوراة والسّنّة النّبويّة والكنائس والمعابد اليهوديّة والكعبة تحت بند المقدّسات" وطالبَ أنْ يُجَرَّمَ "اللعنُ والسّبُّ والسّخريةُ والتّقويضُ والتّدنيسُ" لأيٍّ من هذه الرموز بالسّجن لمدّة قد تصل إلى عامين مع غرامة قدرها 2000 دينار (1265 دولار)، كما اقترح مشروع القانون حظرَ تمّثيلِ أو تصويرِ اللهِ والأنّبياءِ.

غير أنّ مشروع القانون هذا تمّ سحبه بعد اعتراض منظّمات المجتمّع المدنيّ التّونسيّة والدّوليّة، حيث قال هؤلاء أنَّه وفقاً للمادّة 19 فإنّ مشروع القانون يمثل انتهاكاً للمعايير الدّوليّة لحقوق الإنسان وبأنّه "يعطي الشّرطة والقضاء حرّية التصرّف في تقرير طبيعة السلوك الذي يشكل" إهانة" أو "استهزاء" "بالمقدّسات."[6]

إن "الكفر أو التجديف" مصطلحٌ فضفاضٌ يُستخدم في السّياق الدّينيّ لوصف مظاهر الازدراء بالشّخصيات والأشياء، والكلمة الإنكليزية مشتقّة من الفعل اليونانيّ blasphemein التي تعني "التحدّث بسوء عن" ولكن في اللغة العربيّة يمكن استخدام كلمات مختلفة كثيرة مثل السّبّ والشّتمّ واللّعن والتّكذيب ... الخ، وفي بعض الأحيان يُعتبر الكفر في الإسلام شكلاً من أشكال الرِّدَّة.

تَستخدِم الدّولُ العربيّةُ عدّة آليّات مختلفة إما منفردة أو مجتمّعة لمنع الخطاب غير المرغوب فيه عن الدّين. وبصرف النّظر عن الشّريعة، يمكن أنْ تشمل هذه الآليات الإعلاناتِ الدستوريّةَ التي تمنح الإسلام مكانة متميّزة أو محميّة، وأحكاماً محدّدة ضدّ الكفر، وقوانين عامّة حول النّظام العامّ ووسائل الإعلام والاتّصالات وغيرها، والتي يمكن تطبيقها على الكفر، كما أنّ هناك قوانين مماثلة ضدّ ما يمكن تسميته "الكفر العلمانيّ" الذي ينتهك "حرمة" الدّولة كالإضرار بسمعة البلاد، وإهانة رئيس الدّولة، وتشويه سمعة المسؤولين الحكوميّين والجيش، ونشر أنباء "كاذبة" وما إلى ذلك؛ ففي الجزائر مثلاً يجمع الدّستور بين الدّين والنظام السّياسيّ وذلك بمنع "الممارسات التي تتنافى مع الأخلاق الإسلاميّة، وقيم ثورة تشرين الثاني/نوفمبر،" كما أنّ قانون الإعلام في المغرب، والذي أُقِرَّ سنة 2002، يمنع الانتقادات الموجّهةَ "إلى الإسلام، أو لمؤسّسة النّظام الملكيّ أو وحدة أراضي المملكة."

يوجد في سلطنة عُمان وقطر والإمارات العربيّة المتّحدة قوانينُ محدّدة وعقوباتٌ ضدّ الكفر (التجديف)، ففي سلطنة عُمان يُعتبر ازدراء أيّ دين جريمةً جنائيةً، والحدّ الأقصى لعقوبة إثارة النّعرات الطائفية أو الدّينيّة هو السّجن لعشر سنوات؛ وتَصْدُرُ أيضاً أحكام قد تصل إلى ثلاث سنواتٍ في بعض الأحيان وغرامةٍ قدرها 500 ريال (1300 دولار أمريكي) ضدّ من "يسب الله أو أحد أنبيائه علناً"، أو يهين الجماعات الدّينيّة عن طريق الكلمة المنطوقة أو المكتوبة، أو يقوّض السّلام في مجتمعٍ متديّن يحكمه القانون. إنّ استخدام الإنترنت بطرق "قد تُخِلّ بالنّظام العامّ أو القيم الدّينيّة" هو تهمة عقوبتها السّجن؛ وفي قَطر تصل عقوبة التّشهير أو التّدنيس أو شتيمة الإسلام المسيحيّة أو اليهوديّة إلى السجن لسبع سنين، كما ينصّ القانون أيضاً على أحكامٍ بالسّجن لسنة واحدة أو بغرامة قدرها 1000 ريال (275 دولار أمريكي) لكلّ من يُنتج أو يتداول الموادّ التي تشهِّر بهذه الدّيانات الثّلاث، وفي دولة الإمارات

العربيّة المتّحدة يُرَحَّلُ كلُّ من يجدّف، أو يوجه الشّتائم والإهاناتِ، أو من يستخدم البذيءَ من اللغة أو السلوك، كما يفرض القانون عقوباتٍ على استخدام الإنترنت للتبشير ضدّ الإسلام أو "الاعتداء" على ضريح مقدس، أو طقوس دينية ما، أو إهانة أيّ دين كان، أو تحريض شخص ما لارتكاب معصية أو ما ينافي "قيم العائلة."

تسعى معظم الدّول العربيّة إلى حماية المسيحيّة واليهوديّة جنباً إلى جنب مع الإسلام – على الأقلّ نظريّاً – باعتبارها الدّيانات السّماويّة الثّلاثة، غير أنّها لا تفعل الشّيء ذاته بالنّسبة للمعتقدات الأخرى، كما أنّ العقوباتِ المفروضةَ على مهاجمة الإسلام أقسى في بعض الأحيان ممّا يُفْرَضُ على مهاجمة اليهوديّة والمسيحيّة؛ فالعقوبة القصوى "للاستهزاء" بالدّين في اليمن مثلاً تكون أشدَّ إذا كان الإسلام هو الدّينَ المعنيّ.

ويوجد في عدّة دول أحكامٌ خاصّة بقوانين الإعلام من أجل حماية الدّين، فالأردن يحظر الموادّ التي فيها افتراءاتٌ أو شتائمُ "لمؤسّسي الدّين أو الأنبياء" أو التي فيها ازدراء "لأيٍّ من الدّيانات التي يحميها الدّستور"، مع احتمّال فرض غرامة قدرها 20000 دينار (28000 دولار أمريكيّ) للمخالفين. ويحظرُ قانون الصّحافة والمطبوعات لعام 1990 في اليمن – من بين أمور أخرى – ما يلي:

- كلّ ما يمسّ العقيدة الإسلاميّة ومبادئها السّامية أو يستخفّ بالأديان أو العقائد الإنسانيّة.
- كلّ ما قد يسبّب التمّييز القبليّ أو الطائفيّ أو العرقيّ أو المناطقيّ، أو ما قد يَنشر فكر الشّقاق والتّفرقة بين أفراد المجتمع، أو ما يدعوهم إلى الرِّدَّة.
- كلّ ما يؤدي إلى انتشار الأفكار الّتي تتعارض مع مبادئ الثّورة اليمنيّة، والتي تضرّ بالوحدة الوطنيّة، أو تشوّه صورةً من صور التراث اليمنيّ، عربيّةً كانت أو إسلاميّة.

ويفرض القانون الكويتيّ عقوباتٍ بالسّجن على الصّحفيّين الّذين يشوّهون أيّ دينٍ أو سمعةَ أيٍّ من الشّخصيّات الدّينيّة، ويُسمح للمواطنين بتوجيه اتّهامات جنائيّة ضدّ المخالفين المشتبه بهم. أمّا مرسومُ "الطّوارئ" الصّادرُ عن الأمير في عام 2012، والمعروف باسم قانون الوحدة الوطنيّة، فيتّسع ليشملَ وسائلَ التّواصل الاجتمّاعيّ، كما أنَّه زاد العقوبات بدرجة كبيرة، حيث يمكن سجن المخالفين لمدة قد تصل إلى سبع سنين، وتفرض عليهم غرامةً قد تصل إلى 200000 دينار (720000 دولار أمريكيّ)؛ ومع ذلك قاومت الحكومة ضغوطاً من البرلمان لفرض عقوبة الإعدام على من يكفرُ بالله من المسلمين.

ومن المفارقات أنّ نسبةً صغيرةً فقط من قضايا الكفر في الدّول العربيّة تشملُ الملحدين والكافرين، لأنَّها في الغالب نتيجةٌ للخلافات بين المسلمين أنفسِهم، أو بين المسيحيّين والمسلمين، أو بين المسلمين السّنّة والمسلمين الشّيعة، أو مجرّد مشكلة سببها الضغائن بين النّاس، وفي كثير من الأحيان يكون من المستحيل أنْ نعرف ما قاله الجاني بالضّبط، لأنَّ الكلمات لا يمكن تكرارها في التّقارير الصّحفيّة، وفوق كلّ هذا فإنّ الكثير من الحالات التي تُحال إلى المحكمة تافهةٌ للغاية، الهدف منها أحياناً الإغاظةُ لا أكثر.

في سنة 2013 حُكم على المدرّس الكويتيّ مصعب شمسة بالسّجن لمدة خمس سنوات بسبب تغريدة له حول الدّور اللاهوتيّ للأئمّة حيث اعتُبرت إهانةً للدّين. نفى شمسة الاتّهام مدّعياً أنّ تغريدته – التي ذكر فيها حفيدَ النبيّ وأشارت، على ما يبدو، إلى الخلافات الدّينيّة بين السّنة والشّيعة – قد أُسيء تفسيرها. وقال محامي شمسة أنّ الأخيرَ حذف التّغريدة بعد عشر دقائقَ من نشرها، وأوضح في تغريدتين لاحقتين ما كان يقصده في تغريدته المحذوفة. نالَ شمسة حكماً بالسّجن سنة واحدة بتهمة الاستهزاء بالدّين المنصوص عليها في المادة 111 من قانون الجزاء الكويتيّ، لكنّ المحكمة أضافت مدّة أربع سنوات أخرى لنشره موادَّ مسيئةٍ ومخالفةٍ لقانون الوحدة الوطنية، و"لإساءة استخدام" الهاتف المحمول، باعتباره نشرَ التغريدةَ المخالفةَ من هاتفه المحمول ذاك.

وفي مدينة "بسكرة" الجزائريّة حُكم على سامية سميتس البالغة من العمر 26 عاماً بالسّجن لعشر سنوات– وهو الحدّ الأقصى المسموح به من قبل القانون – بتهمة تدنيس القرآن الكريم، وقد كانت في السجن أصلاً حين ارتكاب الجريمة المزعومة وذلك بسبب قضية مدنية، واتُهمت من قبل سجناء آخرين بأنّها مزّقت نسخة من القرآن، غير أنّ "سميتس" – التي لم يمثّلها أحد في المحكمة بشكل قانونيّ – نفتْ تمزيق المصحف وقالت أنَّه سقط سهواً في الماء أثناء نقاش دار هناك، وبعد ذلك بعام قَبِل قاضٍ سماع استئنافها وأُسْقِطَتِ التّهمة لعدم كفاية الأدلّة، بما في ذلك فشلُ الادّعاء بتقديم القرآن الممزّق كدليل.

في أول عامين بعد سقوط نظام مبارك في مصر أُوْدِعَتْ على الأقلّ 17 قضية اتّهامٍ بازدراء الدّين في المحاكم، وكان سبب كثيرٍ منها المنافساتُ المتجذّرةُ بين المسيحيّين والمسلمين، لكنْ تمّ في إحدى القضايا استدعاءُ معلّمة قبطيّة للاستجواب، واحتُجزت ليلةً بعد أنِ اتّهمها طلّابها بإدلائها بتصريحاتٍ مهينةٍ للنبيّ محمّدٍ في الصّف؛ وفي قضيّة أخرى، أُحيل خطيبٌ مسلمٌ إلى المحكمة بتهمة تمزيق نسخة من الإنجيل خلال الاحتجاجات التي اندلعت ردّاً على نشر فيديو من 14 دقيقة بعنوان "براءة المسلمين."

إحدى أكثر الحالات غرابةً في مصر شملتِ اثنين من الصّبية المسيحيّين الأقباط تتراوح أعمارهم بين التسعة والعشرة أعوام؛ فقد أمضيا خمسة عشر يوماً رهنَ الاحتجاز في قسم الأحداث، وذلك بعد اتّهامهما بالتبوّل على صفحات من القرآن. وقيل أنّ الأولاد – الّذين يعيشون في قرية سكانُها مزيجٌ من المسلمين والمسيحيّين – ارتكبوا الجرم المزعوم خلف المسجد؛ وقال أحد الجيران لوكالة اسوشييتد برس أنّ الفَتَيينْ أُمّيّان ولا يستطيعان تمّييز صفحات القرآن.[7]

يبدو في حالاتٍ كهذه أنّ الكفر يمكن أنْ يقع حتى لو كان في ذهن الشّاهد فقط، فلا دليل على أنّ الفَتَيين المصريّين أو السّجينةَ الجزائريّةَ أو المغرّدَ الكويتيَّ يضمرون ازدراءً للدّين فعلاً. وبالنّظر إلى سياق هذه الحالات الثلاث فإن التّوتّرات الطّائفيّة في مصر والكويت، والجدل الذي دار بين السّجناء في الجزائر ربما تثير تساؤلاتٍ حول دوافع المتّهمين، ويبدو في كثير من الأحيان أنّ عامل "أوقعتُ بك!" له دورٌ في ذلك، فأولئك الذين يبلّغون عن حالات كهذه يشعرون بالسّعادة لكونهم أوقعوا بالمتّهم أكثر من شعورهم بأنّهم تعرّضوا للإهانة.

في سنة 2005 نشرت الصّحيفة الدّانماركية "يولاندس – بوستن *Jyllands-Posten*" بعض الرّسوم المسيئة للنبيّ محمّد ممّا أثار موجة احتجاجات في جميع أنحاء العالم الإسلاميّ استمرّت لعدّة أشهر. وكان اليمن أحد تلك الدّول، حيث نَزَل آلاف المتظاهرين الى الشوارع وأعلنتِ المتاجر مقاطعةَ المنتجات الدّانماركيّة. وكتبت صحيفة يمن أوبزرفر، وهي صحيفة أسبوعيّة تُنشر باللغة الإنجليزيّة، تقريراً عن هذه الاحتجاجات إضافةً إلى تعليق تحريريّ ونُسخٍ صغيرةٍ لثلاثةٍ من الرّسوم المسيئة بعد طمسها جزئياً بإشارة X بخطّ أسودً غامق.

اعتُقل بعد أسبوعٍ رئيسُ تحرير الصّحيفة محمد الأسدي بتهمة الإساءة إلى الإسلام، وطالبَ محامي الادّعاء بإعدامه وبإغلاق الصّحيفة ومصادرة أصولها. علّقت الحكومة ترخيص الصّحيفة ومنعتْها من النّشر لأكثرَ من ستّة أشهر رغم استمرار الموظّفين بالنّشر على شبكة الإنترنت.

قال الأسدي أنّ المشكلة الحقيقية لم تكن في الرّسوم التي أدانتها صحيفته أصلاً، بل في مقالةٍ افتتاحيةٍ أثارت غضب المتشدّدين من خلال دعوتها المسلمين إلى قبول اعتذار الدّانمارك والتّصرّف "برويّةٍ ووقار"، غير أنّ محامي الادّعاء والمدّعي العامّ اليمنيّ أصرّا على أنّ التُّهم تقع على الصّور وحدها، ولا يمكن استخدام التّقرير الإخباريّ ولا المقال الافتتاحيّ كأدلّة.

نرى مما سبق أنّ نُظُمَ القضاء العربيّة تمنح المواطنين أحياناً فرصاً لإقحام أنفسهم في القضايا المعروضة على المحاكم، وذلك في حال كان لديهم رأيٌ شخصيّ قويّ يدفعهم للقيام بذلك، ومحاكمةُ صحيفة اليمن اوبزرفر ليست استثناءً. كما أنّ عبد المجيد الزّنداني، وهو الصّديق السّابق لأسامة بن لادن، والّذي صنّفته الولايات المتّحدة كإرهابيّ دوليّ (أي الزّنداني) والذي كان قد غرّر بالعلماء الغربيّين للإقرار "بالإعجاز العلميّ" في القرآن، والذي أعلن فيما بعدُ أنَّه اكتشف علاجاً لفيروس نقص المناعة المكتسبة (الإيدز) أيضاً، قد انضمّ إلى هذا الصّراع القانونيّ، وزَعَم أنّ صحيفة اليمن أوبزيرفر قد تسبّبت بأضرارٍ، وأنّها بإعادة إنتاج الرّسوم المسيئة ونشرِها قد انتهكتِ الحقوق المدنيّة للمسلمين، غير أنّ ادّعاءات الزّنداني رُفضت في نهاية المطاف، وغَرَّمتِ المحكمةُ الأسديَّ بمبلغ 500000 ريال (2320 دولار أمريكي) بذريعة أنَّه تعامل مع الرّسوم بشكلٍ "غير لائق."

الفصل التاسع: طعمُ الحريّة؟

خلقتِ الثّورة المصريّة الّتي أطاحت بالرئيس حسني مبارك سنة 2011م فرصةً لغير المؤمنين للخروج من الظلّ أكثر من أيّ بلدٍ عربيٍّ آخرَ، فظهر الملحدون على شاشات التّلفاز المصريّة ليتحدّثوا عن عدم إيمانهم على الملأ، وأُجريتْ معهم مقابلاتٌ في الصّحفِ وعقدوا اجتماعاتٍ علنيةً، حتى أنّهم طالبوا بأن تُأخذ حقوقهم بعين الاعتبار عند صياغة دستور جديد.

وكان واضحاً أنّ أحد المُحرمات تم كسرُه، ولم يعد بإمكان المصريّين تجنّب حقيقةِ أنّ غير المؤمنين موجودون، حتّى لو كانتِ الفكرة بالنّسبة للغالبيّةِ العظمى لا تزال بغيضةً، وحتّى لو مالت وسائلُ الإعلامِ إلى تصويرِ الملحدينَ كنماذجَ للانحلالِ الأخلاقيّ الذي وصلت إليه مصر.

كان لهذا بلا شكٍّ صلةٌ بروح الثّورة الّتي عصفت بالبلادَ رغم تباين الآراء حول ماهيّة تلك الصّلة، وقد يكون هناك أكثر من تفسير لذلك؛ كما ينبغي التّمييز بين الإلحاد كظاهرةٍ، بالكاد كانت تُرى بعد صعود الإسلام السياسيّ، وبين الإلحاد الذي ربما كان موجوداً أصلاً ولسنواتٍ عدّةٍ في بعض الحالات، ولكن دون أن يُسمَعَ له صوتٌ.

لم تكنِ الثّورة المصريّة وانتشارُ الخطابِ الإلحاديّ في مصرَ سبباً ونتيجةٍ بقدر ما كانا نتيجتين لعمليةٍ واحدةٍ، ألا وهي عملية مساءلة السلطة وتحدّيها، الشيءُ الذي كان لوسائلِ التّواصلِ الاجتماعيّ دورٌ مهمٌّ فيه من خلال تسهيل تبادلِ المعلوماتِ والأفكار. غير أنّ الانتفاضة الشّعبيّة ساهمت أيضاً في مسائلة الدّين لأنّها ربما جمعت الكثيرَ من الجماعاتِ المتباينةِ من الناشطين السّاعينَ لإسقاط النظام وصَهَرَتهم في بوتقةٍ ايديولوجيةٍ واحدة.

يقول جمال، الملحدُ والناشطُ السياسيُّ: "أثناء الثّورة وُلِدَ عند الشباب عموماً شعورٌ بإمكانيةِ التّشكيك في أيّة فكرةٍ قائمةٍ أو أيّةِ مؤسسةٍ كانت موجودةً قبل الثّورة، وحتّى في الدّين نفسه." غير أنّ ذلك لم يكن من فراغ حتماً، فمن المحتمل أنّ الثّورة ضّد نظام مبارك شجّعت المشكّكين على تجاوز العراقيل، وأمّنت لهمُ اتّصالاً مع من يحمل فكراً مماثلاً، إلّا أنّ بذورَ الإلحاد ربّما كانت موجودةً أصلاً. ويَعتبر جمال الحصولَ على المعلومات عاملاً أساسيّاً في ذلك، ويتابع قائلاً:

"لقد سمعتُ النّاس يقولون على شاشات التلفزيون وفي أعمدة الصّحف أنّ الإنترنت أدّى إلى صعود الإلحاد والتّشكيك في الأديان بشكلٍ عامّ، وأعتقدُ أنّ هذا التقييم دقيقٌ إلى حدٍّ كبيرٍ، لأنّ انتشار الإنترنت في مصر منذ سنة 2000 وحتى يومنا هذا أدّى إلى وصول كمٍّ هائلٍ من المعلومات دون أيّ تصفيةٍ تُذكر، وبالتّالي فإنّك لو أردت أنْ تقرأ عن المسيحية من مصادرها المباشرة لاستطعتَ العثور عليها في شبكة الإنترنت، ولو أردتَ أنْ تقرأ عن الإلحاد أو الإسلام أو أي نُسَخٍ أخرى من الإسلام، أو عن الأشخاص الذين يشتمهم الدُعاة سيكون بمقدورك وبكلّ بساطةٍ البحثُ عنهم في غوغل."[1]

ولقد تشكلّتْ رحلة جمال نحو الإلحاد من خلال نشاطه السياسيّ في الدّرجة الأولى حيث يقول: "لم تكن غايتي تركَ الإسلام وحسبْ، بلِ الخروجَ من كلّ دين، وقد أصبحتُ على قناعة أنّ قضيّة الدّين كلَّها ضارةٌ لا نفع منها."

نشأ جمال وترعرع فيما يصفهُ بأسرةً مصريّةً محافظةً نموذجيّة، والتحق في المراحل الأولى من تعليمه بمدرسةٍ دينيّةٍ. وكان والده معلماً وخطيبَ جمعةٍ في أحدِ المساجد المحليّة، وكثيراً ما كان يصطحب ابنه جمال معه إلى المسجد لسماع الخطبة. وفي منتصف سنّ المراهقة، كان جمال يستلهمُ من عِظاتِ عَمْرو خالد، وهو محاسبٌ سابقٌ أسّسَ قاعدةً شعبيةً واسعةً من خلال اعتماد أسلوب المبشّرين المسيحيّين الأمريكيّين عبر شاشات التلفزيون. وعلى عكس الكثير من الأئمة المتجهّمين في المساجد المصريّة، ارتدى عَمْرو خالد البدلاتِ الأنيقةَ وتحدّث بلغةٍ واضحةٍ ولهجةٍ وُديّة مرسلاً الدعاباتِ أحياناً، غير أنّ حماسَ جمال لم يدمْ طويلاً، فقد ألحدَ في غضون سنينَ قليلةٍ وبشكلٍ سريٍّ دون أنْ يبلغ حتى والديه، وعِند إجراء المقابلة معه طلبَ عدمَ الكشفِ عنْ أيّةِ تفاصيلَ يمكنُ أنْ تؤدّي إلى تحديد هويته.

يقول جمال:

"بدأت التّصدّعات تظهر عندما كنت في سنّ 19 أو 20 وذلك نتيجةً للسياسةِ بشكلٍ رئيس. كنت أحاول أنْ أفهم ما هي عِلّة مصر من حيث الحكم، وأن أفهمَ سِجِلّ حقوقِ الإنسان وقضيةَ غيابِ الديمقراطيةِ والفسادِ وغيرِ ذلك، وبدأتُ أميل إلى فكرة إصلاح المجتمع من المنظور الدّنيوي، وهذا ما دفعني إلى الانضمام إلى الاحتجاجاتِ. كنّا مجموعةً من الشباب من جميع الأحزابِ والحركاتِ بغضّ النّظر عن الإيديولوجيّات،

باستثناءِ أيّ حركة إسلاميّة طبعاً. كنّا ننظّم المظاهراتِ معاً ونطبع المنشورات ونعقد اللقاءات. كانتْ تجْمَعُنا غايةٌ واحدةٌ هي إسقاطُ نظامِ مباركَ وتحقيق الديمقراطيّة."

كلّما زادَ انخراطُ جمال في النّشاطِ السياسيّ أكثرَ ترسّختْ نظرتُه للدّين على أنَّه العقبةُ أمامَ التغيير حيث يقول:

"كنّا نقوم بكلّ هذه النشاطات الاحتجاجيّة، ثم أذهب إلى المسجد على سبيل المثال لسماعِ خطبةِ الجمعةِ لأجدَ إماماً سلفيّاً يخطب في النّاس قائلاً أنّه من الخطأِ الخروجُ على الحاكمِ لأنّ الله هو من ولّاه، وأنّ علينا إصلاحَ أنفسِنا أولاً لا الحكومةَ، وهُراءً من هذا القبيل. كان الإمام في الحقيقة يتزلف إلى الحكومة، وعندها بدأتُ أرى الخطأَ في خلط الدّين بالسياسة، وكيف أنَّ الخطابَ الدينيَّ يمكن أنْ يُضرَّ بالجهود الّتي بذلناها كناشطينَ في سبيلِ تحسين حياة النّاس وتحقيق الديمقراطيّة. كلُّ ما كان الدُعاةُ الدينيّون يقولونه للناس يتلخّص في أنّ هذا الأمر حرامٌ، وأنّه لا يمكنكم الاحتجاج أو التّشكيك فيما يقوم به حسني مبارك، واستمَرّوا بصرفِ أنظارِ النّاس إلى الحلولِ الفرديّةِ كالإكثارِ من الصلاةِ والصيامِ وإصلاحِ حياتِهمُ الخاصَّة.

عندما تناقشنا مع مَنْ راحوا ينساقون وراء هذه الحُججِ لم يكن نقاشنا سهلاً أبداً، فقد حاولنا تقديم حُججٍ منطقيّةٍ لهم، حُجَجٍ تستندُ إلى الأدلّةِ التّجريبيّةِ، ولكنّهم، في كلِّ مرّةٍ، كانوا يلجؤون إلى حججٍ من القرآن والحديث النّبويّ، أو إلى أقوالِ بعضٍ منَ المشايخِ أو الأئمّة."

ويرى جمال أنّ الحركاتِ الاسلاميّةَ كانت على أتمّ الاستعداد لتقديم تنازلاتٍ لنظام مبارك، فقادة هذه الحركات ليسوا قواعدها الشّعبيّة بالضّرورة، ويقول في ذلك:

"علينا أنْ نتذكّر أنَّ أحدَ المبادئ المركزية للحركةِ السّلفيّةِ وجماعةِ الإخوان المسلمونَ ما قبل سنة 2011 لم تكن تدعو للإطاحةِ بحسني مبارك وحكومته، بل أنّهم لم يؤمنوا بخَيارِ الثّورة، وكلاهما كانتا منافقتين للغاية لشخصِ حسني مبارك، ولم تكن لهما من غاياتٍ سوى إبرامِ صفقاتٍ معه، سعياً للانضمام إلى البرلمان أو التّمتّعِ بمزيدٍ من الحريّة في المساجد وأشياءَ من هذا القبيل."

دَفعَ الإصرارُ على أنّ الصّلاةَ، لا السّياسة، من شأنها أنْ تحلّ مشاكلَ مصر بجمال إلى إعادة النّظر في حماسه السّابقِ تجاه عَمرو خالد الّذي كان كثيراً ما كان يستشهد بآيةٍ من القرآن تقول: "إنّ الله لا يغيّر ما بقومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسهم (سورة الرّعد: الآية 11)."

يرى جمال أنّ رسالة عمر خالد الأساسيّةَ هي ذاتُ رسالة الدّعاةِ التّقليديّينَ، رغم اختلاف أسلوبه الدّعويّ عن أسلوبهم، فيقول:

"وكان ثلثا حديثه يدور حول تطوير الذّات، ولكنّه كان يغلّف ذلك بالقيم الدينيّة والوحي الدّينيّ من التّاريخ الإسلاميّ، ولذلك كان يلقي خُطَباً تحفيزيّةً، ويروي قصصاً مُلهمة تحضّ على الجَدِّ في العمل، والاجتهاد في المدرسة، والتصدُّقِ على الفقراء.

وأنا غيرُ مقتنعٍ بأنّ هنالك إسلاماً "معتدلاً" وآخرَ "راديكالياً"، بل هنالك دُعاة مختلفون يحاولون استرضاء النّاس، وإظهارَ الدّين بطرقٍ معينةٍ بُغيةَ استيعابِ همومِ ومخاوفِ شريحةٍ معيّنةٍ من شرائحِ المجتمع.

فعندما كان عمرو خالد يخطبُ، على سبيل المثال، كان يتوجّه بخطابه ذاك إلى الطّبقات المتوسّطة والعليا في مصر ممّن تعلّم أبناؤهم في الجامعة الأميركيّة في القاهرة، أو ممّن عاشوا نمطَ حياةٍ شديد التّحرّر، فلو أخبرهم بضرورة الفصل بين الرّجال والنّساء، أو أنّ المرأة يجب ألّا تذهب إلى المدرسة أو العمل، ما كانوا ليستسيغوا الأمر."

وتفتّحتْ عينا جمال أكثر عندما انكبّ على دراسةِ الحضارةِ الغربيّةِ وفكرِها، وذلك في بداية دراسته في الجامعة، فيقول: "كانت تلك أولَّ مرّة أطّلع فيها على الكثيرِ من النّصوص الأساسيّةِ في الحضارة الإنسانيّة، كتاريخُ الإغريقِ والرّومانِ وثقافتِهما، إضافةً إلى الثقافة العربيّة الكلاسيكيّة، وثقافةِ عصر النّهضة وعصر التّنوير، وجميعِ أولئك المفكّرين." كما لاحظ أنّ معظم الكتّابِ الذين كانتْ أعمالهم تُدَرَّسُ في الجامعة كانوا في الغالب ممّن "يُشَهَّرُ بهم على منابرِ المساجدِ في خُطَبِ الجُمُعَة، أو في أي مناسبةٍ ينبري فيها واعظٌ ما للحديثِ عن الحضارةِ الغربيّةِ بوصفها حضارةً فاسدة؛ ويقول: "أدركتُ لدى قراءة هذه النّصوص من مصادرها المباشرة، والّتي طالما ندّد بها الدّعاةُ أنّها كانت تتكلّم عن الحريّة وتَقَدُّمِ البشريّة والعلمانيّةِ، وما هذه إلا مفاهيمُ طبيعيّةٌ جدّاً."

تداعى حكم حسني مبارك أخيراً، وذلك في شهر شباط/فبراير من العام 2011، بعد ما يقربُ من ثلاثينَ عاماً من الحكم، وتولى المجلسُ الأعلى للقوّات المسلّحةِ الحُكمَ بشكلٍ مؤقّت. وبعد بضعة أشهرٍ حازَ حزبُ الحريّة والعدالةِ التابعُ للإخوانِ المسلمينَ وحلفاؤهم على 235 مقعداً من أصلِ 508 في الانتخابات البرلمانيّة. كما فاز حزبُ النّورِ السّلفيُّ بـ 123 مقعداً، ممّا مَنَحَ الإسلاميّين أغلبيّةً ساحقةً، وتبعَ ذلك في شهر حزيران/يونيو 2012م انتخاباتٌ رئاسيةٌ فاز فيها محمّد مرسي مرشّحُ جماعةِ الإخوان المسلمين متفوقاً على منافسهِ الفريق أحمد شفيق، الجنرال السّابقِ وآخرُ رئيسِ وزراءٍ في عهد حسني مبارك.

لقد كانت تلك اللحظة لحظةً برز فيها الإسلاميّون، إلّا أنّ فوز مرسي لم يكنِ انتصاراً حقيقيّاً كما بدا للوهلة الأولى، فقد وضعتِ الجولةُ الأخيرةُ من الانتخاباتِ الرئاسيّةِ الناخبينَ بين خيارين لا ثالثَ لهما، خيارين كان أحلاهما مُرّاً، إما الإخوان أو شخصيّةٌ من النّظام السّابق. ونتيجةً لذلك صوّتَ لمرسي الكثيرُ ممّنْ يكرهون شخصَ شفيق ويتطلّعون إلى التّغيير، لا حبّاً بجماعةِ الإخوان المسلمين. بدا مرسي في بادئ الأمر وكأنّه يعزو فوزه في الاستحقاق الانتخابيّ الرئاسيّ لمن صوّتوا له من خارج جماعةِ الإخوان المسلمين، قاعدةِ دعمه التّقليديّةِ، وفي خطاب ألقاه في ميدانِ التّحريرِ بعدَ إعلانِ النّتيجةِ ألمح مرسي إلى أنْ لا إقصاءَ في فترة حكمه، فقال:

> "أقول للجميع، لكل فئات الشعب المصري، لأهلي وعشريتي في هذا اليوم المشهود، إنّني اليوم باختياركم بإرادتكم أنتم بعد فضل الله عز وجل، رئيسٌ لكلّ المصريّين بجميع فئاتهم، أينما كانوا، في الداخل أو في الخارج، في كل محافظات ومدن وقرى مصر، سأكون في هذا اليوم المشهود على مسافة واحدة من كلّ المصريّين، لكلٍّ قدره ومكانته، لا تمييز إلا بمقدار عطاء كلّ منهم لوطنه واحترامه للدّستور والقانون."[2]

إلّا أنّ كلَّ ادّعاءاته بعدم الإقصاء سرعان ما تبخّرتْ، فَفَقَدَ الاسلاميّون الدّعم والتّأييد سريعاً، وبعد مُضيّ خمسة أشهرٍ فقط من تولّيه منصب الرّئاسة أصدر مرسي مرسوماً اعتبره الكثيرون أنه ينشد من خلاله منحَ نفسهِ صلاحيّات ديكتاتوريّة. ورغم ما قيل بأنّها كانت صلاحيّات مؤقّتة بانتظار انتخابات مجلس الشّعب الجديدة، كان هذا المرسوم في حقيقة الأمر يهدف إلى منع مواجهة أيٍّ من قراراته الرّئاسيّة اعتراضاً في المحاكم. وتعليقاً على ذلك كتبَ "بيتر بومونت Peter Beaumont" في صحيفة الغارديان البريطانيّة: "بعد حلّ مجلس الشّعب، أصبحتْ كلّ من السّلطتين التّشريعيّة والتّنفيذيّة بين يدي مرسي، بل

وزاد عليها – على ما يبدو – السّلطةَ القضائيّةَ، معتبراً نفسه فوق المحاكم، وعيّن نائباً عامّاً دون التّشاور مع أحد."[3] وبعد بضعة أسابيع نَشرت صحيفة إيكونيميست التّقييمَ التّالي لرئاسته:

> "وَعدَ السيّد مرسي بتشكيلِ حكومةٍ قويّةٍ، وبتحسين الاقتصادِ، وبصياغةِ دستورٍ تقدميّ يُقَرّ بالتوافق، ويبدّد مخاوف جميع المصريّين، إلّا أنَّ المصريّين يشكون اليوم من ركودٍ في الاقتصاد، وحكومةٍ تشوبها الأخطاء، وتدهورٍ في حالِ الخدماتِ العامّةِ المنهارةِ أصلاً؛ كما واشتكى غير الإسلاميّين من عدم احتوائهم من قِبل الرّئيسِ الذي تجاهلَ دعوةً لحضور حفلِ تنصيبِ البابا القبطيّ الجديد زعيمِ الأقليةِ المسيحيّةِ الّتي تمثل 10٪ من سكّانِ مصر؛ كما تجاهل الإسلاميّون انسحابَ الأعضاءِ الليبراليّين والمسيحيّين من اللجنة المؤلّفة من 100 شخصٍ والمكلّفة بكتابة الدّستور، والتي سارعت بعد ذلك إلى طرحِ مشروعِ دستورٍ تضمَّنَ في اللحظةِ الأخيرةِ بنوداً وُضعت لاسترضاءِ الجيش."[4]

كان الدّستور الجديدُ بحاجةٍ إلى دعمٍ شعبيٍّ واسعٍ ليصبح أساساً لمصر ما بعد مبارك، إلّا أنّه كان – على العكسِ تماماً – سبباً للانقسام ومثارَ جدلٍ مستمرٍّ. تمّتِ الموافقةُ على الدّستور في استفتاءٍ شعبيٍّ بنسبة 64٪ من الأصوات وسْط شكاوىً حولَ عدمِ التّشاورِ السّليمِ، وهي نسبة أقلّ ممّا كان يرقى إليه طموحُ الإخوان المسلمون. كانت نسبةُ المشاركةِ في الاستفتاء الشعبيّ ضعيفةً نسبيّاً، فهي لم تتجاوز 33٪، أيْ أنّ حوالَي 20٪ فقط من النّاخبين المؤهّلينَ للتّصويتِ قد قال "نعم"، في حين أنَّ ثلاثَ محافظاتٍ من أصلِ 27 محافظةً في مصر صوتت بأغلبيتها "بلا"، كان أبرزَها محافظةُ القاهرة الّتي صوّتت بنسبة 57٪ تقريباً ضدَّ الدّستور.

وفي حزيران/يونيو 2013 عيَّن مرسي 17 محافظاً جديداً، وأكثرُ ما أثار الجدل اختيارُه لعادل الخيّاط لمنصبِ محافظِ الأُقصُر، المقصِدُ السياحيُّ الشّهيرُ. ينتمي الخيّاطُ إلى الجناحِ السّياسيِّ للجماعةِ الإسلاميةِّ المتّهمةِ بالمسؤوليةِ عن مذبحةِ الأقصرِ الّتي وقعت 1997، والتي راح ضحيتَها 58 سائحاً وأربعةُ مصريين. بدا تعيين أحد أعضاء هذه الجماعة محافظاً للأقصرِ خطوةً استفزازيّةً للغاية رغم أنّها أعلنت نبذها للعنف إبّان الهجوم. كانت الجماعة تُعتبر معاديةً للسّياحةِ وللآثارِ الّتي تعود إلى ما قبلَ الإسلام، وقد نشرتْ منشوراً في موقعها على شبكة الانترنت تقول فيه: "بما أنَّ القرى السّياحيةَ فيها ما يغضبُ اللهَ كالخمور والقمار وغيرها من المحرّمات، فبناءُ هذه الفنادقِ والقرى هو إعانةً لأصحابها على

الإثمِ والمعصية، وهذا ما لا يجوز السّماحُ به." وقد اعتَبرت صحيفةُ المصريُّ اليومَ أنّ اختيار مرسي للخيّاط كان لاسترضاء الجماعةِ "لأنها الطّرفُ الوحيدُ الذي يقف إلى جانب الإخوان ضدّ الشّعب."[5]

وفي خطوةٍ مماثلة عيّن مرسي الإسلاميَّ علاء عبد العزيز وزيراً للثقافة، وهذا ما اعتبره الكثيرون خطوةً استفزازيّةً، وسرعان ما فَصلَ عبدَ العزيز رؤساءُ الهيئة المصريّة العامّةِ للكتابِ، وقطّاعُ الفنونِ الجميلة، ودارُ الأوبّرا المصريّة، والمكتبةُ الوطنيّةُ والأرشيفُ.[6]

في تلك الأثناء، أدّتْ عدّة فضائحَ طالت شخصيّاتٍ إسلاميّةً إلى موجةٍ من السّخريةِ ضدّهم بسبب سلوكهم غير الوَرِع؛ فقد حاول العضوُ السّلفيُّ في البرلمان أنور البلكميّ أنْ يفسّرَ سببَ تضميدِ وجهِه بضمادةٍ كبيرةٍ بإبلاغِه الشّرطةِ أنّه تعرّضَ لهجومٍ من قبلِ بعضِ اللصوص الذين سرقوا منه 16000 دولاراً وحاولوا أنْ يسلبوه سيارتَه، لكنْ تبيّن لاحقاً أنّه اخترع هذه القصّة لإخفاء حقيقةِ أنّه أجرى عملية جراحيّة تجميليّة لأنفه.[7] أمّا السّياسيُّ السّلفيُّ الآخر علي ونيس فقد أُدينَ بارتكاب الفاحشة علناً، وذلك عندما ضبطته الشّرطةُ في سيارته المركونةِ "يداعبُ" طالبةً كانت جالسةً في حِجْرِه.[8]

وبعد عامٍ من تولّيه سُدَّةَ الرّئاسةَ كأوّلِ رئيسٍ مصريٍّ منتخبٍ ديمقراطيّاً، اجتاحتْ مصرَ موجةٌ أخرى من الاحتجاجاتِ انتهت بأنّ أطاحَ الجيشُ المصريُّ بمرسي وتمّ وضعه في السّجن، وكان ذلك بدايةً لسلسلةِ جهودٍ متضافرةٍ ووحشيّة غالباً لقمعِ جماعة الإخوان المسلمين، وقد لاقت تلك الجهود دعماً علنيّاً من بعضِ دولِ الخليجِ العربيّ أيضاً. مع سيطرة الجيش على مقاليد الحكم، تمّ تقديمُ مرسي وشهورَ حكمِه الاثني عشر كبشَ فداءٍ لجميعِ مشاكلِ مصر، بما في ذلك ما اعتبره الكثيرون "مشكلة" الإلحاد.

قال الكاتب حلمي نمنم في مقابلةٍ على قناة دريم: "ظهرتْ حركة الإلحاد هذه لأول مرةٍ في تاريخ مصر خلال السّنة الّتي حكمَ فيها مرسي والإخوان المسلمون مصر، ووصفها على أنّها ردّةُ فعلٍ ضدّ سوء حكم جماعة الإخوان المسلمون الّتي دَفَعتْ عامّة المصريّين إلى المساواة بين الدّين والقمع، وبالتالي فإن ما نراه مع ظهور الإلحاد هو ردّ فعل ضد حكم الإخوان المسلمين الضعيف والفقير فكرياً وذو الأفكار والأفعال البالية والمهترئة حتى عندما نقارنه بالفقه والفكر الإسلامي المعاصر."[9]

لكنّ خالد دياب، وهو صحفيّ ملحدٌ، كان قد كتب عن الإلحاد في مصر بما لا يتّفق مع هذا الرّأي حيث يقول: "بالنّسبة للأشخاص الذين تخلّوا عن دينهم أو الذين هم بلا دينٍ أصلاً، لا أعتقد أنّ لرئاسة مرسي أيّ دورٍ في تخلّيهم عن دينهم، فلو كان الأمر كذلك لمَا كان لمصر والعالم العربيّ تاريخٍ طويل من

الإلحاد، وقد تخَلَّى عدد كبير من هؤلاء عن دينهم قبل الثّورة بفترةٍ طويلةٍ، وبعضهم ملحد منذ فترة طويلة."

ويبدو أنّ الاهتمام بالإلحاد في وسائل الإعلام المصريّة قد تطوّر لأسبابٍ سياسيةٍ أبرزها الأداء المتشدّدِ للإسلاميينَ في أوّلِ انتخاباتٍ برلمانيّةٍ بعد حُكم مبارك، وزاد ذلك الاهتمامُ أكثر خلال الفترة الّتي أعقبت تولّي مرسي رئاسة مصر، وما تلا ذلك من الإطاحةِ به على يد الجيش المصريّ. يقول دياب:

"بدأت وسائلُ الإعلامِ بالتّعامل مع الإلحاد بشكلٍ مكثّفٍ، خصوصاً في الفترة الّتي أعقبتِ الإطاحةَ بمرسي، فبدت بذلك وكأنّها تحاول الإيحاء للناس بأنّ تفسيراتِ الإسلام تلك هي الّتي قادت النّاس إلى الكفر، ويبدو أنّ الحكومة استخدمت الإلحاد للترويج لفكرةِ أنّ مصر تمرّ بأزمة إيمان سَببُها الرئيس هو جماعة الإخوان المسلمين والتي كانت تبسّط الأمور إلى حدّها الأقصى، بل إلى درجة الغباء أحياناً."

لم أجد في أيٍّ من مقابلاتي الّتي أجريتها مع الملحدين أيَّ صلةٍ حقيقيّةٍ للإخوان بإلحاد هؤلاء، فرغم أنّ الإخوان لم يحاولوا اقناع هؤلاء "بالتوبة"، فقد كان إلحادهم في الغالب عمليةً فكريّةً أو روحيّةً، إذ كانت غايةُ عددٍ كبيرٍ منهم في بداية الأمر ترسيخُ إيمانِهم أو فهمُ دينهم بشكل أكبر."

لكنّ دياب يعتقد أنّ الإطاحة بمبارك وما تلا ذلك من تداعياتٍ قد خلَقتْ فرقاً كبيراً فيما يتعلق بالإيمان والكفر، إلّا أنّ ذلك لم يكن كما روّج له إعلاميو العسكر. ويتابع دياب حديثه قائلاً:

"جعلتْ الثورة المصريّة غيرَ المؤمنين أكثرَ جرأةً وانفتاحاً من ذي قبل، ودَفعتِ النّاس إلى الاستفسار عن كلّ شيءٍ حتى التّشكيك به، ممّا جعل المجتمعَ أكثر انفتاحاً على التّسامح مع الخلافات، وقد أصبح المصريون عموماً – حتى المؤمنون منهم – أكثر انفتاحاً من السابق على النُّظُم العقائديّة الأخرى، وأصبحوا الآن يتقبّلون فكرة عدم وجوب أنْ يكون النّاس جميعاً في مسارٍ واحد، فيمكن مثلاً أنْ تكون إنساناً طيّباً دون أنْ تكون مؤمناً، وفي المقابل يمكن أنْ تكون مؤمناً وسيّئاً في الوقت ذاته.

وأعتقدُ أنّ الإخوان المسلمون استفادوا قليلاً من هذه النّقطة، فقد صوّت الكثيرون لصالحهم وذلك لأنّهم رأَوا فيهمُ الرّجال الأتقياء والمنظّمين الجديرين بإدارة البلاد، غير أنّ

إدراك النّاس أنّ مجرد كون الإنسان تقيّاً لا يعني أنّه إنسانٌ مؤهلٌ بالضرورة قد أنار عقولَ الكثير من النّاس، فعدم تمتعك بالتقوى لا يعني أنّك إنسان سيّء.

ومن العوامل الأخرى مواقفُ السّلفيّين والإخوان المسلمون حيث ظنّوا أنفسَهم الوحيدين الذين يدينون بالإسلام الصحيح. لم يكن هذا سبباً ابتعاد النّاس عن الدّين، لكنّه كان كفيلاً بتوعيتهم أنّ أيّ إنسانٍ عُرضةٌ للاتّهام بالكفر؛ فحين يتّهم هؤلاء المتطرفون النّاس بالكفر– ولو كانوا مسلمين ملتزمين– سيبرز السؤال التّالي: إلى أين سينتهي ذلك؟"[10]

إنّ إطلاق الأحكام ليس حِكراً على الدُّعاة أو الحركات الإسلاميّة بأيّ شكلٍ من الأشكال، فالصّحفيُّ المصريّ مجدي عبد الهادي يشير إلى ما يُدعى "مجموعات القِصاصِ الصغيرة" المؤلفة من أفراد يرون أنّ من واجبهم فرضَ القانون، ومعاقبة المذنبين، لأنّ الدولة عاجزة عن ذلك برأيهم، ويشكّل هؤلاء مصدرَ إزعاجٍ يوميّ للمواطنين المصريّين الأقلّ التزاماً.

يصف عبد الهادي في منشورٍ على صفحته الشّخصيّة كيف أنّ محاسباً في مركزٍ لخدمة السيارات رفض كتابةَ اسمِ والده حين كان يقوم باستيفاءِ بياناته، وذلك لأنّ الطّريقة الّتي كُتب بها الاسم كانت غير إسلاميّة على حدّ زعمه. كما قام سائقُ سيّارةِ أجرةٍ بتأنيب صديقة عبد الهادي لخروجها حاسرةَ الرّأس، فأجابت بأنّها مسيحيّةٌ قبطية، إلّا أنّ السائق أصرّ على ضرورة ارتدائها للحجاب اقتداءً بالسيدة مريم العذراء. بالمناسبة، إنّ هذا النّوع من المضايقة كان تكتيكاً اعتمده مؤسّس حركة الإخوان المسلمون حسن البنّا في عشرينيات القرن العشرين، فقد اعتاد البنّا على مضايقة جيرانه بإرسال ملاحظات لا تحمل اسم كاتبها، وكان ينتابه الشكّ في كونهم مسلمين غير ملتزمين. ويضيف عبد الهادي قائلاً:

"لي جارٌ حوّلَ حديقة منزله إلى مسجدٍ صغير مزوّدٍ بمكبر صوت موصولٍ بأحدِ أعمدة الإنارة في الخارج، ثمّ ما لبث أنِ انضمّ إليه جارٌ آخرُ على مقربةٍ منه واضعاً مُكبّريْ صوتٍ على سطحِ شقته باتجاهين مختلفين، وكان يمنح ابنهُ الصّغير أحياناً فرصة رفع الأذان في الحيّ في الساعة الرابعة فجراً ليذكّر النّاس أنّ "الصلاة خيرٌ من النوم".

لا أصدّق أنّ مسؤول الحي قد عجز عنِ اتّخاذ إجراءاتٍ بحقّهم بعد أنْ تقدّمتُ بشكوىً ضدّهم، إمّا لأنّ حالهُ حالُ جيراني، أيْ أنّه يعتقد أنّهم على صواب، والدولة على خطأ، أو أنّه لم يستطعِ الاهتمام بالموضوع أكثر من ذلك، أو ربما للسّببين معاً؛ إلّا أنّي عندما

عاودت الاتّصال به لتذكيره بأنّ المشكلة لم تُحلّ، لاحظتُ أنّه كان قد ضَبطَ هاتفه المحمولَ على نغمةِ رنينٍ إسلاميّةٍ.

إنّ الأذان في واقعِ الأمرِ يُبثّ في الإذاعة المصريّة الرسميّة، وفي التلفزيون، وفي معظم الشّبكات الخاصّة، كما أنّ أوقات الصلاة تُنشر أيضاً في جميع الصّحف اليوميّة، إضافةً إلى احتواء الجوّال على برامجَ لأذان مسجّلٍ ومضبوطٍ بدقّةٍ وفق التّوقيت الصحيح، ولهذا الأمرِ معنى أكبرُ من كونه تذكيراً للناس بالصلاة، فهو أقرب إلى التّسلّط، ومحاولة السيطرة على الفضاء العامّ أقرب من تذكير النّاس بالصلاة."[11]

ترافقتْ حملة القمع ضدّ جماعة الإخوان المسلمون مع بدء النظام العسكريّ بإثبات جدارته ومؤهلاته الدينيّة، فتمّ وضع دستور جديد بعد طرحه للاستفتاء الشعبيّ في كانون ثاني/يناير 2014، دستورٍ ظلّ فيه الإسلامُ دينَ الدولةِ وبقيتْ "نصوص الشّريعةُ الإسلاميّةُ المصدر الرئيس للتشريع"، على أنْ تُنظّم الأمور الشّخصيّة والدّينيّة للمسيحيّين واليهود وفقَ "شريعتهم" الخاصّة، كما نصّ الدّستور الجديد على أنّ "الأسرة هي نواة المجتمع قائمةً على أسسٍ دينيّةٍ وأخلاقيّةٍ ووطنيّة"، لكنّ هذه البنود من الدّستور لم تسر دون مواجهة التحديّاتٍ، فقد تقدّمت مجموعةُ من الملحدين المصريّين باعتراضات رسميّة، مطالبين بعدم شملهم في مشروع الدّستور ذاك، لكن دون جدوى.[12]

غير أنّ موادّ أخرى في الدّستور نصّت على عدم التمييز بين النّاس على أساس الدّين أو المعتقد، وقد وصفَ الدّستور حرّيّة المعتقد "بالمطلقة" رغم أنّه ينصّ على أنّ ممارسة الأديان الإبراهيميّة يجب أنّ يكون خاضعاً للقانون (لكن لم تكن هنالك أيُّة إشارةٍ للأديان غيرِ الإبراهيميّة)، وللجميع "الحقّ في حرّيّة التّعبير عن رأيه سواءً بالقول أو الكتابة أو التصّوير أو أيّ وسيلةٍ من وسائل التّعبير والنّشر".[13] وقد كَتبت رنا علم في صحيفة ديلي نيوز المصريّة أنّ هذه البنود من الدّستور فيها تناقضٌ، فتقول:

"كيف يمكن للمرء ضمانُ الحريّة عندما يقتصر الدّستور على الأديان الإبراهيميّة الثلاثة، متجاهلاً بذلك مليار ومائة مليون هندوسيّ على مستوى العالم، و488 مليون بوذيّاً، عداك عن أتباع الديانات الأخرى؟ كما يتجاهل هذا الدّستور أنّ عدمَ اعتناقِ أيّ دينٍ هو حرّيّة شخصيّة أيضاً.... فليس بمقدور المرء أنْ يكون ملحداً في مصر. ومن أغرب ما نجدهُ في هذا الدّستور كتابة الديانة على البطاقة الشّخصيّة، كما أنْ لا أحدَ يستطيع

الزّواج مثلاً ما لم يكنْ من معتنقي إحدى الديانات الإبراهيميّةِ الثلاثة، فلا زواج مدنياً في مصر.

وفوق هذا وذاك، هنالك تمييز في الديانات الإبراهيميّة الثّلاث ضدّ الشيعة، فالحديث عن مكر الشيعة وضلالهم، وحاجة مصر إلى إيقاف مدّ الفكر الشّيعيّ هو الشّغلُ الشّاغلُ لوسائل الإعلام المصريّة المقروءةِ منها والمرئيّة. وفي خطوةٍ لافتةٍ منعت الحكومة المصريّة الحجّاجَ الشّيعةَ من دخول مصر عدّة مرّاتٍ حتى بعد سريان العمل بالدّستور "التّقدّميّ".[14]

بَيد أنّ المسلمينَ الشِّيعةَ لم يكونوا الوحيدين الّذين أحسّوا بنتائجِ هذه الحريّة الجديدة المزعومة، فقد طالتْ مساجدَ السّنّةِ أيضاً، حيث بدأت الحكومة – وبعد أسبوعين فقط من بدء العمل بالدّستور الجديد – بتحديد مواضيعَ محدّدةٍ للخُطبة لكلّ صلاة جمعة، إلّا أنَّ بعض مشايخ المساجد الّتي تديرها الدّولة لم يرضخوا للقرار، فما لبثوا أنْ تلقَّوْا تهديداتٍ باتّخاذ إجراءاتٍ تأديبيّة بحقّهم. أمّا المساجدُ الّتي لا تخضع لسلطة الدّولة فقد تلقت تهديداتٍ بأنّ الحكومة ستضع يدها عليها.[15] وفي هذه الأثناء كان الجيش المصريّ يبني مسجداً جديداً ضخماً سُمِّيَ فيما بعدُ مسجد المشير الطنطاويّ قائدِ الجيشِ الذي أُقيلَ على يدِ مُرسي سنة 2012.[16] لم يكن ذلك في الحقيقة سوى استبدالٍ لتسلُّط الدّين بتسلّطٍ من نوعٍ آخر.

وفي شهر حزيرانَ/يونيو من سنة 2014 وبعد مضي أسبوعٍ على انتخاب السّيسي كرئيسٍ جديدٍ لمصر نشرتْ صحيفةُ الأهرام المصريّة مقالاً تحدثت فيه عن إعداد الحكومة خطّةً أمنيّةً "لمواجهة الإلحاد في مصر والإجهاز عليه". فبدت تلك الخطّةُ الّتي طوّرتها وزارة الشّباب والرّياضة – بحسب ما أوردته الصّحيفة – انعكاساً للرّؤية السّائدة بأنّ "الإلحادَ هو مشكلةُ الشّباب" وأنّه سيأخذ أبعاداً أكبرَ قد تشمل المجالاتِ "الدّينيّة والنّفسيّةَ والاجتماعيّةَ والتّربويّةَ".[17]

نشرتْ صحيفة البديل الإلكترونيّة ومقرّها القاهرة قُبيل نهاية سنة 2013 على صفحتها الرّسمية فيلماً يُظهر ثمانية شُبّانٍ مصريّين يتحدثون عن إنكارهم لأيّ عقيدةٍ دينيّةٍ والتّحامل الذي واجهوه نتيجةً لذلك، حيث قال أحدهم: "ليس من السّهل على النّاس تقبُّل فكرة أنْ أكون بلا دين" ويقول آخر: "لو عَلمَ النّاس في مكان العمل بذلك الأمر لأصبحتُ بلا عملٍ". ويقول ثالثٌ وهو سلفيٌّ سابقٌ: "إنّ مطالبنا بسيطةٌ للغاية وأساسيّةٌ، فنحن لا نطمع إلا بالحصول على ذاتِ الحقوق الّتي يتمتّع بها أيّ مصريّ آخر".[18]

وقد تمَّ ذِكرُ أسماءِ غير المؤمنين ممنْ ظهروا في الفيلم وهم ستّةُ رجالٍ وامرأتان كانت وجوههم ظاهرة للكاميرا باستثناءِ واحدٍ منهم. وقدّم هذا الفيديو الموجز في اثنتي عشرة دقيقةً آراءهم بأسلوبٍ واقعيٍّ دون التّعليق عليه. قد لا يكون لهذا الأمر أهميّةً كبيرةً في العديد من الدّول، لكنْ حين يتعلّق الأمر بوسائل الإعلام المصريّة المتحدّثة باللغة العربيّة فقد بدتْ تلك الحادثةُ أمراً غير مألوفٍ أبداً وغير مسبوق، فمِثلُ هذه الآراء ستُقابَلُ بالإدانة أو ستُواجَهُ من قِبَلِ المعارضين لها على أقلِّ تقدير، هذا إنْ عُرِضَتْ أصلاً.

عندما حاولت الفضائيّة العربيّةHonest TV معالجةَ موضوع الإلحاد في برنامجٍ حواريٍّ مباشرٍ، أوضح مقدّم البرنامج محمّد موسى أنّ هذا البرنامج جزءٌ من الحرب على تلك "الأفكار الهدّامة" معتبراً الإلحادَ مؤامرةً خارجيةً. وقد قَبِل مصطفى زكريا، وهو ملحدٌ من الإسكندريّة، الظهور في هذا البرنامج في خطوةٍ شجاعة أو ربّما حمقاءَ منه، فأخبرَ المشاهدين أنْ ليس لديه أدنى رغبةٍ في "إهانة الأديان" إنّما كانت رغبته وببساطةٍ هي أنْ يتقّبله المجتمع المصريّ كملحد. لم تكن غاية زكريا نقد الدّين أو الإسلام. وأضاف أنّ على النّاس استيعابُ ضرورةِ بقاءِ المعتقداتِ الدينيّةِ أمراً شخصيّاً، وأنّنا بحاجةٍ لأنْ نعامل بعضنا البعض كبشر.

وردّاً على تصريحات زكريا، طالَبَ رجلُ الدّين المعروفُ محمّد علي جمعة باعتقاله وإعدامه. يقول هذا الشّيخ أنّ الإلحادَ "ظاهرةٌ جديدةٌ ابتكرها الصّهاينة". أمّا رئيس مديريّة أمن الإسكندريّة فقد قال للبرنامج أنّه كان بِصددِ تشكيل فرقةِ تدخّلٍ خاصّة من الضُّبّاط المتخصّصين في معالجة "جرائمَ" كهذه لاعتقال الملحدين.[19]

وبشكل عامّ كانت النّقاشاتُ الّتي دارت على شاشات التّلفزيون المصريّ عن الإلحاد غيرَ مُنصِفةٍ. تقول أميرة نويرة، أستاذةُ الأدبِ الانكليزيّ في جامعة الإسكندريّة:

> "حتّى عندما يقولون أنّنا سنتحدث اليوم عن الإلحاد، فإنّهم يعتبرونها مشكلة، أو شيئاً ما يجب التّصدّي له، لا حقيقةً واقعة. وهذا يشبه إلى حدٍّ كبيرٍ حديثهم عن المثليّة الجنسيّة على سبيل المثال. وحتّى إنْ تحدّثوا عنه فإنَّ في حديثهم هذا ما يشيرُ ضِمناً إلى ضرورة محاربته.
>
> فكلّ ذلك النّقاش يميل إلى ضرورة اعتناق المرء عقيدةً محدّدةً ويحضُّ الشّبابَ على ضرورة الالتزامِ بمعتقداتهم. لم ألحظ أيّ عدلٍ حقيقيٍّ في التّعامل مع النّاس الذين لديهم

شكوكٍ حول الدّين، فحتّى مُقدّمُ البرنامجِ مُنحازٌ. وأعتقد أنّهم يخشون أنْ يبدوا بنظر النّاس أنّهم يشجّعون الملحدين، لذا فإنّهم يسلكون الطّريق الآخر تأكيداً منهم على أنّهم لا يؤيدون الإلحاد."[20]

عندما ظهر الملحدُ إسماعيل محمّد على قناة المحور الفضائيّةِ سنة 2013، كان عالمٌ من علماءِ جامعة الأزهرِ يفسّر للمشاهدين سببِ اعتبارِ الإلحادِ جريمةً، فقال:

"أولاً لأنّه يتعارض مع قانون سيادة الدّولة.

والأمر الثاني هو أنّ الترويج للإلحاد لا ينجم عنه سوى إثارة الشّكوك بالأديان السّماويّة ممّا يُعتبر شكلاً من أشكال ازدراء الأديان.

وثالثاً ... لأنّ التّضليلَ الفكريّ بحدِّ ذاته يعتبر جريمةً بحقّ العقل، وذلك حين تقوم بتضليل إنسانٍ بسيطٍ عمداً ... مُقنعاً إيّاه أنْ لا وجود لله وأنّ الحياةَ ماديّةٌ ...[21]

بدا أنّ الغاية من هذا البرنامج مناقشة مطالب إسماعيل محمّد وعددٍ من الملحدين الآخرين بأنّ تُؤخذ حقوقهم بعين الاعتبار في مشروع الدّستور المصريّ الجديد. إلّا أنّ الحوار لم يكن مثمراً، فكلّما حاول محمّد الرّدَّ على رجل الدّين كانت مُقدِّمةُ البرنامج رِهام السّهلي تضغط عليه باستمرار ليشرح لها ما الّذي "جناه" من وراءِ الإلحاد:

–السّهلي: المعذرة محمّد، لكن أودُّ أنْ أسألك سؤالاً، ما الّذي جنيته من الإلحاد؟

–محمد: لا شيء على الإطلاق.

–السّهلي: يجب أنْ أسألك ...

–محمد: (مخاطباً مُقدِّمة البرنامج): وما الذي جنيتُموه من الدّين؟

–السّهلي: كلَّ شيء. حياتي كلُّها من الدّين.

–محمد: أولاً، أنا أيضاً استفدت من إلحادي في كلِّ شيءٍ، فأنا أتمتّع بإنسانيّةٍ رائعةٍ وجميلةٍ جدّاً ...

–السّهلي: آه ...

–محمد: ليست هذه هي القضيّة.

–السّهلي: تقصد أنّك استفدت من الإلحاد؟

–محمّد: إنّ الفكرة برمتها أنْ ثمّةَ نقاطُ التباسٍ يجب توضيحها قليلاً ونحن لا نفعل ذلك...

–السّهلي: ما الذي جنيته من الإلحاد؟

–محمّد: لم أجنِ شيئاً، ما من مكسبٍ في ذلك ... كلُّ ما في الأمر أنّني تغيّرت. لقد اعتدت على الإيمان بشيءٍ معيّن، والآن أنا أُؤمن بشيءٍ آخر. أنا إنسانٌ مثلك وأنا مواطنٌ مصريٌّ مثلك وأنتمي إلى هذا المجتمع ولي حريّتي في التّعبير عن وُجهة نظري. فيما يتعلّق بالفكرة الّتي نروجها (للإلحاد)، فنحن لا نروِّج لشيءٍ على الإطلاق، ونحن لا نريد من النّاس أنْ يلحدوا ولا أنْ يتخلّوا عن دينهم، إنّما ...

–السّهلي: هل أنت سعيدٌ بإلحادك محمّد؟

–محمد: المعذرة من فضلك، دعيني أتحدّث قليلاً ...

–السّهلي: ممم ...

–محمّد: الحديث عن الإلحاد واعتباره جريمةً وما إلى ذلك ... إذا كان الأمر كذلك فإنّ علينا مُصادرة العديد من كتب الفلاسفة في مكتباتنا وجامعاتنا. فالكثير من الفلاسفة الذين ندرس فلسفتهم بالإضافة إلى فلاسفة اليوم يقولون أشياءَ من هذا القبيل. فعندما ندرس مثلاً كتباً لِـ"نيتشه" وهو القائل بأنّ "الله ميت" – أعني على سبيل المثال فقط – هل يعني ذلك الآن ...

–السّهلي: (تقاطعه مذعورةً على ما يبدو من ذِكر أنّ الله ميّت): أستغفر الله.

ثمّ تحوّل النّقاش إلى الحديث عن الدّستور المصريّ الجديد.

–السّهلي: ماذا تريد من الدّستور الجديد؟

–محمّد: نريد دولةً للمواطن المصريّ.

–السّهلي: هذا أوّل سؤالٍ تجيب عليه اليوم.

–محمّد: نعم سيدتي، نعم، فهذا السؤال مهمٌّ جدّاً، إنّه سؤالٌ عن تحديد مصير، فهو يتعلّق بمستقبلنا جميعاً ...

–السّهلي: مصير؟ مصيرُ ماذا؟

–محمّد: نحن ندعو إلى دولةِ مواطنةٍ لا فرق فيها بين مسلمٍ ومسيحيٍّ، دولةٍ يستطيع فيها المسيحيُّ مثلاً أنْ يصبح رئيساً للجمهوريّة، دولةٍ ليس فيها ... لقد كان المسيحيّ ممنوعاً لفترةٍ محدّدةٍ من أنْ يصبح رئيساً للدّولة وأظنّ أنّ ذلك هو الحال حتّى الآن.

–السّهلي: المسيحيّون تُمثّلهم الكنيسة وهي الّتي تطالب بحقوقهم، ماذا عنك أنت؟ ماذا تريد؟

–محمّد: نحن ضدّ إعطاء الأفضليّة للكهنوت أو بعبارةٍ أصحّ نحن ضدّ تحكم ...

–السّهلي: أنت كملحد، ماذا تريد من الدّستور؟

–محمّد: أنا أتحدّث كمواطنٍ مصريٍّ.

–السّهلي: آه ...

–محمّد: أنا أتحدّث كمواطنٍ مصريٍّ.

–السّهلي: وكملحدٍ أيضاً.

–محمّد: لا سيدتي، أنا أتحدّث كمواطنٍ مصريّ.

–السّهلي: أنت كملحدٍ طالبت بأنْ يُسمع صوتك، لذا ما الاختلاف الذي لمسته وتريد اقتراحه لبقيّة المصريّين وجميعُهم الآن مُمَثّلون في الدّستور الجديد؟

–محمّد: لا يا سيدتي، أنا أتحدّث كمواطنٍ مصريّ، ... أنا لست مهتمّاً بعقيدة أحد، أنا لست مهتمّاً بعقيدتك.

–السّهلي: أنت كملحدٍ، طالبت كثيراً بأنْ يُسمعَ صوتك، لذا ما الاختلاف الذي لمسته وتريد اقتراحه على بقيّة المصريّين وجميعهم الآن مُمَثّلون في الدّستور الجديد؟

–محمّد: سبقَ لي أنْ قلت لكِ، وهذا مثالٌ واضحٌ وبسيط، أنْ ليس من حقِّ المسيحيّ التّرشّح لرئاسة الجمهوريّة.

أَحبط سيرُ النّقاش محمد فاشتكى أنّه لم يُعطَ الفرصة للحديث ثمّ اعتذرَ إلى المشاهدين وإلى "جميع أصدقائه" مما أتاح الفرصة للسّهلي لتكرار مقولة أنّ الإلحاد مؤامرة خارجيّة وسألتْ محمّد إنْ كان هؤلاء الأصدقاء خارج مصر.

–محمد: لا سيّدتي، نحن مصريّون، كلّنا مصريون، اسمحي لي ...

–السّهلي: ألا تتواصل مع أحدٍ في الخارج؟

–محمّد: لا سيدتي نحن شبّان مصريّون، وأعني بذلك أنّنا لسنا عملاء أو جواسيس.

–السّهلي: لم يذكر أحدٌ أنّكم جواسيس، لكن دعونا نأخذ فاصلاً قصيراً.

حتّى المشاهدون الذين اتصلوا بالبرنامج صبُّوا جامَ غضبهم على محمّد فقد اتّهمه البعض بالتّسبب في "تصديع" الصّفّ الاجتماعيّ و/أو التّورّط بمؤامرةٍ خارجيّةٍ، رغم أنّ أحدهم اتّهم محمداً بأنّه كان جزءاً من خطة شرّيرة يحيكها الإخوان المسلمون. وكان من ضمن المتّصلين بالبرنامج أمّ محمّد والّتي عَزَتْ سبب إلحاده إلى "شِدة تعلّقه بالكمبيوتر" وأضافت أنّ إخوته غضبوا كثيراً عندما شاهدوا البرنامج.

غير أنّ ظهور محمّد على شاشة التلفزيون لم يكن كارثةً في نظر الجميع، فقد أشار الصّحفيّ والنّاشط الحقوقيّ البارز هشام قاسم إلى أنّ مجرّد السّماح له بالظّهور كان اختراقاً فريداً من نوعه، فيقول: "ذُهلت عندما شاهدت البرنامج حيث أنّي لم أتوقّع رؤية شيءٍ من هذا القبيل في حياتي."

كما عُرضت مقابلة مع أيمن رمزي نخلة على قناة النّهار الفضائية،[22] وهو أمين مكتبةٍ في إحدى الكلّيات، كان قد ترك ديانته المسيحية. أجرت المقابلةَ معه رهام سعيد الّتي مثلها مثل رهام السّهلي لم تترك له المجال ليشرح وجهة نظره. ودار بينهما الحوار التّالي:

-سعيد: ما هو دينك؟

-نخلة: أنا من خلفية مسيحية.

-سعيد: ماذا تقصد "بالخلفية"؟

-نخلة: أعني أنّي كنت مسيحياً، أمّا الآن فأنا إنسان. عندما وُلدت كان أبواي مسيحيين، لذا فقد وضعوا الديانة "المسيحية" على شهادة ولادتي. بقيت مسيحياً لعدّة سنوات لكنّي الآن إنسان.

-سعيد: لم يقل أحدٌ أنك حيوان...(تضحك).

-نخلة: لا أضع الدّين ضمن دائرة اهتماماتي فهو ليس مصدر قلقٍ أو اهتمامٍ بالسبة لي...

-سعيد: ألا تؤمن بالله؟

-نخلة: لا يعنيني ذلك. كل ما يهمّني هو الإنسان.

-سعيد: تقصد أنّي أندرج ضمن دائرة اهتماماتك؟

-نخلة: بالتّأكيد نعم...

استمرّت المقابلة وهو متشبّثٌ بفكرة أنّ الألوهيّة والأديان "ليست في دائرة اهتماماته"، وأنّ همّه الوحيد هو كيف له أنْ يعيش كإنسانٍ محترم، ما دفع السيدة رهام سعيد إلى تكرار سؤالها "من خلق الإنسان؟" مشيرةً إلى أنّه "قد اختلطت عليه الأمور" بسب تعمّقه في قراءة الكتب.

-سعيد: أريد أنْ أعرف ما الذي جعلك تُقدم على اتخاذ قرارٍ كهذا؟

-نخلة: كان ذلك تطوّراً فكريّاً.

–سعيد: أم أنّه كان نتيجةً لجلوسك في المكتبة وقراءتك للكتب؟

–نخلة: لقد قرأت آلاف الكتب.

–سعيد: من الذي ضلّلك إذاً؟

–نخلة: لست ضالّاً، وإنّما أعتقد أنّ تطوري الفكري قد ساقني إلى فعل هذا.

–سعيد: ألم تخف؟

–نخلة: وممّ أخاف؟

–سعيد: تخيّل أنّ هنالك نسبة 1% أنّك مخطئ؟

–نخلة: إنّه قراري الشّخصيّ.

–سعيد: (تكمل سؤالها): ...ونزلت إلى القبر واكتشفت أنّ الله حقٌّ؟

–نخلة: إنّه قراري الشّخصيّ، ولا يحقُّ لأحدٍ أنْ يفرض الموت عليّ أو أنْ يعتبرني مخطئاً ومن ثمّ يقتلني لأنّه ليس هو من منحني الحياة.

–سعيد: من منحك الحياة إذاً؟

–نخلة: أبواي ولداني.

–سعيد: ومن خلق أبويك؟

–نخلة: آباؤهم وأجدادهم.

–سعيد: أشعر برغبةٍ في البكاء الآن.

–نخلة: ولِمَ تبكين؟ لا، لا تبكي.

–سعيد: لأنّني تأثّرت بكلامك، ألديك الجرأة حقّاً لتقول ذلك؟

–نخلة: أنا لا أخشى الغد أو المستقبل.

–سعيد: ولكن ألا تخشى أنْ يعتبرك النّاس كافراً؟ ألا تُقلقك هذه الكلمة؟

وبعد بضعة أسابيع، أعلن وزير الثّقافة طرد نخلة من عمله وأحاله إلى النائب العامّ بسبب نشره أفكاراً "إلحاديةً وشاذّة في المجتمع المصريّ". اتُّهم بعدها "بإنكار وجود الله وإنكار الأديان السماوية والأنبياء والكتب المقدّسة بطرقٍ مباشرةٍ عبر المحطّات الفضائية وغير مباشرةٍ داخل المؤسسة التعليمية."[23]

حتّى عندما تحاول البرامج التلفزيونيّة تسليط الضّوء على هذه المواضيع، تكون هذه البرامج مرتّبة بحيث تميل الكفّة لصالح الإيمان. مُعز مسعود هو داعية يظهر في التلفاز ومُستعدٌّ لمناقشة المُشكّكين بالدين بأسلوبٍ نقديّ أقلّ على عكس الكثير من الدّعاة التقليديين، وهو شابٌّ عصريّ ومنفتح في مُقتبل العمر نسبياً فهو من مواليد 1978، وغالب حديثه يدور عن رحمة الله بعباده أكثر من الحديث عن العقاب ويؤكد على الجانب الرّوحيّ للإسلام.

يبدو مسعود وكأنّه قد أدرك ثلاث نقاطٍ بسيطة لم يُدركها غيرهُ من الدُّعاة ورجالِ الدّين التقليديين، النقطة الأولى هي أنّه ليس من الضروري أنْ يخيف عقابُ الله المشكّكين فيخضِعَهمْ، بل ربّما يزيد من شكوكهم. النقطة الثّانية هي أنّ المشككين غالباً ما يميلون إلى الاستياء عندما تخبرهم أنّه من العيب أنْ يسألوا أسئلة كهذه أو أنّهم مُلزمون بضرورة الثقة بوجود الله وأنّ عليهم التوقّف عن شكّهم. أمّا النّقطة الثالثة فهي أنّ أولئك النّاس الذين تخلوا عن دينهم الرسمي في توقٍ دائمٍ للجانب "الروحي" في حياتهم.

لم تكنِ الشّكوكُ في الدّين بنظر مسعود عائدةً إلى وساوسِ الشّيطان أو نتيجةً لمؤامرة خارجيّة كما كان يظنّها البعض، فهي شكوك يمكن تفهّمها وإنْ كانت خاطئة ويجب مواجهتها بدلاً من إنكارها على الفور. وبهذه الطّريقة الذّكيّة قدّم مسعود برنامجاً بعنوان "رحلة اليقين" على شاشة التّلفزيون المصريّ خلال شهر رمضان سنة 2012. كانت مدّة كل عرض 15 دقيقةً وناقش فيها مسعود أفكار "ملحدين بارزين" من أمثال نيتشه وداروين ودوكينز وكان يهدف من وراء ذلك إلى تفنيد هذه الأفكار. كَتبَ محمّد خير في تعليق له نُشر في صحيفة الأخبار اللبنانيّة:

> "يميل مسعود إلى المزج بين العلماءِ والفلاسفةِ كداروين ونيتشه من جهة – والذين لم يكن الإلحاد وحده في نظرهم قضيّة ذاتِ أهمية – وبين شخصيّاتٍ أعلنت تأييدها للإلحاد طوالَ مسيرة حياتهم أمثال "ريتشارد دوكينز" صاحب كتاب "وهم الإله" و"السّير أنطوني فلو Anthony Flew" من جهة أخرى.

دَفعَ هذا العرضَ التلفزيونيّ إلى تفسير الإلحاد في غالب الأمر على أنّه نتيجةٌ حتميةٌ لاضطراباتٍ نفسية، كما هي حالُ داروين حينما فقد ابنته الشابة، أو أنّه يُسبب مشاكلَ نفسيةٍ، وهذه حالُ نيتشه الذي أصيب بانهيارٌ عقليٌّ في أواخر سنيّ عمره.

إلّا أنّ الصّفة الإيجابيّة الّتي ميّزت برنامج مسعود التلفزيونيّ عن غيره هي أنّه لم يكرّر الأخطاء الشّائعة كنظريّة التّطور الّتي تزعمُ أنّ الإنسان ينحدر من سلالة القردة.

كما أنّ مسعود لم يدَّعِ أيضاً استناده إلى خلفياتٍ علميّة تؤهله إلى مناقشة نظرية التطور، فقد كان صادقاً مع مشاهديه عندما قال بأنّ داروين لم يصطدم مباشرةً مع المعتقدات الأساسية للدين المسيحي.

والسِمة الأبرز الّتي ميّزت هذا البرنامج عن غيره قد تكون في ذلك التفسير "المنطقي" النّادر في عالَمِ البرامج الدينية، بالإضافة إلى حقيقة أنّه يسمح بمواجهة الحجج بدلاً من إنكارها كما كان يحدث في الماضي."[24]

يُقال أنّ فيلم "الملحد" الذي عُرض سنة 2014 هو أوّل فيلمٍ يسلّط الضّوء على موضوع الإلحاد في تاريخ السّينما المصريّة، وقد أثار الفيلمُ جدلاً واسعاً حتّى أثناء إعداده وذلك بسبب عنوانه بشكلٍ رئيسٍ. إلّا أنّ مُخرج الفيلم نادر سيف الدّين أكّد في مقابلةٍ له مع صحيفة الأهرام أنّ الفيلم لا يؤيد الإلحاد وإنّما سيناقش "مشكلةً اجتماعيّةً محوريّة نعاني منها جميعا في مجتمعاتنا اليوم".[25] وقد أسهبَ في شرحِ أهدافِ الفيلم في مقابلةٍ له على قناة العربيّة جاء فيها:

"ولدى سؤاله عن سبب تعاطيه مع قضيّةٍ قد تُحدث الكثير من المشاكل لمجرّد تسمية الفيلم بهذا الاسم، أجاب سيف الدّين بأنّه قد لاحظ ازدياد عدد الملحدين في مصر وأنّهم بدأوا يطالبون بحقوقهم مما جعله يشعر بضرورة إنتاج فيلمٍ يعالجُ هذه المشكلة ويسلِّط الضّوء على المفاهيم الخاطئة الّتي يتبناها الملحدون."[26]

وافق شيوخُ الأزهر في نهاية المطاف على عرض فيلم "الملحد" بعد أنْ تشاوروا في وقتٍ سابقٍ في نص الفيلم، كما وافق جهاز الرقابة الحكوميّة على عرضه، إلّا أنّ مصير ذلك الفيلم كان الفشلَ ويُعزى ذلك على ما يبدو إلى طبيعة عنوانه المثيرة للجدل. وقد تردّدت دور السينما المصريّة في عرضه خوفاً من إثارة الاحتجاجات الشعبية وأشارت التقارير إلى أنّه لم يُنتج سوى 15 نسخةً فقط من هذا الفيلم.[27] يحكي

الفيلم قصة داعية مسلم وابنه الملحد واسمه نادر. تضيف المقالة الّتي نُشرت في موقع العربية: "كان ذلك الشيخ مُقدماً لبرنامجٍ دينيٍّ أيضاً على إحدى القنوات الفضائية، إلّا أنّه أصبح أُضحوكةَ المشاهدين بعدما كُشفت حقيقة مُعتقد ابنه، فقد أصبح يتلقّى مكالماتٍ على الهواء من أُناسٍ اتّصلوا به ليخبروه أنّه ليس أهلاً لأن يكون داعيةً بسبب عجزه عن إقناع ابنه بأنْ يؤمن بالله."[28] غير أنّ رسالة الفيلم – بعيداً عن الدّعوة إلى الإلحاد – توحي بأنّ الإلحاد قد يكون مُهلكاً، حيث يموت والد نادر لعدم قدرته على تحمّل هولِ أنْ يكون ابنه ملحداً.

وفي حين كانت وسائل الإعلام النّاطقة بالعربيّة تميل إلى التهويل من موضوعَ الإلحاد وتغذّي التّحامل والتمييز ضدّه، كانت وسائلُ الإعلامِ المصريّة الناطقة باللغة الإنكليزية تطرق الموضوع بطريقة أكثر واقعية وتوازناً، وكانت الموادّ المنشورة باللغة الإنكليزية موجّهةً إلى جمهور بعينه وغالباً ما كانت تمرّ دون ملاحظة الجماهير لها، مما منح النّاشرين هامش حرية أكبر عند التّطرّق إلى مواضيع حسّاسة كهذه.

فعلى سبيل المثال انتقدت صحيفة Egypt Independent في إحدى مقالاتها محاكمة ألبير صابر الذي أدين بالتّجديف (الكفر) و"ازدراء الأديان،"[29] في حين عالجت مقالاتٌ أخرى ظاهرة الإلحاد بصراحةً أكبر والمشاكل الّتي قد يواجهها غير المؤمنين، وقد استهلت إحدى المقالات عن المرتدين عن المسيحية والإسلام بالقول:

> "يقول الملحدون في بلدٍ متديّن كمصر أنّ أعدادهم في تزايدٍ مستمرّ رغم كون الإلحاد أمراً محظوراً وممقوتاً بشدّةٍ، إلّا أنّ أيّ ظهورٍ لأيّة حركةٍ جديدة كان يُقابل بِردّ فعلٍ ثقافيٍّ. والتقت الصّحيفة بِخمسة عشر ملحداً معظمهم في العشرينيات من العمر في مقهىً في وسط القاهرة في محاولةٍ منها لفهم المِحن الّتي يواجهها ملحدو مصر."

وذهبت الصحيفة إلى القول أنّه "أنْ تكون شابّاً وملحداً ربما يكون أمراً صعباً جدّاً وبالأخصّ للذين ما زالوا يعتمدون على الأهل فيما يتعلق بالمصروف الشخصيّ ويخافون من البوح بمعتقداتهم الحقيقية والّتي قد تؤدي إلى عزلهم عن الأسرة وحرمانهم من المصروف المالي.[30]

كانت تلك المقابلات من اختصاص الصّحفي منير أديب الّذي ألّف كتباً باللغة العربية تحدّث فيه عن الإلحاد في مصر. وبينما يعرض النقاشات الّتي تدور بين المؤمنين والملحدين ويستعرض "العلاقة بين

التمرد السياسي والتمرّد الديني"، إلّا أنّه يوضّح أنّه لا يشجع الإلحاد. كما يعرض الكتاب أيضاً "تفنيداً علميّاً ودينياً" لأفكار الملحدين ويُقدّم أمثلةً واضحةً عن مُشكّكين أصبحوا مؤمنين في نهاية المطاف.[31]

وبحلول نهاية سنة 2013 قامت صحيفة ديلي نيوز مصر بنشر قائمة تضمّ المقالات الأربع عشرة الأكثر قراءةً لذلك العام على صفحتها على الانترنت. تطرّق ثلاثةٌ من هذه المقالات لموضوع الإلحاد على وجه التّحديد. كان أحد هذه المقالات يحمل عنوان "جيلٌ من الملحدين" وكتبته أمٌّ معنيّةٌ بالأمر كون ابنها البالغ من العمر اثني عشر ربيعاً" بدأ فجأةً يستخفّ برجال الدين، وقد اتّهمت فيه رجال الدّين بتشويه اسم الإسلام حيث تقول:

> "رغم أنّني لست مثالاً للمرأة المتدينة لكن يؤلمني رؤية مثل هذا الازدراء يصدر من ابني تجاه أولئك الذين يُفترَضُ أنْ يكونوا مُقدّسين. والأسوأ من هذا وذاك أنّني لم أستطعِ الدّفاع عن أولئك المشايخ كوني لا أريد له أنْ يستمع إلى تلك الأشياء البالغة القبح الّتي يتفوّه بها هؤلاء الرّجال. ونحن اليوم ممزّقون بين حقيقة ديننا وبين الرّسالة الّتي جاء بها أولئك الرّجال المُلتحون، والسّؤال هو ماذا يُفترض بنا أنْ نقول لأطفالنا؟"[32]

وتطرّق مقالٌ آخر إلى مناقشة قضيّة عضوٍ سابقٍ في جماعة الإخوان المسلمون وقد أعلن في مُدوّنته على الإنترنت أنّ الدّين عندهُ أصبح "مُعلّقاً". وَوَرد في المقال أنّ الشّباب "يشعرون بالعزلة بسبب خُطَبِ الجمعة الجوفاء والّتي تشير بطريقةً أو بأخرى إلى أنّ جميع غير المسلمين هم زنادقةٌ وليسوا بمصريّين."[33]

فإلقاء اللّوم على التّطرّف أو المشايخ الغافلين لارتفاع نسبة الإلحاد إنّما يخدم غاياتٍ سياسيةً أو ربّما لِطمأنة المؤمنين الأكثر اعتدالاً إلى حدّ ما، وقد يكون التّطرّف الدّينيّ عاملاً في ذلك، لكن تخيّل أنْ تختفي مشكلة الإلحاد إذا ما تمّ التّعامل مع التّطرّف ما هو إلّا خداعٌ للذات وفشلٌ في الاعتراف باعتراضات الملحدين على الدّين بحدِّ ذاته. وقد تناول المُغترب المصريّ خالد دياب هذه القضايا المحوريّة في مقال بعنوان "اعترافات كافرٍ مصريّ" حيث أنّ الشكوك الّتي راودته وهو طفل حول سبب ذهاب أصدقائهم الإنكليز إلى النّار لدى وفاتهم قد تطوّرتْ وتحوّلتْ إلى أسئلة مختلفة حول وضع المرأة والميول الجنسيّ فضلاً عن الأخطاء العلميّة والتّناقضاتِ الموجودة في القرآن." ويضيف دياب:

"ناهيكَ عن الأسئلة الميتافيزيقيّة والفلسفيّة من قبيل: لماذا من شأن الله العادل والرّحيم أن يخلق كائناً مَعيباً ثم يُخضعه إلى الامتحان، في الوقت الذي يعلم فيه – وهو العالم بكل شيء–عاقبتَه مسبقاً؟ ولا أخصّ بهذا الإسلام وحده بالتّأكيد فالسّؤال ينطبق على بقيّة الأديان."[34]

وقال دياب في مقالته أنّ هذه هي المرّة الأولى الّتي يفصح فيها عن إلحاده في جريدةٍ مصريّةٍ وأنه كان يتوقع أنّ عمله سيُغضب بعض القُرّاء، حيث يقول: "أنا لا أرغب في إهانة مُعتقدات النّاس الخاصّة بهم، لكنّي أؤمن بأنّ ليَ الحقّ في التّعبير عن قناعاتي القلبيّة الخاصّة الّتي توصّلتُ إليها بعد سنواتٍ من الشكّ والتّساؤل والتّردّد والّتفكير." ومن المثير للاهتمام رغم ذلك كلّه أنّه لم يكن هنالك أيّ تداعيات أو ردود فعل غير مرغوب فيها، وربّما مردُّ ذلك أنّ نبرة المقال كانت مُنتقاةً بعنايةٍ وغيرُ استفزازيّة. ولدى سؤاله فيما بعد عن الاستجابة لمقالته، أجاب دياب:

"بالمجمل كان ردّ الفعل إيجابيّاً، فقد تمّ قراءة المقال على نطاقٍ واسع وأثار الكثير من الفضول والاهتمام. وبالنّظر إلى كلّ ذلك الضّجيج حول مواقف المسلمين تجاه الإلحاد والرّدّة، بدتْ ردّة الفعل العامّة وكأنّ النّاس تقول أنّنا حتى ولو لم نكن نوافقك الرّأي إلّا أنّنا نتقبّل حقّك في التّعبير عن أرائك، بل إنّ المقالة مكّنتني من التّواصل مع المجتمع المتنامي من غير المؤمنين."[35]

قد تكون تلك إشارةً على تغير الزمن، أو أنّ دياب كان محظوظاً كون أنّ أحداً لم يشتكِ منه. لقد وسّعتْ أحداث العام 2011 الآفاقَ أمام غير المؤمنين، لكن القانون ما يزال يشكّل تقييداً لما يرغبون بالتّعبير عنه، وما زال أمام مصر طريقٌ طويلٌ حتّى يتمكّن الملحدون من تحقيق حُلمهم بأنْ يتمّ اعتبارهم أناساً عقلانيّين وطبيعيّين.

الفصل العاشر: سياسات الإلحاد

إنّ التخلي عن الدّين في البلدان العربية عادةً ما يكون له تبعات كثيرة، وفي حال كان هذا الدين هو الإسلام فإنه قرار عادةً ما يترافق مع تبعات سياسيّة عدا عن العواقب الاجتماعيّة والقانونيّة، وإن تخلي المسلم عن دينه يُعتبر مجازفة، فهو إما يصبح موضوعاً يتباهى به من يبغض الإسلام، أو يُتهم بأنّه عميلٌ في معركةٍ لم يشأ خوضها. فعندما يُعتقل شاب فلسطينيّ لمجرّد نشره أفكاره الإلحادية على الانترنت، تعتبره الشرطة تلقائيّاً بأنّه مأجورٌ من الصهاينة فتتحقق من حسابه المصرفي بحثاً عن الدليل الذي يثبت صحة ادعائها. وكذلك فقد سُئل ملحدٌ كان يظهر على التلفزيون المصريّ إن كان على اتصالٍ مع أيّ أحدٍ من خارج البلاد لكنه أنكر أن يكون كذلك أو أن يكون عميلاً للخارج.

إنّ اعتبار المسلمين السابقين عملاء لبعض القوى الأجنبيّة يلغي أيّة حاجةٍ إلى أخذ حججهم على محمل الجد، غير أنّ الشّك بوجود مؤامرة ضد الإسلام والمسلمين ليست محض خيالٍ رغم المبالغة فيها في غالب الأمر، فهناك الكثير من المنظمات البغيضة في الدول الغربيّة تسعى إلى إثارة التحيّز ضدّ المسلمين لدوافع عرقيّة وما إلى ذلك، وتَعتبر هذه المنظمات المسلمين السابقين مادة دسمة في محاولاتهم تلك.

يركّز المتطرّفون من اليمين السياسيّ في أوربا على الإسلام على وجه خاصّ في حملاتهم ضدّ الهجرة بحجة أنّ المسلمين باتوا على وشك الاستيلاء على أوربا، حيث تدعو حركة "أوقفوا أسلمة أوربا" التي تأسّست في الدنمارك إلى إيقاف الهجرة من الدول المسلمة بشكل نهائي وإلى إيقاف الهجرة من الدول الأخرى بشكل مؤقت، كما تدعو إلى "ترحيل اللّاجئين المسلمين الساخطين إلى أوطانهم وكذلك المهاجرين الآخرين وجميع المجرمين المهاجرين."[1] ويزعم "نيك غريفين Nick Griffin " الزعيم السابق للحزب القوميّ البريطانيّ أنّ بريطانيا وأيرلنديا باتتا تتحوّلان إلى "حيٍّ إسلاميٍّ فقيرٍ من دول العالم الثّالث"،[2] وتحدّث بنبرةٍ يغمرها الحنين إلى الماضي عن "المسيحيّة التقليديّة النّزيهة والشّريفة والمحترمة التي دافعت عن أوربا ضدّ الغزو الإسلاميّ، مسيحيّة الحملات الصليبيّة، مسيحيّة أجدادنا."[3]

كما يساهم اليمين المتطرّف في الولايات المتّحدة الأمريكيّة في نشر المخاوف من "الأسلمة"، رغم أنه يركز على الإرهاب أكثر من تركيزه على الهجرة. فعلى سبيل المثال يصرّ "روبرت سبنسر Robert

Spencer" على فكرة أنّ الإرهاب هو جوهر الإسلام وذلك على موقعه على شبكة الانترنت "مراقبة الجهاد Jihad Watch" فيقول:

"في المجتمع الأمريكيّ المسلم لا يوجد هنالك فرقٌ بين المسلمين المسالمين والجهاديّين، وفي حين يميل الأمريكيون إلى تصوّر أن الغالبيّة العُظمى من المسلمين الأمريكيّين هم من الشخصيّات الوطنيّة ومن أصحاب الفكر المتمدن ممّن يتقبّلون وبكل رحابة صدر ضوابط التعدّديّة الأمريكيّة، إلا أنّ هذا الافتراض لم يتم إثباته على أرض الواقع."[4]

وعلى الطّرف المقابل نجدُ الفكر اليساريّ الذي يدعم الحركات الإسلاميّة تحت ستار محاربة الإمبرياليّة، ويحمل أصحاب هذا الفكر وجهة نظر استشراقية حيث يعتبر هؤلاء أن الإسلاميّين والمتديّنين المحافظين هم ذوو ثقافة أصيلة، في حين ينبذون أصحاب النظرة التقدّميّة بوصفهم مستغربين ينشرون الفكر الغربيّ وعملاء للإمبرياليّة. وبالتّالي فالانتهاكات التي تُرتكب على أساسٍ دينيٍّ والتي سيرفضها اليساريون لو وَقعتْ في الدول الغربية ستُعتبر مقبولة في السياق العربي، فمثلاً تصف مريم نمازي وهي عضو مجلس المسلمين السابقين في بريطانيا ما سبق على أنّه سياسات الخيانة، وتقول: "إنّها لخيانةٌ ليس للمعارضين وضحايا الإسلام المتشدد فحسب، وإنّما خيانة للمبادئ التي لطالما دافع عنها اليسار كالعدالة الاجتماعية والمساواة والعلمانية والشمولية.... الخ.[5]

ولا ترى "نامازي" أن هناك فرق كبير بين الإسلاميين في الشرق الأوسط واليمين المتطرف في الدول الغربية رغم أن هذا الأخير "يتهجّم على النّاس وعلى المساجد لا لشيءٍ سوى لخلفيّاتهم ويلقي باللّوم الجماعي على جميع السّكان." وترى أنه كلاهما ينحدران من خلفيّة واحدة، وتقول:

"لكن هناك اختلافات واضحة بين الإسلاميين في الشرق الأوسط واليمين المتطرف في الدول الغربية نتيجة وجود الاختلاف في السّلطة، إلّا أنّ فلسفتهما وسياستهما وسياسة الكراهيّة التي ينتهجونها مشابهةٌ تماماً لبعضها البعض، لذا فإنّنا نقاتل على كلا الجبهتين خصوصاً في الغرب.

فليس بمقدورك محاربة طرفٍ دون الآخر، وخاصّةً أنّ اليمين المتطرّف يقدّم المسلمين والمهاجرين كبش فداء، فهم يهاجمون قضايا الشّريعة وقوانين الرّدّة بمعنى أنّهم يتظاهرون بدعم المرتدّين والمرأة في الدول المسلمة بينما هم في الحقيقة لا يأبهوا البتّة

بالنّساء والشعوب في الشّرق الأوسط وشمال أفريقيا، كما أن اليمين المتطرف يسعى جاهداً لترحيل الجميع ولا يبدون أيّ اهتمامٍ في حصول هؤلاء على حقوقهم في اللّجوء والحماية."[6]

ومثله مثل نظيره البريطاني، يرى مجلس المسلمين السابقين في شمال أمريكا نفسه أنّه محصور بين نقيضين: الإسلام السياسيّ والمدافعين عنه من جهة، واليمين المتطرّف من الجهة الأخرى، ويرى أنّه يقاوم كلاً منهما، وقد جاء في بيانٍ له على صفحته الرّسميّة على الانترنت بعنوان "لا للتّعصّب ولا للدفاع":

"هناك من يروّج لأفكارٍ عنصريّةٍ ومتعصّبة ضدّ المسلمين وضدّ أيّ إنسان من خلفيّةٍ مسلمةٍ وحتّى ضدّ النّاس ممن لا يمتّون للإسلام بِصلة (كديانة السيخ). تميل هذه الأصناف من النّاس المتعصّبين إلى التعامل مع كلّ المسلمين ككيانٍ واحد خالٍ من الشقاق والاختلافات الداخليّة.

في الطرف المقابل هناك من يردّ على المتعصّبين والمُبغضين للأجانب من خلال تبرير مظاهر العنف في الإسلام والتّصرّفات الفظّة من بعض المسلمين. أما النوع الثّاني، أي المدافعين عن الإسلام، فغالباً ما يتصدون لكل أنواع النقد الموجّه ضد الإسلام والمسلمين رغم أنهم يوجهون هذا النقد ذاته إلى الأديان والإيديولوجيات الأخرى كالمسيحيّة والرأسماليّة والشيوعيّة وغيرها.

وكوننا أناساً تربّينا كمسلمين أو اعتنقنا الإسلام بملء إرادتنا ومن ثمّ تخلينا عنه لأنّنا لم نعد نستطيع الإيمان به أكثر من ذلك، فإننا نجد أنفسنا بين هذين النقيضين؛ المتعصّبين والمدافعين ونرفض إرضاء أي منهما. ونحن لا نسعى إلى تعزيز الكراهيّة ضد كل المسلمين فقد كنّا مسلمين وعدد كبير من أفراد عوائلنا وأصدقائنا هم مسلمون، كما نعي أنّ هناك تنوعاً واختلافاً بين المسلمين ونحن لن ولا نشارك في محوِ هذا التّنوّعِ الموجود بين المسلمين في جميع أنحاء العالم.

لقد دَرّس مُعظمنا وما زال كثيراً من الأديان، ونحن كمجموعة على درايةٍ كبيرة بالفظائع التي ارتكبتها الأديان الأخرى على مرّ التاريخ، ونحتفظ بحقّنا في التّركيز على الإسلام

كونه أكثر دينٍ جرّبناه، فهو الدّين الذي ترعرعت غالبيّتنا عليه، وهو الدين الذي حاولنا الإيمان به من صميم قلوبنا.

ففي الوقت الذي نشجب فيه التّعصّب الذي يصدر عن أولئك الذين ينشرون أفكارهم العنصريّة والمُبغضةِ للأجانب تحت رداء انتقاد المسلمين، فإنّنا نشجب أيضاً النسبوية الثقافيّة والأخلاقيّة الموجودة لدى أولئك الذين يُروّجون لفكرة أنّ جميع النّاس ذوي الخلفيّات المسلمة متشابهون وأنّهم يريدون اعتناق الإسلام، وأنّ الإسلام أقلُّ قابليّةٍ بطريقةٍ أو بأخرى للتّمحيص من غيره من المعتقدات."[7]

إن أحد التّحديات التي تواجه المسلمين السّابقين هي كيفية تجنب أن يصبحوا وقوداً للتحيّز والتحامل في الغرب.

إن مصطلح "الإسلاموفوبيا" المثير للجدل موجود منذ أكثر من قرن من الزمن، حيث سُجّل أوّل استخدامٍ له في فرنسا سنة 1919 (islamophobia) في إشارةٍ إلى موقف مدراء المستعمرات الفرنسيّة، كما سُجّل أوّل استخدام لهذا المصطلح في بريطانيا على يد "إدوارد سعيد" سنة 1985 والذي ربط هذا المصطلح بمعاداة الساميّة قائلاً: " تزامنَ ظهور معاداة الإسلام في المجتمع المسيحيّ الغربيّ المعاصر مع معاداة الساميّة ونبتَ من المصدر ذاته وتغذى من الجدول عينه."[8] حاز هذا المصطلح على قبولٍ واسع عقب تقريرٍ لِـ "رونيميد ترست Runnymede Trust" صّدّر سنة 1997 بعنوان: "الإسلاموفوبيا: التحدّي الذي يواجهنا جميعاً" والذي سلّط الضوء على موقف البريطانيين تجاه المسلمين المقيمين في بريطانيا،[9] وبعد عدّة سنوات بدأ مصطلح "الإسلاموفوبيا" يُستخدم من قِبل مختلف الهيئات العالميّة بما في ذلك الأمم المتّحدة، ومن المهم التنويه إلى هذه الخلفيّة التّاريخيّة وذلك نتيجةً لتلك الادعاءات الباطلة – والمتكرّرة – في الولايات المتّحدة الأمريكيّة والتي تقول إنّ هذا المصطلح قد أوجدهُ الإسلاميّون لغايةٍ محدّدةٍ وهي تصوير أنفسهم على أنّهم ضحايا، فعلى سبيل المثال تقول إحدى المقالات المُضلّلة على موقع يميني متطرّف على الانترنت:

"لم يأتِ مصطلح "الإسلاموفوبيا" الجديد من العدم بل اخترعته المؤسّسة الدّوليّة للفكر الإسلامي وهي منظّمة تابعة للإخوان المسلمين ومركزها في شمال فرجينيا."[10]

لكن الفكرة القائلة بأنّ الإسلاموفوبيا غير موجودة وأنّه تمّ اختلاق هذا المصطلح لقمع أي انتقاد حرّ للإسلام ما تزال قائمة، وقد تفاقمت هذه المشكلة بسبب عدم وجود تعريفٍ للإسلاموفوبيا يتفق عليه الجميع، كما يعتبر كثيرون أن هذا المصطلح مثير للجدل، وقد اقترح البروفيسور الرّاحل "فريد هالّيدي Fred Halliday" أنّ مصطلح Anti-Muslimism سيكون أكثر دِقّةً لأنّه عادةً ما يشير إلى العداء للمسلمين لا للإسلام ومبادئه، وقد اعترف "روبين ريتشاردسون Robin Richardson" وهو مُحرّر تقرير رونيميد الذي صدر سنة 1997 بالانتقادات الموجهة إلى التقرير وقدّم فيما بعد تعريفاً أكثر تعقيداً "للإسلاموفوبيا" قائلاً:

> "هو مصطلحٌ مختزلٌ يشير إلى المزيج المتعدّد الأوجه للسلوك والخطاب والتّراكيب والتي تُعبّر عن مشاعر الخوف والقلق والرّفض والعداء للمسلمين وخصوصاً في الدّول التي يعيش فيها الناس من أصولٍ إسلاميّةٍ كأقليّاتٍ."[11]

وتجدر الإشارة إلى أنّ تقرير "رونيميد" كان معنيّاً بوضع المسلمين في بريطانيا على وجه التحديد وكان يحتوي على تعليماتٍ "لمواجهة الافتراضات الإسلاموفوبيّة التي تقول بأنّ المسلمين هم كيان واحد خالٍ من التطوّرٍ الداخليّ أو التنوّعٍ أو الحوار، وأيضاً للتنويه إلى المخاطر الأساسيّة التي تخلقها أو تفاقمها الإسلاموفوبيا على المجتمعات المسلمة وبالتالي على سعادة المجتمع ككلّ."

وبصرف النّظر عن الجدل الذي أُثير حول مصطلح الإسلاموفوبيا، فإن التحامل والتحيز من النوع الذي أورده تقرير "رونيميد" موجود فعلاً وليس من الصعب تمييزه، وعادةً ما يشتمل هذا التحامل على تعميماتٍ خاطئة ومُضلّلةٍ عن الإسلام و/أو المسلمين – بالإضافة إلى أناسٍ آخرين يُفترض أنهم مسلمون – وذلك لتصويرهم بطريقة سلبية، إلا أن كثيراً متفقون بأن مصطلح الإسلاموفوبيا يصعب تطبيقه بشكلٍ عقلاني على الانتقادات الحقيقيّة والصادقة للإسلام كدين، فلا يجب أن يصبح التصدي للإسلاموفوبيا تفويضاً لكبت النقد الحر والنزيه، وهو ما يوضحه المنتدى البريطانيّ ضدّ العنصريّة والإسلاموفوبيا:

> "إن مخالفة أو رفض معتقدات المسلمين وممارساتهم لا يُعتبر إسلاموفوبيا، ففي الحقيقة تُعتبر الخلافات والمناقشات جزءاً مهمّاً من الإسلام المعاصر في المجتمعات المسلمة في كلٍّ من بريطانيا والعالم وهي ضرورية ليظل الإسلام ملائماً، وبالتالي فإن الاختلاف

في الرأي والنّقد المشروعَين من قبل غير المسلمين ليس متوقّعا فحسب بل ويجب تقديره أيضاً، غير أن ذلك يجب أن يتم بعقلانيّةٍ وضمن المعقول."[12]

ولسوء الحظّ يُفسّر هذا الكلام أحياناً على أنّه بمثابة تفويضٍ لشتّى أشكال الإساءات، ففي كلمة ألقاها عن الإسلام قال "نيك غيفرين Nick Griffin" النائب عن الحزب القومي البريطانيّ اليمينيّ المتطرّف: "لقد توسّع هذا الدين الخبيث من حفنة من المجانين الغريبي الأطوار منذ حوالي 1300 سنة إلى أن راحَ الآن يكتسح البلد تلو الآخر في جميع أنحاء العالم، فإن تقرأ القرآن ستجد أنّ هذا ما يريدونه بالضبط".[13] حُوكم بعدها "غيفرين" بعد أن وُجهت له عدة اتّهاماتٍ باستخدامه كلماتٍ أو انتهاجه سلوكاً يُقصد منه إثارة الكراهية العنصريّة إلا أنّه نفى في المحكمة أن تكون كلماته عنصريّةً وقال في المحكمة: "إنّ هناك فرقاً شاسعاً بين انتقاد دينٍ ما وبين القول صراحةً أنّ هذا تهجُّمٌ على أتباعه، فعندما أنتقدُ الإسلام فإنّني أنتقد هذا الدّين والثّقافة التي يؤسّسها لا المسلمين كمجموعةٍ بالتأكيد...". وبعد إعادة محاكمته تمّ تبرئته من جميع التُّهم المنسوبة إليه في نهاية الأمر.[14]

هناك اختلافات بين الدّين و العِرق بلا شك، فالعِرق على سبيل المثال موروثٌ ولا يمكن تغييره على عكس الدين، وهذا من الناحية النّظريّة على الأقل، لكن من الضروريّ إدراك أنّ الدّين قد يكون أكثر بكثيرٍ من كونه مجرّد نظامٍ عقائديّ فهو في الغالب يشكّل هويّةً وانتماءً ثقافيّاً – وأحياناً سياسيّاً، فهناك نكتةٌ قديمةٌ عن الاضطرابات الطائفيّة في أيرلنديا الشّماليّة حيث أخرجَ شخصٌ رجلاً من سيّارته مطالباً إيّاه بالإفصاح فيما إذا كان مسيحيّاً كاثوليكيّاً أو أرثوذكسياً، فأجاب الرّجل – في محاولةٍ لتجنّب المشاكل – بأنّه يهوديٌّ ملحدٌ، فسأله الرجل المُعتدي وهو غير راضٍ بالجواب فيما إذا كان ملحداً يهوديّاً بروتستانتيّاً أم ملحداً يهوديّاً كاثوليكياً. كان هذا أحد الأسباب التي دفعت باللجنة الأوروبيّة المناوئة للتعصّب والعنصريّة إلى تعريف العنصريّة بأنّها "الاعتقاد بأن أموراً كالعِرق واللون واللغة والدين والجنسيّة والقوميّة أو الأصولٍ القومية أو العرقيّةٍ تبرر ازدراء شخصٍ أو مجموعة من الأشخاص، أو بأنها الاعتقاد بتفوّق شخصٍ أو مجموعة."

غالباً ما تتحوّل الإشارة إلى "العلامات" الثقافيّة كالدّين واللغة والملبس إلى بديلٍ لأشكالٍ أكثر صراحةً من العنصريّة، "فالعنصريّة لا تعني بأيّ شكلٍ من الأشكال النّقاش المباشر حول مواضيع على أسس عنصريّةٍ واضحة." تقول هبة كريشت وهي ملحدة عربيّة خلال حوارٍ مع أعضاء آخرين من مجلس المسلمين السابقين في شمال أمريكا:

"إنّ معظم المواقف العنصريّة هي في ظاهرها ليست موجّهةً إلى شعوبٍ معينة، فقد كثرت المواقف العنصريّة حول الأمّهات العازبات وموسيقى الرّاب والطوابع التي تحمل صوراً للطّعام والسُتر ذوات القبعة وتمائم (شعارات) كرة القدم، وهذه ليست شعوباً أو أعراقاً بحدّ ذاتها، فالنقاشات العنصريّة التي دارت حولها يمكن اختصارها بمعتقدات مُعمّمة فيما يتعلق بعادات ومجتمعات أولئك الذين تصدر عنهم هذه المواقف العنصرية.

فالتّعصّب ضدّ المسلمين هو في صُلبه تعصب ضد العرق، وحتى أنّ مناقشة مسألة البِيض الذين يعتنقون الإسلام تشتمل على أمور كالسّرقة والإغراء الذي تعرض له هؤلاء البيض من قِبل الناس ذوي البشرة الحنطية، ونحن لا نسدي معروفاً لأحد عندما نختبئ خلف مقولة أنّ "الإسلام ليس عِرقاً ..."[15]

كما تقول هبة كريشت إنّ المسلمين السابقين في الغرب يواجهون التّحيّز والتحامل ذاته الذي واجهوه عندما كانوا مسلمين، وتقول: "إنّ العنصريّة التي تسمح للآخرين بالافتراض أنّنا نتبنّى مشاعر المسلمين أو معتقداتهم بسبب انتماءاتنا العرقيّة رّغم ما يصدر منا أفعال وأقوال إنّما هي العنصريّة ذاتها التي يعاني منها المسلمون."

كان أعضاء مجلس المسلمين السابقين في شمال أمريكا يتناقشون حول أيّ مصطلحٍ يستخدمون للتمييز بين "التمييز المفرط ضدّ الإسلام والنّقد المعقول للإسلام." والسّبب في ذلك برأي كريشت هو أنّ مصطلح الإسلاموفوبيا أصبح مصطلحاً جامعاً يُستخدم لإسكات النّقد المشروع لأيديولوجية ما ولإدانة التعصّب ضدّ المسلمين، ويجب التفريق بين هذين المفهومين بل يجب ابتكار مصطلحين جديدين لكل مفهوم." لم يؤدي النّقاش إلى التّوصّل إلى حلّ إلا أنّه يشكّل وبوضوحٍ مشكلةً معقّدةً بالنسبة للمسلمين السابقين.

وتقول المصريّة ريم عبد الرازق: "أعتقد بأن نقد أيّة أيديولوجيّة هو أمر مقبول، أمّا التّمييز ضدّ الناس على أساس معتقداتهم فهذا ما يجب رفضه، ولا بأس أن تنتقد فكرةً ما، أمّا أن نتحيّز ضدّ شخصٍ ما لأنّه مؤمنٌ بدّين معيّن فهذه هي الإسلاموفوبيا." كما ترى أنها ما كانت لتسخر من الناس بسبب نمط لباسهم الدينيّ، وتقول: "لديّ أصدقاءٌ يقومون بأمورٍ لغرض السّخرية فحسب، أمّا أنا فأشعر أنّه أن تُصبح متهكماً لهذه الغاية فحسب لن يحقّق أيّ إنجازٍ على أرض الواقع."

قد يكون عدم الحكم على الأمور وفقاً لمظهرها الخارجيّ مبدأ عامّاً جيّداً، فقد تمّ استجواب أُناسٍ اتُهموا بالإرهاب لمجرّد أنّهم "كانوا يَبدون" كمسلمين أو عرب –ولكن هل من الخطأ القيام بهذا دائماً؟ ضمن النطاق العام "لمظهر المسلمين فإنّ أنماطاً محدّدةً من اللباس تشير إلى طريقة تفكيرٍ محدّدةٍ، وهذا ما يقصده من يتبنى ويرتدي هذه الأنماط، حيث تستشهد "كيران أوبال Kiran Opal" وهي أحد مؤسسي مجلس المسلمين السّابقين في شمال أمريكا بمثالٍ عن رجلٍ مسلمٍ يرتدي ثوباً طويلاً و له لحيةٌ يقارب طولها 15 سم كان يمشي برفقة امرأتين مُنقّبتين وستّة أطفالٍ خلفهم، وتقول أنها حين ترى منظراً كهذا تقول في نفسها: "أستطيع أن أحكم على هؤلاء النّاس وأعتقد أنّهم يقمعون المرأة ويؤمنون بتفوقهم كمجموعة ويسيؤون إلى الأشخاص المثليّين والسحاقيات والمتحولين جنسياً وثنائيي الجنس والأقليّات الدينيّة ... فهل يعني ذلك بأنّي مبغضة للإسلام (إسلاموفوبيّة)؟"[16]

وبينما يصارع المسلمون السابقون للنأي بأنفسهم عن التعصّب ضدّ المسلمين، يدلي عدد من الملحدين الغربيّين البارزين بتعليقات وتصريحات تزيد الأمر تعقيداً، فعلى سبيل المثال نَشر ريتشارد دوكينز تغريدةً مثيرة للجدل يقول فيها:

"إن جوائز نوبل التي حصل عليها جميع مسلمي العالم أقل من تلك التي حصلت عليها كلية ترينيتي في كامبريدج وحدها رغم أنهم حققوا إنجازات عظيمة في العصور الوسطى."[17]

من الصّعب أن تجد مبرّراً لهذا المنشور سوى أنه يهدف إلى الاستخفاف بالمسلمين عامةً رغم كون المعلومات الوردة فيه دقيقة في الواقع، وتشكّل ندرة إنجازات المسلمين العلمية في العصر الحديث موضوعاً مهمّاً وقابلاً للنّقاش وتفسيراته مُعقّدة،[18] إلا أنّ إثارة هذا الموضوع على موقع تويتر الذي يحدد التغريدة بمئة وأربعين حرفاً فقط بالكاد يشكّل دعوةً إلى نقاش مُسهب، بل إنه يغذي الخطاب المعادي للمسلمين. كما قام دوكينز بإعادة نشر رابط مقالٍ على تويتر يؤكّد مقولة أنّ مصطلح الإسلاموفوبيا إنّما هو من اختراع الإخوان المسلمين رغم أنّه ما لبث أن حذف التغريدة بعد وقتٍ قصير كونه أدرك خطأه.[19]

أمّا على صفحته الخاصّة على الانترنت حيث المجال مفتوحٌ أمامه للحديث بإسهابٍ دونما قيود على عدد الكلمات فقد راح دوكينز يوجه انتقادات لاذعة للإسلام دون إسهاب أو خوضٍ في التفاصيل من قبيل "تنامي تهديد الإسلام"،[20] كما اقترح أنّ كلمة "التّعدّديّة الثقافيّة" في أوروبا إنّما ترمز إلى الإسلام.[21] وقال: "إنّ الإسلام بات يشكّل أعظم قوةٍ شر من صنع الإنسان في عالمنا اليوم،"[22] و" إن رأيتَ مسلماً يضرب

زوجته فلا جدوى من الاتصال بالشرطة لأنّ العديد من رجال الشرطة في بريطانيا يخشون أن يُتَهموا بالعنصريّة أو الإسلاموفوبيا.[23]

يُعتبر "دوكينز" و "سام هاريس Sam Harris" والرّاحل "كريستوفر هيتشنز Christopher Hitchens" من "الملحدين الجدد" المعروفين بمنهجهم الشعبوي اللاذع والعدوانيّ أحياناً، فقد كتبت "ناثان لين Nathan Lean" في مقالٍ نقديٍّ في مجلّة Salon:

"لم يكن حضور "دوكينز" و "هاريس" ورفاقهم على السّاحة العامّة ملحوظاً كثيراً رغم أنهم موجودون منذ سنين حيث لم يشكل الإلحاد حينها أمراً عظيماً ولم يكن بمثابة مهنةً بحدَّ ذاته إلى أن قرّر محمّد عطا ورفاقه من الشّرق الأوسط خطف الطائرات ونسف برجي التجارة العالميّين في سبتمبر/أيلول من سنة 2001 وعندئذٍ تغيّر كلّ شيء....

لم يبرز الإسلام بشكلٍ علنيٍّ في هجمات "الملحدين الجدد" حتّى تاريخ الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول. وعادةً ما كان الإلحاد العدوّ الأبرز للمسيحيّة كونه ظّاهرة نشأت في أوربا رغم اعتبار البعض اليهود واليهوديّة أعداءً للمسيحية أيضاً، إلا أنّ الملحدين الجدد انخرطوا في جوقة "المُبغضين الجدد" المتعاظمة بدافعٍ من حماسهم الجديد في أعقاب الهجمات الإرهابيّة، فراحوا يخلطون بين اشمئزازهم من الدّين بشكلٍ عام وكرههم للإسلام على وجه الخصوص...

تحولّت النّقاشات حول الاستحالة العمليّة لوجود الله وحول اللاعقلانيّة العلمية لوجود الحياة الآخرة إلى رُهاب من هجرة المسلمين أو إلى موضوع الحجاب، فقد أصبح "الملحدون الجدد" هم الإسلاموفوبيّين الجدد وأصبحت إهاناتهم للمسلمين تشبه اللغة الغوغائية للعنصريّين الجهلة أكثر من كونها تقييماً مُستنداً إلى العقل والمنطق والعقلانيّة."[24]

يرى الكاتب والفيلسوف الأسترالي "راسل بلاكفورد Russell Blackford" أنّ المشكلة في هذا النّهج لا تكمن في مجرّد أنّه يساوي بين نقد الإسلام وأفكار اليمين المتطرّف فحسب، بل إنّه يساعد اليمين المتطرّف في كسب مزيد من الاحترام، وقد ذهب "سام هاريس" وهو أحد الملحدين الأمريكيّين البارزين

إلى أبعد من ذلك حيث قال إنّ النّاس الذين يتحدّثون بعقلانيّةٍ عن التّهديد الذي يشكّله الإسلام على أوروبا هم في الحقيقة فاشيّون."[25]

يرى "بلاكفورد" أن اليمين المتطرّف سيستفيد من توفّر الانتقادات العقلانية سياسيّاً للفكر الإسلاميّ والأنشطة الثّقافيّة المرافقة له، ويشمل ذلك تبني ما كان يُعرف بالقضايا الليبراليّة كمعارضة الزّواج القسريّ وجرائم "الشّرف" وختان النّساء وفرض الضّوابط على لباس المرأة.

ويضيف بلاكفورد:" إنّ هنالك أسباباً دفعت بالمنظّمات اليمينيّة المتطرفة إلى استحضار الحجج المُرتكزة على العلمانيّة ومناصرة حقوق المرأة، وهي حججٌ مفيدةً كونها تُحاكي العقل والعاطفة باستقلاليّةٍ بعيداً عن استرضاء الانتهازيّين في اليمين المتطرّف، وبصرف النّظر عن الجهة التي تستخدم هذه الحجج، إلا أنّها تنطبق وبشكلٍ معقول على عناصر مُعيّنةٍ في الإسلام، أو على الأقلّ على المواقف والممارسات المرتبطة به."

وعلى المستوى العمليّ يرى "بلاكفورد" بأنّه "يجب نُصح المعارضين للإسلام ممّن لا يريدون الظّهور بمظهر المتعاطفين مع اليمين المتطرّف أو المغفلين بأن ينتبهوا للانطباع الذي ينقلونه، وعليهم توضيح مواقفهم بأوضح صورةٍ ممكنة إن أمكن وأن ينؤوا بأنفسهم عن الشخصيّات اليمينيّة المتطرّفة التي تأتي بالحجج ذاتها،" ويضيف قائلاً :"إنّ عبارة "إن أمكن" مهمّةٌ جدّاً لأنّ ما هو عمليّ في مقالٍ فلسفيٍّ مثلاً قد لا يكون عمليّاً في حالة الرّسم الكاريكاتوريّ السّاخر أو حتّى في كتابٍ جدليٍّ موجّهٍ إلى جمهورٍ من العامة، ويجب ألّا نستبعد مواهب الأشخاص الذين لا يتوافق مزاجهم أو تدريبهم مع التّواصل المحدود والدفاعي، كما ولا يجب أن يكون تواصلنا دائماً بطرقٍ مملّةٍ و رتيبةٍ في نظر الكثيرين، ولا ينبغي علينا المشي على قشر البَيض للحصول على شيءٍ ما."[26]

وبصرف النّظر عن ردّة الفعل، يجادل بعض المسلمين السابقين بأنّ "الملحدين الجدد" يقولون أشياء يجب قولها – أشياء قد لا يجرؤ حتى المسلمون السابقون على قولها.

تقول سارة حيدر عضو مجلس المسلمين السّابقين في شمال أمريكا: "بإمكانك تقديم الكثير من الحجج التي تثبت بأنّ النّهج الذي ينتهجونه ليس الأكثر عقلانيّةً، وربّما ليس الأنسب بشتّى الطّرق، إلّا أنّه لا يبدو متعصّباً من وجهة النّظر التي انطلقنا منها، كما وأنّه لا يبدو عنصريّاً بأيّ شكلٍ من الأشكال." ومن بين المسلمين السابقين تأتي الانتقادات للإسلام من الليبراليين الذين يعيشون في الغرب "وممّن لديهم

حساسيّة مفرطة تجاه التعصّب أو تجاه أيّ شيءٍ يمكن أن يمتَّ للتّعصّب بِصلة." كما ترى سارة حيدر أن" أولئك الذين لا يعيشون في الغرب أو المهاجرين الجدد سيفرحون بالأشياء التي يقولها "دوكينز" و "هاريس." وتضيف قائلة:

"ليس لدى الكثير من المسلمين السّابقين أدنى مشكلة مع ما يُدعى "الملحدين الجدد"، بل إنّهم يرون أنّ هذا النّهج في المواجهة ضروريّ جداً، إذ تُعتبر هذه نقطة خلافٍ في المجتمع، فهناك من يدافع عن رأيه في كلا الجانبين. وأودّ الإشارة إلى أنّ قلّة قلّيلة يعتقدون أنّ "سام هاريس" و "ريتشارد دوكينز" في الحقيقة متعصّبون، والخلاف في غالب الأمر هو حول فعاليّة التكتيكات التي يتبعونها."

عندما يكون شخصٌ ما مُتعمّقاً جدّاً في الدّين فإنّ تصريحاً صادماً واحداً كفيلٌ بجعله يعيد تقييم معتقداته، فعندما كنتُ مسلمة لطالما قيل لي إنّ الإسلام هو الدّين الأكثر تقدّماً فيما يتعلّق بحقوق المرأة، وهو شيءٌ أؤمن به ولم أتكلف عناء التّحقّق منه – فلماذا سيكذب شيخي عليَّ؟ وكان لقائي بملحدٍ وقحٍ هو ما دفعني في الواقع إلى مراجعة معتقداتي واتّضح في النّهاية أنّه يعرف نصوص دينية من ديني أكثر منّي، وسألتُ نفسي: هل أساء هذا الرجل لي؟ نعم! هل آذى "مشاعري الدينيّة"؟ نعم، إلا أنّني ما كنت لأترك النقاش لولا عدوانيته."[27]

تتضمّن حرّيّة التعبير كما نصّت المحكمة الأوروبيّة لحقوق الإنسان الحقّ في "الإهانة والتسبب بصدمة والإزعاج" لكن ذلك لا يعني أنّ الناس لديهم الحرية في قول أشياء هجوميّة لأتفه الأسباب، بل إنّ هناك مناسباتٍ معيّنةٍ يحقُّ لهم فيها القيام بذلك، إذ إنّه من الممكن قمع النّقاش المشروع بسهولةٍ لولا وجود هذا الحقّ في الإهانة لأن البعض سيدعي أنه تعرض للإساءة، وهناك الكثير من الأمثلة التي تمّ التطرق إليها في فصولٍ سابقةٍ من هذا الكتاب.

ولكن الناس ذوي الأفكار والمعتقدات المختلفة بحاجة إلى التّعايش في جوٍّ من التّعدّدية والتّسامح وعدم التّمييز واحترام حقوق بعضهم البعض، ورغم صعوبة التّوفيق بين هذه المطالب المُتضاربة بشكلٍ كاملٍ، إلا أنّ الهدف في الحقيقة هو في إحداث توازنٍ عادلٍ قدر الإمكان فيما بينها.

وقد قدّمت دراسةٌ أجرتها مفوضية البندقيّة "Venice Commission" سنة 2008 برعاية المجلس الأوروبي بعض الاقتراحات عن المواضع التي يجب أن يحصل فيها هذا التّوازن.[28] تقول المفوضية: "يجب أن يكون انتقاد الأفكار الدينيّة ممكناً، حتى وإن فهمَه البعض على أنّه إيذاءٌ لمشاعرهم الدينيّة. إن إهانة مبدأ أو عقيدة أو ممثّلِ دين ما لا ترقى بالضّرورة إلى درجة إهانة مشاعر الشخص الذي يؤمن بذلك الدين." وعلاوةً على ذلك يجب ألا يتمّ تجريم الإهانات إلى المشاعر الدينيّة ما لم تحتوي على تحريضٍ على الكراهيّة.

وأقرّت المفوضية بأنّ الخط الفاصل بين الحديث المُهين والتحريض على الكراهية "غالباً ما يصعب تحديده." وتتضمّن العوامل ذات الصّلة نيّة المتكلّم المُتّهم أو المؤلِّف ومدى تأثير ما يصدر عنه والسّياق الذي صدر فيه التّصريح والجمهور المقصود وما إذا كان الشّخص الذي صرّح بذلك التّصريح يتحدّث بصفةٍ رسميّة.

وقد حذّر التّقرير أيضاً من كثرة الاعتماد على القانون كوسيلةٍ لقمع أحاديث الكراهيّة كونها قد تخلقُ توقّعاتٍ لا يمكن تحقيقها وقد تقدّم للمُذنبين نصراً إعلاميّاً من خلال تحويلهم إلى شهداء. يقول التقرير:

> "حالها حال المشاكل الأخرى في المجتمع فإنّ إيجاد التّوازن بين حريّة الدّين وحريّة التّعبير ليست مَهمّة المحاكم في المقام الأول، بل هي مَهمّة المجتمع ككلّ وذلك من خلال المناقشات العقلانيّة بين جميع فئات المجتمع بما في ذلك المؤمنين وغير المؤمنين."

وفيما يتعلّق بمسألة العِرق والدّين فقد أقرّت المفوضية إلى حدٍّ ما أنّ هناك فرقاً بين الإهانات العنصريّة والإهانات الموجّهة ضدّ أتباع دينٍ معيّنٍ، وترى المفوضية أنّ "هذا الفرق قد دفع بالبعض إلى الاستنتاج بأنّ مجالاً أوسع من النقد مقبولٌ حينما يتعلّق الأمر بالدّين أكثر منه فيما يتعلّق بالعِرق،" ولكنها قالت إنّه لا يجب استخدام هذا الأمر كذريعة لإلغاء الحدود بين "المناقشة الفلسفيّة الصادقة التي تدور حول الأفكار الدّينيّة وبين الإهانات الدّينيّة الغير مُبرّرة."

وتجدر الإشارة إلى أنّ كلمة "غير مُبرّرة" وَردت في مواضع عدّة من تقرير المفوضية، وقد تكون اختباراً مُفيداً للكلام المرفوض. وحدّدت اللجنة اختباراً آخر وهو أن نسأل فيما إذا كان التّعبير عن الأفكار

"يساهم بأيّ شكلٍ من أشكال النقاش العامّ الذي من شأنه تعزيز التّقدّم في القضايا الإنسانيّة".[29] كما ترى المفوضية أن ليس جميع الأفكار تستحق أن يتم تداولها حيث تقول:

> "وبما أنّ ممارسة حريّة التّعبير تحمل في ثناياها واجباتٍ ومسؤوليّاتٍ، نتوقع من كل عضو في أيّ مجتمعٍ ديمقراطيّ أن يتجنب قدر الإمكان التّعابير التي فيها ازدراء أو التي تسيء للآخرين دون أيّ مبرّر وتتعدى على حقوقهم.
>
> بإمكان الرّقابة الذّاتيّة المعقولة أن تساعد في إحداث توازنٍ بين حريّة التّعبير والسّلوك الأخلاقيّ، وقد يكون الامتناع عن التّفوّه بتعابير معيّنةٍ مقبولاً تماماً عندما تكون الغاية منه عدم إيذاء مشاعر الآخرين بلا مُبرّر، في حين أنّه غير مقبولٍ بصورةٍ واضحةٍ عندما يكون هذا ناجماً عن الخوف من ردود الفعل العنيفة."

وتقول المفوضية أنّه يجب ألا "تتراجع حريّة التّعبير كيفما اتفق" عندما تواجَه بردود فعلٍ عنيفةٍ، وتضيف: "قد يكون لدى أشخاص بعينهم حساسية مفرطة تجاه النقد في ظروفٍ معيّنة...ولا يجب أن يكون ذلك ذريعةً لمنع أيّ شكلٍ من أشكال النقاش."

يتألف العرب الغير المؤمن من كل من النّاشطين وغير الناشطين (الذين لا يفضلون تغيير الواقع)، وعلى عكس "الملحدين الجدد" يفضل بعضهم تفادي التّسبب في الإساءة حيث تقول بدرا وهي من لبنان:

> "عندما أشعر أنني عاجزة عن ممارسة حقوقي على أتمّ وجه قد أختار عدم المواجهة لأنّ الثمن سيكون غالياً وأنا لا أرغب أن يتمّ استدراجي إلى معركةٍ غير مُجدية أو غير مفيدة، ودائماً ما أختارُ المُغادرة ليس بالضّرورة مباشرةً وإنّما عند نقطةٍ مُعيّنة، وأعتقد أنّني باتباعي لهذا الخيار تمكنت من الحصول على الحياة التي أريد دون أيّ أضرار أو بأقلّ ضررٍ ممكن."

يعتمد مدى قدرة غير المؤمنين على المُضيّ في تأكيد ذاتهم على ظروفهم الشخصيّة، والعيش كملحد في دولةٍ كالمملكة العربيّة السّعوديّة يستوجب تقديم المزيد من التنازلات أكثر من أيّ مكانٍ آخر، وهو ما يوضحه عمر هادي بقوله:

"سيَستاءُ المُتطرّفون من أيّ شيءٍ إلا أنّني لا أريد مهاجمة المجتمع، فأنا لا أصوم لكني لا أتناول الطّعام في شهر رمضان أمام أُمي لأنّ ذلك من شأنه أن يضايقها فأنا أحبها كثيراً. تَشُكُّ أمي أحياناً في أمري لكنها لا تسألني أبداً وأنا لا أحيد عن طريقي لكيلا أريها أيّ شيء. وكما أنّني أحترم أمّي ولا أريد إغضابها فإنّني لا أريد إغضاب المجتمع.

من الواضح أنّ هناك بعض الشخصيّات الدينيّة التي تحظى بشعبيّةٍ واسعةٍ...في اعتقادي هم منافقون وما هم عليه إنّما هو لأجل السلطة والمال ولكنّني أدرك في الوقت ذاته أن غالبيّة الشّعب تحترمهم ولا أريد الإساءة لأيّ شخص، وأرى أنه عليّ بنفسي فقط. كما أعي أن هذا يتعارض مع مفهوم حرية التعبير والحق في الإساءة، لكن هذا هو الواقع الذي نعيشه."

وتعتبر معرفة أين نرسم الخطّ الفاصل في نقد الإسلام وممارساته سؤالاً مُهمّاً بالنّسبة للمسلمين السّابقين، أمّا بالنّسبة لأولئك الذين يعيشون في الشّرق الأوسط فإنّ هناك سؤالاً أكثر أهميّة وهو: كيف يحظى هؤلاء بقبول حقّهم في الإلحاد. لا يُعتبر هذا الأمر مسألة دينيّةً بقدر ما هو مسألة ثقافيّةً وسياسيّة، فهو يحوّل تركيز الصراع باتّجاه تحدي الحكومات والتّحيّز والتحامل الاجتماعي بعيداً عن الأديان. هنالك حاجتان مختلفتان إلا أنّهما مرتبطتان ببعضها البعض: الأولى هي حرّيّة المعتقد والثانية دولة علمانيّة، وكلاهما سيعودان بالفائدة على المسلمين وغير المسلمين والمسلمين السابقين على حدٍّ سواء.

إن تحدّي آراء الناس الدينيّة لا يعزز بالضّرورة من حرّيّة المعتقد، ومما لا شك فيه أن غير المؤمنين بحاجةٍ إلى إثبات وجودهم وإلّا فإنّه قد يتمّ تجاهل حقوقهم بكلِّ بساطةٍ، غير أن منهج "الملحدين الجدد" يميل أكثر إلى محاولة تشويه صورة الدّين بدلاً من التّشجيع على التّسامح، وهذا ما يؤدّي عادةً إلى نتائج عكسيّة عندما يتعلق الأمر بالعالم العربي.

يُعدّ التّسامح مع الأقليّات بكافة أنواعها مبدأً ما زالت الحكومات والمجتمعات في المنطقة متردّدةً في تقبُّله، ويُنظر إلى التّعدّديّة على أنّها نقطة ضعفٍ بدل أن تكون نقطة قوّةً ممكنة، كما أدّى تطوّر السياسات الانتخابيّة في بعض الدّول العربيّة أيضاً بالبعض إلى الإفراط في تبسيط فكرة الأغلبية حيث لا يدركون حتى الآن أهميّة حماية حقوق الأقليّات.

إن العمل على تغيير هذا الواقع سيساعد غيرَ المؤمنين على تحقيق حرّيّتهم إلّا أنّهم لا يستطيعون تحقيقها بمفردهم فهم بحاجةٍ إلى تشكيل تحالفاتٍ مع الآخرين ممّن يسعون لتحقيق تغيير سّياسيّ واجتماعي، وقد يُضطرّون إلى إقناع الحلفاء المُحتَملين الذين قد يعتريهم الشك بأنّ حرّيّة الإيمان تصبّ في صالح الجميع بما في ذلك المؤمنين.

إن إحدى العقبات إلي تحول دون القبول الشعبيّ العامّ هي تلك الفكرة السّائدة بأنّ الإلحاد من شأنه أن يقود إلى الانهيار الاجتماعيّ وإشاعة الفجور، وهو ما يجب مواجهته والأدلّة اللازمة لذلك متوفّرةٌ وبكثرة، حيث تُظهر الأمثلة من أماكن أخرى من العالم أنّه من الممكن أن تزدهر المجتمعات غير المتدينة، ولا تعني الحريّة الّدينية بالضّرورة أنّ هناك انحداراً في المُعتقد الدّينيّ، إذ يُظهر مثال الولايات المتّحدة الأمريكيّة أن الحرية الدينيّة قادرة في ظروفٍ معيّنةٍ على الازدهار دون اللجوء إلى هذا النّوع من الدّعم المتواصل والإجراءات التي تُطبّقها الحكومات العربيّة، وفي الواقع قد يعاني الدين على المدى الطّويل إذا كان مدعوماً من الحكومات.

ولتحرير أنفسهم من الدّين يحتاج غير المؤمنين إلى دولةٍ علمانيّةٍ، إلّا أنّ إحراز تقدم في العلمانيّة لا يجلب بالضّرورة تطوراتٍ في الحريّة الدينيّة إذ إنّ النوع التسلطي من العلمانيّة ليس أفضل حالاً من الأنواع التسلطية من الدين، لذا يجب تطوير العلمانيّة في إطارٍ من التسامح.

لقد أسيء فهم مفهوم العلمانيّة على نطاقٍ واسعٍ في البلدان العربيّة ولطالما تمّت مساواتها بإجحافٍ مع الإلحاد، وكلّما استمرّ هذا الفكر كلّما قلّ احتمال علمنة الدّولة، ولإحراز أيّ تقدّمٍ في هذا الاتّجاه يجب إقناع الناس أنّ العلمانيّة ليست طريقاً خفيّاً للإلحاد وإنّما هي طريق إلى الحريّة وذلك أنها تمنع الناس من فرض معتقداتهم على الآخرين، وقد تكون هناك حالات يجب فيها على غير المؤمنين الوقوف إلى جانب المؤمنين بدلاً من العلمانيّين الشديدي العداء للدين. فمثلاً قد يرحب غير المؤمنين بالحظر الذي فرضته سويسرا على بناء المآذن، لكن من المهم أإدراك التأثير السلبي الذي تركه ذلك على حرية المؤمنين.
وبالمثل، فإن تأييد تشديد القيود التي فرضتها فرنسا على ارتداء الحجاب – في الوقت الذي نعارض فيه القوانين التي تلزم المرأة بارتداء زي معيّن في المملكة العربية السعودية – لا يبدو للوهلة الأولى موقفاُ ثابتاً ومنسجماً فيما يتعلق بالحرّية الشّخصيّة.

إن المكانة المتميّزة التي يحظى بها الدّين في الدّول العربيّة اليوم مشابهة تماماً لما كان عليه الحال في أوروبا، فأفلاطون عندما كان يدعو إلى عِقاب أولئك الذين "يتكلّمون أو يتصرّفون بوقاحةٍ" عن آلهة اليونان القديمة قبل أكثر من ألفي عام هو أشبه ببعض رجال الدّين السّعوديّين في القرن الحادي والعشرين.

غيرَ أن أوروبا اتجهت تدريجياً نحو العلمانيّةً وبات الإلحاد أمراً شائعاً جدّاً الآن، إذ إنّ الرحلة الممتدّة من اعتراف "توماس مور Thomas More " بعدم جدوى معاقبة غير المؤمنين – كون أنه لا يستطيع أحدٌ اختيار الإيمان بالقوة – إلى تقبّل الحقّ في الإلحاد لم تحدث بمعزل عن أمور أخرى، فقد تطوّر مفهوم الحرّيّة الدّينيّة بالتّوازي مع أفكارٍ سياسيّةٍ عن حكومةٍ محدودةٍ وسيادة الشّعب واستقلال الفرد بالإضافة إلى مُناخٍ فلسفيٍّ متغيّر حيث يقول " ستيفن غاي Steven Gey":

> "لم يكن ممكناً الاستمرار في الهجمات الرّسميّة ضدّ الإلحاد في أوروبا الاستمرار في ظل الجوّ الفلسفيّ الأوسع الذي خلقه عصر التّنوير، وقد جَعلتْ التّجريبيّة والشّكّ الفكريّ والثورة العلمية التي رافقت عصر التنوير والسّياق الاجتماعيّ والاقتصاديّ الذي حدثت فيه من الصعب الحفاظ على الحماية القانونيّة للسّلطة الدّينيّة."[30]

إنّ إدراك أوروبا التدريجي بأنّ قمع الإلحاد هو وضعٌ غير قابلٍ للاستمرار يطرح احتمال أن تحذو الدول العربيّة حذوَها في نهاية المطاف، فالانفتاح الذي طرأ على الخطاب العام في السّنوات القليلة الماضية وتدفُّقِ الأفكار وتحدّي الوضع الرّاهن يشبه إلى حد ما ما جرى خلال عصر التّنوير في أوروبا وقد يكون لذلك التأثيرات ذاتها.

إنّ أحد العقبات الأساسيّة من النّاحية السياسيّة هي أنّ الأنظمة العربيّة ما زالت ترى في الدّين أداة مفيدة في ممارسة السّلطة، فهذه الحكومات تكون في وضع أفضل في فرض إرادتها عندما تزعم أنها تتصرف وفقاً لرغبة الله، كما أن أوروبا حُكمت لقرونٍ من قِبل ملوكٍ طالما ادّعوا "حقّهم الإلهي" بعروشهم، وهذا الأمر ما زال موجوداً حتى اليوم في أجزاء من الشّرق الأوسط بل حتّى أن الحكومات العربيّة الأكثر علمانيّةً تميل إلى إظهار مؤهلاتها الدينية، غير أن ذلك قد لا يستمرّ طويلاً إذ لطالما كانت مزاعم الحكومات بالشّرعيّة الدّينيّة بديلاً عن الشّرعيّة الانتخابيّة، لكن هذا الأمر يصبح أقل قبولاً لدى الشعوب

العربية اليوم وقد يتحول إلى نقطة ضعف في المستقبل، فقد بدأ العرب يدركون أنّ الحكومات التّقيّة والورعة ليست كالحكومات المؤهلة والكفؤة.

إن الأمر بلا شك ليس بهذه البساطة، فالمملكة العربيّة السّعوديّة – وهي الحالة الأكثر تطرّفاً – تتصدى بحزمٍ ضدّ الحرية الدينيّة، ومالم تحدث ثّورة سيكون من الصّعب رؤية أيّ تغييرٍ على المدى المنظور، ولكن التّصدّعات بدأت تظهر في أمكنة أخرى، كما أنّ الحكومات العربيّة قلقةٌ جداً بشأن صورتها على المستوى الدولي وبدرجات متفاوتة وتشعر بأنّها باتت مُضطرة إلى تقديم الوعود بإعطاء الناس حقوقهم حتى لو كانت تعارضُ تطبيقها على أرض الواقع. ينصّ الدستور التونسي ما بعد الثّورة على أنّه "على الدّولة حماية الدّين وضمان حريّة المعتقد والضمير والممارسات الدينيّة." أما الدستور المصري الذي أُقر سنة 2014 فينص على أن "حرية المعتقد مُطلقة،" وينصّ الدستور العراقيّ ما بعد صدّام حسين على أنّ "لكلّ فردٍ حرية الفكر والمعتقد والضمير." لقد قبلت الحكومات العربية بهذه المبادئ رسميّاً، لكن ذلك كان لأجل المداهنة فحسب، وما عليها فعله الآن هي الشرّوع في تحويل هذه المبادئ إلى واقعٍ ملموسٍ.

المصادر والملاحظات

Chapter One:

[1] Author's interview, May 2014.
[2] Husseini, Waleed al-: "Why I left Islam." Proud Atheist blog, 30 August 2010. http://proud-a.blogspot.com/2010/08/why-i-left-islam.html
[3] Gross, Michael Joseph: "Disaster Movie." Vanity Fair, 27 December, 2012. http://www.vanityfair.com/culture/2012/12/making-of-innocence-of-muslims
[4] Arab Attitudes Towards Political and Social Issues, Foreign Policy and the Media." Poll conducted jointly by the Anwar Sadat Chair for Peace and Development at the University of Maryland and Zogby International, May 2004
[5] Global Index of Religiosity and Atheism. WIN/Gallup International, 2012. http://www.wingia.com/web/files/news/14/file/14.pdf
[6] Qassem, Abdul Aziz: "Fighting atheist tendencies." English translation from al-Watan newspaper, re-published in English by the Saudi Gazette, 20 February 2014. http://www.saudigazette.com.sa/index.cfm?method=home.regcon&contentid=20140221196390
[7] "Saudi Arabia: New Terrorism Regulations Assault Rights." Human Rights Watch, 20 March 2013. https://www.hrw.org/news/2014/03/20/saudi-arabia-new-terrorism-regulations-assault-rights
[8] Basic Law, 1992. http://www.servat.unibe.ch/icl/sa00000_.html
[9] "Containing atheism." Saudi Gazette, 12 April 2014. http://www.saudigazette.com.sa/index.cfm?method=home.regcon&contentid=20140412201628
[10] Baras, Abdurahman: "Academics warn against adverse impact of e-games on children." Okaz/Saudi Gazette, 6 December 2013.
[11] Muayyad, Shams al-: "The absence of role models." Al-Madinah, republished in English by the Saudi Gazette, 7 May 2014. http://www.saudigazette.com.sa/index.cfm?method=home.regcon&contentid=20140507204324
[12] Author's interview, May 2014. Omar Hadi is a pseudonym.
[13] Al-Hayat (in Arabic), 6 May 2014. http://alhayat.com/Articles/2171453
[14] "Driving affects ovaries and pelvis, Saudi sheikh warns women." Al-Arabiya, 28 September 2013. http://english.alarabiya.net/en/variety/2013/09/28/Driving-affects-ovary-and-pelvis-Saudi-sheikh-warns-women.html
[15] Whitaker, Brian: "Subverting Saudi Arabia through song." Blog post, 31 October 2013. http://www.al-bab.com/blog/2013/october/subverting-saudi-arabia-through-song.htm
[16] Qassem, Abdul Aziz: "Fighting atheist tendencies." Al-Watan newspaper; republished in English by the Saudi Gazette, 20 February 2014. http://www.saudigazette.com.sa/index.cfm?method=home.regcon&contentid=20140221196390

[17] Bashraheel, Laura: "Scholarship students: Big dreams, slow change." Saudi Gazette, 11 March 2013. http://www.saudigazette.com.sa/index.cfm?method=home.regcon&contentid=20130311156300
[18] Author's email correspondence with Kabli, October 2013.
[19] "Fatwa prohibiting travelling abroad causes controversy in Saudi Arabia." Al-Arabiya, 6 May 2014. http://english.alarabiya.net/en/perspective/features/2014/05/06/Fatwa-prohibiting-traveling-abroad-causes-controversy-in-Saudi-Arabia-.html
[20] Banna, Hassan al-: "Between Yesterday and Today". http://m.www.islamicbulletin.org/free_downloads/resources/between_yesterday_and_today.pdf
[21] Shaffer, Brenda (ed): The Limits of Culture: Islam and Foreign Policy. Cambridge, Massachusetts, MIT Press, 2006, p 63
[22] Sarami, Nasser al-: "Saudi Arabia: A wave of atheism or a misunderstanding." Al-Arabiya, 23 May 2012. http://english.alarabiya.net/views/2012/05/23/215974.html
[23] For more about Islam and the early years of the internet see: Bunt, Gary: Virtually Islamic. Cardiff: University of Wales Press, 2000.
[24] Qassemi, Sultan Sooud al-: "Gulf atheism in the age of social media." Al-Monitor, 3 March 2014. http://www.al-monitor.com/pulse/originals/2014/03/gulf-atheism-uae-islam-religion.html. Ben Kerishan's Land of Sands blog is archived at http://thelandofsands.blogspot.co.uk/
[25] Bauer, William: "Interview with a Saudi atheist." Your Middle East, 30 April 2013. http://www.yourmiddleeast.com/columns/article/interview-with-a-saudi-atheist_11146
[26] Jebreili, Kamran: "Arab atheists inch out of shadows despite persecution in Mideast." Associated Press, 3 August 2013. http://www.dallasnews.com/news/local-news/20130803-arab-atheists-inch-out-of-shadows-despite-persecution-in-mideast.ece
[27] "Ex-Muslim atheists are becoming more outspoken, but tolerance is still rare." The Economist, 24 November, 2012. http://www.economist.com/news/international/21567059-ex-muslim-atheists-are-becoming-more-outspoken-tolerance-still-rare-no-god-not
[28] Alyasery, Mazin and Hussein, Gehad: "Online war on Atheism in the Arab world." Your Middle East, 29 April 2013. http://www.yourmiddleeast.com/opinion/elyasery-and-hussein-online-war-on-atheism-in-the-arab-world_13938
[29] http://www.il7ad.com/
[30] https://www.youtube.com/user/ArabAtheistBroadcast/
[31] https://www.youtube.com/user/fiberoty
[32] https://www.youtube.com/watch?v=JomoCGa36Aw&feature=youtu.be
[33] "Jordanian poet prepares for jail." The National, 2 September 2009. http://www.thenational.ae/news/world/middle-east/jordanian-poet-prepares-for-jail
[34] Author's interview and email exchange with Mohammed al-Khadra, September 2014.
[35] https://www.facebook.com/ArabAtheistsLibrary
[36] The translated verse says: "Is it the goal of religion that you should pluck out your beards, O community whose ignorance is a laughing-stock to other nations?" See: Arberry, A J: Poems of Mutanabbi. London: Cambridge University Press, 1967. p116

Chapter Two:

[1] Stroumsa, Sarah: *Freethinkers of Medieval Islam*. Leiden, Brill: 1999
[2] Quoted by Samuli Schielke, "The Islamic World", chapter in The Oxford Handbook of Atheism. Oxford: Oxford University Press, 2013
[3] Stroumsa, op cit, pp 95-96
[4] Nicholson, R A: A Literary History of the Arabs. Cambridge: Cambridge University Press, 1985. p 324.
[5] Nicholson: op cit, p 314.
[6] Nicholson: op cit, p 319.
[7] Nicholson: op cit, pp 323-324.
[8] Hitchens, Christopher: The Portable Atheist: Essential Readings for the Non-Believer. Philadelphia: Da Capo Press, 2007. p7.
[9] Dashti, Ali: In Search of Omar Khayyam. Abingdon, Oxon: Routledge, 2011. p14. Dashti was an Iranian rationalist, journalist and senator who died in 1982. His book was originally published in Persian.
[10] Letsch, Constanze "Turkish composer and pianist convicted of blasphemy on Twitter." The Guardian, 16 April 2013. http://www.theguardian.com/world/2013/apr/15/turkish-composer-fazil-say-convicted-blasphemhy

[11] Schielke, op cit
[12] Garnett, Joy: "Edham the atheist." http://newsgrist.typepad.com/joygarnett/2013/11/edham-the-atheist.html
[13] Juynboll, G H A: "Ismail Ahmad Adham (1911-1940), the Atheist." Journal of Arabic Literature. 3: 1972, pp 54-71. Cited by Garnett, op. cit.
[14] "Abdul-Rahman Badawi." Philosophers of the Arabs website, undated. http://www.arabphilosophers.com/English/philosophers/modern/modernnames/eAbdul_Rahman_Badawi.htm
[15] Qassemi, Sultan Sooud al-: "Gulf atheism in the age of social media". Al-Monitor, 3 March 2014. http://www.al-monitor.com/pulse/originals/2014/03/gulf-atheism-uae-islam-religion.html
[16] http://forums.islamicawakening.com/f17/abdullah-al-qasimi-64655/
[17] Hourani, Albert: A History of the Arab Peoples. London: Faber and Faber, 1991. p 306
[18] Hourani, op cit, p 306.
[19] Hourani, op cit, p 307.
[20] Hourani, op cit, pp 243-244.
[21] Barakat, Halim: The Arab World: Society, Culture and State. Los Angeles: University of California Press, 1993, p 249
[22] The Philosophers of the Arabs website describes some of them and outlines their views. http://www.arabphilosophers.com/English/philosophers/modern/modern.htm
[23] Email correspondence with the author, July 2014.
[24] Schielke, op cit
[25] Quoted by Norman Cigar: "Islam and the state in South Yemen: the uneasy coexistence." Middle Eastern Studies, Volume 26, Issue 2, 1990
[26] Quoted by Cigar, op cit
[27] Somalia, on the Horn of Africa but technically an Arab country since it joined the Arab League in 1974, also had a period of Marxist rule which attempted to blend scientific socialism with Islamic tenets
[28] Cigar, op cit
[29] Manea, Elham The Arab State and Women's Rights. New York: Routledge, 2011
[30] Barakat, op cit, p 258
[31] Barakat, op cit, p 257
[32] Mutaqqun Online: 'Male hijab according to Qur'an and Sunnah'. http://www.muttaqun.com/malehijab.html
[33] "Al-Qa'eda in Iraq alienated by cucumber laws and brutality." Daily Telegraph, 11 Aug 2008. http://www.telegraph.co.uk/news/worldnews/middleeast/iraq/2538545/Al-Qaeda-in-Iraq-alienated-by-cucumber-laws-and-brutality.html Impositions such as this were said to be a major reason for al-Qa'ida's declining support among Iraqi Sunnis.
[34] Author's email correspondence with Ghassan Abdullah, April 2014.
[35] Mudhoon, Loay: "In the Footsteps of Averroes." Qantara website, 2009. http://en.qantara.de/content/the-reformist-islamic-thinker-muhammad-shahrur-in-the-footsteps-of-averroes. See also Muhammad Sharour: "The Divine Text and Pluralism in Muslim Societies." Chapter in Mehran Kamrava (ed): The New Voices of Islam. University of California Press, 2007.
[36] Shahrour, Muhammad: "A New Approach." Undated article on Deen Research Center website. http://www.deenresearchcenter.com/LinkClick.aspx?fileticket=ZYQFChaoOxY%3D&tabid=97&mid=706
[37] Deen Research Center. http://www.deenresearchcenter.com/Home/tabid/36/Default.aspx
[38] Deen Research Center. http://www.deenresearchcenter.com/DRC/AboutDRC/tabid/54/Default.aspx
[39] Author's interview, April 2014. Gamal is a pseudonym.
[40] Author's interview, April 2014.
[41] Author's interview, April 2014. Ahmad Saeed is a pseudonym
[42] "L'islam peut-il être réformé?" Poste de Veille website, 12 March 2013. http://www.postedeveille.ca/2013/03/l-islam-peut-il-etre-reforme-kacem-ghazzali.html. The interview was originally published in German by Die Zeit.

Chapter Three

[1] "Isra and Miraj: The Miraculous Night Journey." https://www.islamicity.com/articles/Articles.asp?ref=IC0608-3086

[2] Munajid, Muhammad Salih al-: "Evidence for the truth of the Prophethood of Muhammad" http://islamqa.info/en/2114
[3] Institute of Islamic Information and Education: "The Authenticity of the Quran" http://www.iiie.net/index.php?q=node/46
[4] Pickthall, Marmaduke: The Meaning of the Glorious Qur'an. http://web.archive.org/web/20071114044153/http://www.al-sunnah.com/call_to_islam/quran/pickthall/
[5] "Arabs Hated The Quran." Australian Islamist Monitor, 28 October 2008. http://www.islammonitor.org/index.php?option=com_content&view=article&id=1680:arabs-hated-the-quran&catid=183&Itemid=20
[6] The True Furqan. http://en.wikipedia.org/wiki/The_True_Furqan
[7] For details of the SuraLikeIt affair, see: Bunt, Gary: Virtually Islamic. Cardiff: University of Wales Press, 2000, pp 125-130.
[8] Institute of Islamic Information and Education: "The Authenticity of the Quran" http://www.iiie.net/index.php?q=node/46
[9] ibid.
[10] Hoodbhoy, Pervez: Islam and Science: Religious Orthodoxy and the Battle for Rationality. London and New Jersey: Zed Books, 1991. p67.
[11] Hoodbhoy, op cit. p 68.
[12] Golden, Daniel: "Western Scholars Play Key Role In Touting 'Science' of the Quran." Wall Street Journal, 23 January 2002. http://online.wsj.com/news/articles/SB1011738146332966760
[13] Dr Moore's "The Developing Human with Islamic Additions" textbook.
The Islam Papers, 1 November 2013. http://islampapers.com/2013/11/01/the-developing-human-with-islamic-additions/
[14] See, for example, Zindani's video, "This is Truth" https://www.youtube.com/watch?v=YJCchGjTzGQ
[15] "United States Designates bin Laden Loyalist." US Treasury Department, 24 February 2004. http://www.treasury.gov/press-center/press-releases/Pages/js1190.aspx
[16] Bhagavad Gita, 2:16.
[17] Hoodbhoy, op cit. pp 66-67.
[18] "Life on Earth." http://www.quran-islam.org/main_topics/quran/science_in_quran/life_on_earth_(P1213).html
[19] "The Quran on Mountains" http://www.islam-guide.com/ch1-1-b.htm
[20] "The Miracle of Iron" http://www.islamreligion.com/articles/562/
[21] For a variety of translations of this verse, see http://www.multimediaquran.com/quran/057/057-025.htm
[22] Clothing: Qur'an 7:26; food: 10:59, 45:05, 2:57, 7:160; cattle: 39:06
[23] "Does the Qur'an contain scientific miracles?" Blog post by Hamza Andreas Tzortzis, 21 August 2013. http://www.hamzatzortzis.com/essays-articles/exploring-the-quran/does-the-quran-contain-scientific-miracles-a-new-approach/
[24] The Book of Curiosities. Chapter 1: On the mensuration of the Earth and its division into seven climes, as related by Ptolemy and others. http://cosmos.bodley.ox.ac.uk/hms/home.php
[25] "Abu Arrayhan Muhammad ibn Ahmad al-Biruni." http://www-groups.dcs.st-and.ac.uk/~history/Biographies/Al-Biruni.html
[26] Quoted by Iqbal, Muzaffar: Science and Islam. Westport, CT: Greenwood Publishing, 2007. p. 157.
[27] Ziadat, Adel: Western Science in the Arab World: The Impact of Darwinism, 1860–1930, London: Macmillan, 1986, p. 94 Quoted in 'Muslim Responses to Darwinism.' Islam Herald website. Retrieved 27 November 2008. http://www.islamherald.com/asp/curious/evolution/muz/muz-part3.asp.
[28] "Academic Year Launched." http://staff.aub.edu.lb/~webbultn/v1n1/
[29] Elshakry, Marwa: Reading Darwin in Arabic, 1860-1950. Chicago: University of Chicago Press, 2014. pp 8-9
[30] Shanavas, T O: *Evolution and/or Creation: An Islamic Perspective.* Philadelphia: Xlibris Corporation, 2005.
[31] Edis, Taner: 'Cloning Creationism in Turkey.' Reports of the National Center for Science Education, vol. 19 no. 6, pp. 30–35, Nov–Dec 1999.
[32] Atlas of Creation. Available online at: http://www.harunyahya.com/books/darwinism/atlas_creation/atlas_creation_01.php
[33] For example, in 2004 a group of Muslim students in biomedical sciences at the Vrije Universiteit in Amsterdam were reported to have uncritically copied text from "Islamic creationist" websites for an essay assignment on "Man and evolution". See: Koning, Danielle: "Anti-evolutionism among Muslim students." ISIM Review, Autumn 2006. http://www.isim.nl/files/Review_18/Review_18-48.pdf.

[34] Author's interview, February 2012. Mohammed Ramadan is a pseudonym.
[35] Youssef, Nour: "Last week in Egypt in TV." Arabist blog, 17 November 2013. http://arabist.net/blog/2013/11/17/last-week-in-egypt-in-tv
[36] "Darwinism from an Islamic Perspective." On Islam, 24 July 2012. http://www.onislam.net/english/ask-the-scholar/muslim-creed/muslim-belief/174719-darwinism-from-an-islamic-perspective.html
[37] Koning, Danielle: "Anti-evolutionism among Muslim students." ISIM Review, Autumn 2006. http://www.isim.nl/files/Review_18/Review_18-48.pdf
[38] A video of the news report with commentary from the Arab Atheists Network can be found at https://www.youtube.com/watch?v=7SRE1kz3HG4. A text version of the news report, in Arabic, is here: http://www.aljazeera.net/news/pages/bda5151b-42f2-4aeb-aff3-ea0efe321b1e
[39] Zhaghloul el-Naggar's website: http://www.elnaggarzr.com/en/
[40] Husseini, Waleed al-: "Cosmos and Islamic censorship." Blog post, 16 March 2014. http://proud-a.blogspot.com/2014/03/Cosmos.html

Chapter Four:

[1] "French Rapper Diam's embraces Islam." Saudi Gazette, undated. http://www.saudigazette.com.sa/index.cfm?method=home.regcon&contentID=2009101951948. The Saudi Gazette was chastised by one of its readers for saying that Diam's had "converted". Many Muslims believe that everyone is born with a natural faith in God, so non-Muslims who embrace Islam are considered to be returning or "reverting" to their original faith.
[2] Ghalib, Mirza: "From Islam to atheism after a stint of employment in Saudi Arabia." http://www.nairaland.com/882035/islam-atheism-after-stint-employment
[3] Michael Martin, in his introduction to The Cambridge Companion to Atheism (Cambridge University Press, 2007) described these two types of non-belief as negative atheism and positive atheism.
[4] Kayyani, Saeed: "I felt a weight being lifted off my shoulders". Blog post, 11 August 2013. http://www.al-bab.com/blog/2013/august/email-from-an-arab-atheist-2.htm
[5] Author's email correspondence with Kayyani.
[6] Smith, Jesse M: "Becoming an Atheist in America: Constructing Identity and Meaning from the Rejection of Theism." Sociology of Religion, 2011, vol 72 (2), pp 215-237.
[7] "US Religious Knowledge Survey." Rew Research, 28 September 2010. http://www.pewforum.org/2010/09/28/u-s-religious-knowledge-survey/
[8] "How Ignorant About Religion Are Religious Americans?" Friendly Atheist blog, 27 September 2010. http://www.patheos.com/blogs/friendlyatheist/2010/09/27/how-ignorant-about-religion-are-religious-americans/
[9] Author's interview, April 2014. Gamal is a pseudonym.
[10] The story, related by Ibn Khallikan, is quoted in Nicholson, R A: A Literary History of the Arabs. Cambridge: Cambridge University Press, 1985. pp 377-378.
[11] Qassem, Abdul Aziz: "Fighting atheist tendencies." English translation from al-Watan newspaper, re-published in English by the Saudi Gazette, 20 February. http://www.saudigazette.com.sa/index.cfm?method=home.regcon&contentid=20140221196390
[12] Author's interview, May 2014. Sarah Way is a pseudonym
[13] Author's interview, September 2014. Hashem al-Shamy is a pseudonym.
[14] Munajjid, Muhammad: "Atheism is a greater sin than shirk." Islam Q & A website. http://islamqa.info/en/113901
[15] Cheruppa, Hassan: "Religion is solution for moral degradation: Scholar." Saudi Gazette, 30 January 2014.
[16] 16. Author's email correspondence, March 2014
[17] Qassemi, Sultan Sooud al-: "Gulf atheism in the age of social media." Al-Monitor, 3 March 2014. http://www.al-monitor.com/pulse/originals/2014/03/gulf-atheism-uae-islam-religion.html

Chapter Five:

[1] 2. Adib, Mounir: "Salafi woman turned atheist recounts her journey." Egypt Independent, 4 November 2013. http://www.egyptindependent.com/news/salafi-woman-turned-atheist-recounts-her-journey
[2] Author's interview, April 2014
[3] http://www.islamicity.com/quran/maududi/mau36.html

[4] Barakat: Halim: The Arab World: Society, Culture and State. Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1993. pp. 100–101.
[5] Barakat: Halim: op cit, p. 117.
[6] https://www.facebook.com/GODS.FACKER/posts/437110759728752
[7] Loewenthal, Kate; MacLeod, Andrew and Cinnirella, Marco: "Are women more religious than men? Gender differences in religious activity among different religious groups in the UK." Psychology Department, Royal Holloway, University of London, 2001. http://digirep.rhul.ac.uk/file/a4d4660e-7408-3162-7ab7-61dd4ee6ad60/3/Are_women_more_religious_than_men.pdf
[8] Brewster, Melanie: "Atheism, gender and sexuality." Chapter in The Oxford Handbook of Athiesm. Oxford: Oxford University Press, 2013.
[9] ibid.
[10] Bureau of Democracy, Human Rights and Labor: International Religious Freedom Report for 2012. http://www.state.gov/j/drl/rls/irf/religiousfreedom/index.htm?year=2012&dlid=208400
[11] Tadros, Mariz: "Behind Egypt's Deep Red Lines". MERIP, 13 October 2010. http://www.merip.org/mero/mero101310
[12] "Sudanese woman sentenced to death for apostasy gave birth with her legs chained, her husband says." Telegraph, 29 May 2014.
[13] "Meriam Ibrahim's brother turned her in because 'she won't repent'." CNN, SBS, 5 June 2014. http://www.sbs.com.au/news/article/2014/06/05/meriam-ibrahims-brother-turned-her-because-she-wont-repent
[14] "Meriam Ibrahim was 'kidnapped' and I went to police before she boarded flight to America, her brother says." Telegraph, 25 June 2014. http://www.telegraph.co.uk/news/worldnews/africaandindianocean/sudan/10925293/Meriam-Ibrahim-was-kidnapped-and-I-went-to-police-before-she-boarded-flight-to-America-her-brother-says.html
[15] Pew Research: Religous Landscape Survey. http://religions.pewforum.org/reports#
[16] http://www.atheists.org/about-us/history
[17] Bekiempis, Victoria: "New Atheism and the Old Boys' Club." Bitch magazine, May 2011. http://bitchmagazine.org/article/the-unbelievers
[18] McCreight, Jen: "Where Are All The Atheist Women? Right Here." Ms blog, 3 November, 2010. http://msmagazine.com/blog/2010/11/03/where-are-all-the-atheist-women-right-here/
[19] Author's interview, May 2014.
[20] http://ex-muslim.org.uk/2013/12/two-day-international-conference-on-the-religious-right-secularism-and-civil-rights/
[21] http://outcampaign.org. See also: MacAskill, Ewen: "Atheists arise: Dawkins spreads the A-word among America's unbelievers." The Guardian, 1 October 2007. http://www.theguardian.com/world/2007/oct/01/internationaleducationnews.religion
[22] http://www3.norc.org/gss+website
[23] Self-declared atheists comprised 2.5% of heterosexual respondents and 5.6% of LGBT respondents. Agnostics comprised 4% of the heterosexual respondents are agnostics, 12% of LGBT respondents. Linneman, T and Clendenen, M: "Sexuality and the Secular", chapter in Atheism and Secularity: Volume 1 – Issues, Concepts, and Definitions, edited by Phil Zuckerman. Santa Barbara, CA: Praeger, 2010.
[24] Singer, B and Deschamps, D: Gay and Lesbian Stats: A Pocket Guide of Facts and Figures. New York: Harper Collins, 2010.
[25] Brewster (op cit) points out that this may also happen in the opposite direction: that atheists, having freed themselves from religion, are more able to explore their sexuality.
[26] "They Want Us Exterminated." Human Rights Watch, August 2009. http://www.hrw.org/reports/2009/08/17/they-want-us-exterminated-0
[27] Kugle, Scott Siraj al-Haqq: Homosexuality in Islam. Oxford: Oneworld, 2010.
[28] The Kaaba in Mecca is covered with a cloth known as the kiswa, which is replaced with a new one annually.
[29] Video interview with Huffington Post. http://live.huffingtonpost.com/r/archive/segment/5363d19efe3444b0130002d9
[30] Author's interview, July 2014.
[31] Author's email correspondence with Kayyani.

Chapter Six:

[1] CIA World Factbook. https://www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook/geos/ku.html
[2] "Furore as 155 arrested for not fasting." The National, 10 September 2009. http://www.thenational.ae/news/world/middle-east/furore-as-155-arrested-for-not-fasting
[3] Death Threats and Arrests for Facebook Ramadan Fast Break Protesters." Morocco News Board, undated. http://www.moroccoboard.com/news/34-news-release/664-death-threats-and-arrests-for-facebook-ramadan-fast-break-protesters
[4] Author's interview, April 2014.
[5] Guellali, Amna: "The Problem with Tunisia's New Constitution." Human Rights Watch, 3 February 2014. http://www.hrw.org/news/2014/02/03/problem-tunisia-s-new-constitution
[6] Whitaker, Brian: "Tunisia's discriminatory new constitution." Blog post, 12 December 2011. http://www.al-bab.com/blog/2011/blog1112a.htm#tunisia_discriminatory_new_constitution
[7] "In 30 countries, heads of state must belong to a certain religion." Pew Research Center, 22 July 2014. http://www.pewresearch.org/fact-tank/2014/07/22/in-30-countries-heads-of-state-must-belong-to-a-certain-religion/
[8] Barro, Robert and McCleary, Rachel: "Which countries have state religions?" Working Paper 10438, National Bureau of Economic Research, Cambridge, MA. 2004. http://www.nber.org/papers/w10438
[9] Report of the Special Rapporteur on freedom of religion or belief, Heiner Bielefeldt. A/HRC/19/60, 22 December 2011. http://daccess-dds-ny.un.org/doc/UNDOC/GEN/G11/175/41/PDF/G1117541.pdf?OpenElement
[10] Worren, Torstein: Fear and Resistance: The Construction of Alawi Identity in Syria. Master thesis in human geography. University of Oslo, Dept of Sociology and Human Geography, 2007. pp 49-52. https://www.duo.uio.no/bitstream/handle/10852/16035/fear_and_resistance.pdf?sequence=2
[11] Author's interview, September 2014. Hashem al-Shamy is a pseudonym
[12] For further discussion, see: Zuckerman, Phil: "Secularization: Europe Yes, United States No." Skeptical Inquirer, March/April 2004. http://www.skeptic.ca/secularization.htm
[13] Barro and McCleary, op cit
[14] Stark, Rodney and Finke, Roger: Acts of Faith: Explaining the Human Side of Religion. Oakland: University of California Press, 2000.
[15] Report of the Special Rapporteur on freedom of religion or belief, Heiner Bielefeldt A/HRC/16/53. 15 December 2010. http://daccess-dds-ny.un.org/doc/UNDOC/GEN/G10/177/93/PDF/G1017793.pdf?OpenElement
[16] ibid
[17] "Grand Mufti calls for changes to school textbooks." Libya Herald, 18 October, 2012. http://www.libyaherald.com/2012/10/18/16414/#ixzz35YjCCGVB
[18] US State Department: "International Religious Freedom Report for 2012." http://www.state.gov/j/drl/rls/irf/religiousfreedom/index.htm?year=2012&dlid=208398#wrapper
[19] US State Department: "International Religious Freedom Report for 2012." http://www.state.gov/j/drl/rls/irf/religiousfreedom/index.htm?year=2012&dlid=208390#wrapper
[20] "Prohibited Identities: State Interference with Religious Freedom." Human Rights Watch/EIPR, November 2007. http://www.hrw.org/en/reports/2007/11/11/prohibited-identities
[21] Ibid.
[22] Whitaker, Brian: "Sects and marriage in Lebanon." Blog post, 28 January 2013. http://www.al-bab.com/blog/2013/blog1301a.htm#sects-and-marriage-in-lebanon
[23] Whitaker, Brian: "Mufti's threats over civil marriage in Lebanon." Blog post, 29 January 2013. http://www.al-bab.com/blog/2013/blog1301a.htm#mufti-threats-civil-marriage-lebanon
[24] "Gemayel slams Lebanon mufti over civil marriage remarks." Daily Star, 29 January 2013. http://www.dailystar.com.lb/News/Politics/2013/Jan-29/204185-sleiman-defends-civil-marriage-at-cabinet-meeting.ashx

Chapter Seven:

[1] "Over 600 Chinese nationals working in Saudi embrace Islam." Gulf News, 27 September 2009. http://gulfnews.com/news/gulf/saudi-arabia/over-600-chinese-nationals-working-in-saudi-embrace-islam-1.540965

[2] http://www.islam-guide.com/
[3] CCPR General Comment No. 22: Article 18 (Freedom of Thought, Conscience or Religion). http://www.refworld.org/docid/453883fb22.html
[4] Kristine Kalanges: "Religious Liberty in Western and Islamic Law: Toward a World Legal Tradition." OUP USA, 2012, p 60.
[5] ibid, p61.
[6] Mayer, Ann Elizabeth: Islam and Human Rights – Tradition and Politics. Boulder, Colorado: Westview Press 2007. p. 150.
[7] Mayer, Ann Elizabeth: op. cit. Mayer's book discusses these Islamic rights schemes extensively.
[8] It was renamed in 2011 and is now known as the Organisation of Islamic Cooperation.
[9] Meral, Ziya: "No Place to Call Home: Experiences of Apostates from Islam, Failures of the International Community." Christian Solidarity Worldwide, 2008. http://www.academia.edu/2462595/No_Place_to_Call_Home_Experiences_of_Apostates_from_Islam_Failures_of_the_International_Community
[10] Ramadan, Tariq: "Muslim Scholars Speak out on Jihad, Apostasy and Women", 2007. http://pa.cair.com/files/Muslim_Scholars_Speak_Out.pdf
[11] Abdelhadi, Magdi: "What Islam says on religious freedom". BBC, 27 March 2006. http://news.bbc.co.uk/1/hi/world/south_asia/4850080.stm
[12] Stalley, R F: An Introduction to Plato's Laws. Indianapolis: Hackett Publishing, 1983. pp 177-178
[13] Plato: Laws. Translated by Benjamin Jowett. Internet Classics Archive. http://classics.mit.edu/Plato/laws.10.x.html
[14] Locke, John: A Letter Concerning Toleration. 1689. Translated from Latin by William Popple. http://www.constitution.org/jl/tolerati.htm
[15] Bureau of Democracy, Human Rights and Labor: International Religious Freedom Report for 2012. http://www.state.gov/j/drl/rls/irf/religiousfreedom/index.htm?year=2012#wrapper
[16] Longva, Anh Nga: "The apostasy law in the age of universal human rights and citizenship". Fourth Nordic conference on Middle Eastern Studies, Oslo, 1998. http://www.hf.uib.no/smi/pao/longva.html
[17] Barbara Baker: "Yemen Court Sentences Somali Convert to Death", Christianity Today, 7 July 2000. http://www.christianitytoday.com/ct/2000/julyweb-only/55.0.html
[18] Bureau of Democracy, Human Rights and Labor: International Religious Freedom Report for 2011. http://www.state.gov/j/drl/rls/irf/2011/af/192763.htm
[19] "Sudanese centre says incidents of apostasy, atheism increasing in country". Sudan Tribune, 15 May 2013. http://www.sudantribune.com/spip.php?article46577
[20] Meral, Ziya: "No Place to Call Home: Experiences of Apostates from Islam, Failures of the International Community." Christian Solidarity Worldwide, 2008. http://www.academia.edu/2462595/No_Place_to_Call_Home_Experiences_of_Apostates_from_Islam_Failures_of_the_International_Community
[21] Sherbini, Ramadan al-: "Bahai daughter, Muslim father locked in court battle over child's custody." Gulf News, 9 August 2009. http://web.archive.org/web/20090815013038/http://archive.gulfnews.com/region/Egypt/10338696.html
[22] For more details see: Whitaker, Brian: What's Really Wrong with the Middle East. London: Saqi Books, 2009, pp. 126-128.
[23] Szymanski, Tekla: "Battling Bigotry". World Press Review (Vol. 48, No. 9), September 2001. http://www.worldpress.org/Mideast/311.cfm
[24] ANHRI press release, 1 October 2009. http://www.anhri.net/en/reports/2009/pr1001.shtml
[25] Whitaker, Brian: "The biter bit". Blog post, 10 October 2009. http://www.al-bab.com/blog/blog0910a.htm
[26] Soage, Ana Belén: "Faraj Fawda, or the cost of freedom of expression." Middle East Review of International Affairs, Volume 11, No. 2, June 2007. http://meria.idc.ac.il/journal/2007/issue2/jv11no2a3.html

Chapter Eight:

[1] "UN resolutions on combating defamation of religions." Statement by Article 19 and the Cairo Institute for Human Rights Studies. 11 September 2008. http://www.article19.org/data/files/pdfs/press/un-resolutions-on-combating-defamation-of-religions.pdf

[2] "Freedom of expression and incitement to racial or religious hatred." Joint statement by Githu Muigai, Asma Jahangir and Frank La Rue, 22 April 2009.
http://www2.ohchr.org/english/issues/religion/docs/SRJointstatement22April09.pdf
[3] "Rabat Plan of Action on the prohibition of advocacy of national, racial or religious hatred that constitutes incitement to discrimination, hostility or violence." 5 October 2012.
http://www.ohchr.org/Documents/Issues/Opinion/SeminarRabat/Rabat_draft_outcome.pdf
[4] Ghazzali, Kacem el-: "Tunisian Atheists sentenced to seven and a half years of prison." Atheistica blog, 1 April 2012. http://atheistica.com/2012/04/01/tunisian-atheists-sentenced-to-seven-and-a-half-years-of-prison/
[5] Ryan, Yasmine: "Tunisia's embattled artists speak out." Al-Jazeera, 15 June 2012.
http://www.aljazeera.com/indepth/features/2012/06/2012615111819112421.html
[6] "Tunisia: Draft law criminalising offending religious values is repressive and vague." Article 19, 16 August 2012. http://www.article19.org/resources.php/resource/3420/en/tunisia:-draft-law-criminalising-offending-religious-values-is-repressive-and-vague
[7] "Egypt frees 2 Coptic boys held for Quran defiling." The Associated Press, 4 October 2012.
http://news.yahoo.com/egypt-frees-2-coptic-boys-held-quran-defiling-190054905.html

Chapter Nine:

[1] Author's interview, April 2014. Gamal is a pseudonym.
[2] Speech by President Morsi in Tahrir Square, 24 June 2012. http://www.al-bab.com/arab/docs/egypt/morsi_speech_120624.htm
[3] Beaumont, Peter: "Morsi 'power grab' angers Egypt opposition groups." The Guardian, 23 November 2012.
http://www.theguardian.com/world/2012/nov/23/morsi-power-grab-angers-opposition
[4] "Egypt's constitutional referendum: A dubious yes." The Economist, 22 December 2012.
http://www.economist.com/news/middle-east-and-africa/21568756-flawed-constitution-will-be-endorsed-argument-far-over
[5] Whitaker, Brian: "Egyptian provinces need elected governors." Blog post, 18 June 2013. http://www.al-bab.com/blog/2013/june/egyptian-provinces-need-elected-governors.htm
[6] Whitaker, Brian: "Artists versus Islamists in Egypt's culture war." Blog post, 20 June, 2013 http://www.al-bab.com/blog/2013/june/artists-versus-islamists-in-egypt-culture-war.htm
[7] "Egypt MP quits over nose job cover-up." Al-Jazeera, 6 March 2012.
http://www.aljazeera.com/news/middleeast/2012/03/201235224452570454.html
[8] "Egypt Salafist ex-MP convicted of public indecency." BBC, 21 July 2012. http://www.bbc.co.uk/news/world-middle-east-18937515
[9] Quoted by Samaan, Magdy: "Atheists Rise in Egypt." Zam Magazine, 13 October 13.
www.zammagazine.com/chronicle-3/38-atheists-rise-in-egypt
[10] Author's interview, April 2014.
[11] Abdelhadi, Magdy: "The age of unreason." Blog post, 16 April 2014.
http://maegdi.wordpress.com/2014/04/16/the-age-of-unreason/
[12] Adib, Mounir: "Atheists call for reduced religious footprint in constitution." Egypt Independent, 19 September 2013.
http://www.egyptindependent.com/news/atheists-call-reduced-religious-footprint-constitution
[13] "Constitution of the Arab Republic of Egypt, 2014." Unofficial English translation.
http://www.sis.gov.eg/Newvr/Dustor-en001.pdf
[14] Allam, Rana: "A constitution not worth its ink." Daily News Egypt, 19 February 2014.
http://www.dailynewsegypt.com/2014/02/19/constitution-worth-ink/
[15] "Egypt mosques: Weekly sermon themes set by government." BBC, 31 January 2014.
http://www.bbc.co.uk/news/world-middle-east-25983912
[16] Abdelhadi, Magdy: "The age of unreason." Blog post, 16 April 2014.
http://maegdi.wordpress.com/2014/04/16/the-age-of-unreason/
[17] Al-Ahram (in Arabic), 18 June 2014. http://gate.ahram.org.eg/UI/Front/Inner.aspx?NewsContentID=506013
[18] https://www.youtube.com/watch?v=rVPdVS-eImE 20 December 2013.
[19] "Police vow to arrest Alexandria-based atheists." Mada Masr, 26 March 2014.
http://madamasr.com/content/police-vow-arrest-alexandria-based-atheists
[20] Author's interview, April 2014.

[21] http://www.masress.com/en/video/3063055 and https://www.youtube.com/watch?v=OOF375-NZhc, 10 November 2013
[22] https://www.youtube.com/watch?v=oESeyFgtpbE&list=PLx2EFu656F-ErXUFQaZ6ywgMFFm2zB__r, 15 April 2014.
[23] Elwatannews, 13 May 2014, https://www.elwatannews.com/news/details/480971 and Sout al-Umma, 13 May 2014, http://www.soutalomma.com/articles/72748(both reports in Arabic).
[24] Kheir, Mohammed: "Egyptian TV: Darwin, Nietzsche, and a Certain God." Al-Akhbar, 1 August 2012. http://english.al-akhbar.com/content/egyptian-tv-darwin-nietzsche-and-certain-god. See also: Kazim, Butheina: "In the company of Moez Masoud." Al-Jazeera, 17 August 2012. http://www.aljazeera.com/indepth/opinion/2012/08/201281694821594437.html
[25] Montasser, Farah: "Al-Molhid (The Atheist) Egyptian film praises Islam, says film crew." Ahram Online, 25 November 2012. http://english.ahram.org.eg/NewsContent/5/32/59125/Arts--Culture/Film/AlMolhid-The-Atheist-Egyptian-film-praises-Islam,-.aspx
[26] Controversial Egyptian film 'The Atheist' gets go ahead by censors." Al-Arabiya 14 March 2012. http://english.alarabiya.net/articles/2012/03/14/200689.html
[27] Al-Arabiya in Arabic, 3 February 2014. http://www.alarabiya.net/ar/culture-and-art/2014/02/03/%D8%AF%D9%88%D8%B1-%D8%B9%D8%B1%D8%B6-%D9%85%D8%B5%D8%B1%D9%8A%D8%A9-%D8%AA%D8%B1%D9%81%D8%B6-%D8%A7%D8%B3%D8%AA%D9%82%D8%A8%D8%A7%D9%84-%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%84%D8%AD%D8%AF-.html
[28] "Controversial Egyptian film 'The Atheist' gets go ahead by censors." Al-Arabiya 14 March 2012. http://english.alarabiya.net/articles/2012/03/14/200689.html
[29] Shams El-Din, Mai: "Rights groups condemn detention of atheist on blasphemy charges." Egypt Independent, 24 September 2012. http://www.egyptindependent.com/news/rights-groups-condemn-detention-atheist-blasphemy-charges
[30] Adib, Mounir: "While atheism in Egypt rises, backlash ensues." Egypt Independent, 30 September 2013. http://www.egyptindependent.com/news/while-atheism-egypt-rises-backlash-ensues
[31] Dawakhly, Sherif al-: "New book at Cairo's book fair tackles atheism." Egypt Independent, 25 January 2014. http://www.egyptindependent.com/news/new-book-cairo-s-book-fair-tackles-atheism
[32] Allam, Rana: "A generation of atheists." Daily News Egypt, 7 January 2013. http://www.dailynewsegypt.com/2013/01/07/a-generation-of-atheists/
[33] Abdelfattah, Mohamed: "Leaving Islam in the age of Islamism." Daily News Egypt, 24 January 2013. http://www.dailynewsegypt.com/2013/01/24/leaving-islam-in-the-age-of-islamism/
[34] Diab, Khaled: "Confessions of an Egyptian infidel." Daily News Egypt, 15 August 2013. http://www.dailynewsegypt.com/2013/08/15/confessions-of-an-egyptian-infidel/
[35] Author's email correspondence, March 2014.

Chapter Ten:

[1] Enemies Not Allies: the Far Right. One Law For All, 2011. http://www.onelawforall.org.uk/wp-content/uploads/Enemies-not-Allies-web-version1.pdf
[2] "A statement regarding Nick Griffin's use of the term 'Fenian' from his MEP Constituency Office." 18 October 2012. http://www.nickgriffinmep.eu/content/statement-regarding-nick-griffins-use-term-fenian-his-mep-constituency-office
[3] "Easter Message from BNP Chairman hits mark!" Stormfront, July 2006. http://www.stormfront.org/forum/t696276/
[4] Spencer, Robert: "2 Men, in New York and Florida, Charged in Qaeda Conspiracy." Jihad Watch, 30 May 2005. http://www.jihadwatch.org/2005/05/2-men-in-new-york-and-florida-charged-in-qaeda-conspiracy.html
[5] Siding With the Oppressor: The Pro-Islamist Left. One Law For All, 2013. http://www.onelawforall.org.uk/wp-content/uploads/SidingWithOpressor_Web.pdf
[6] Author's interview, May 2014.
[7] No Bigotry and No Apologism." http://www.exmna.org/about-us/
[8] For more information about the history of the term "Islamophobia", see: Richardson, Robin: "Islamophobia or anti-Muslim racism – or what? – concepts and terms revisited." 2012 http://www.insted.co.uk/anti-muslim-racism.pdf

[9] Islamophobia: a challenge for us all. Runnymede Trust, 1997. http://www.runnymedetrust.org/publications/17/32.html
[10] Berlinski, Claire: "Moderate Muslim watch: How the term 'Islamophobia' got shoved down your throat." Ricochet, 24 November 2010. http://ricochet.com/archives/moderate-muslim-watch-how-the-term-islamophobia-got-shoved-down-your-throat
[11] Richardson, Robin: op cit
[12] "Racism and Islamophobia." FAIR website, undated. http://www.fairuk.org/docs/Islamophobia%20&%20Racism.pdf
[13] "BNP leader said Islam was 'wicked'." Daily Mail, 3 November 2006. http://www.dailymail.co.uk/news/article-414343/BNP-leader-said-Islam-wicked.html
[14] Wainwright, Martin: "Islam is vicious, wicked faith, claims Griffin." The Guardian, 26 January 2006. http://www.theguardian.com/uk/2006/jan/26/otherparties.thefarright
[15] "Islamophobia? Muslimophobia? Anti-Muslim Bigotry? A discussion between Ex-Muslims on appropriate neologisms." Hiba Krisht was using the name "Marwa" at the time of the blog post. http://aveilandadarkplace.com/2014/05/21/islamophobia-muslimophobia-anti-muslim-bigotry-a-discussion-between-ex-muslims-on-appropriate-neologisms/
[16] "Islamophobia? Muslimophobia? Anti-Muslim Bigotry? A discussion between Ex-Muslims on appropriate neologisms." http://aveilandadarkplace.com/2014/05/21/islamophobia-muslimophobia-anti-muslim-bigotry-a-discussion-between-ex-muslims-on-appropriate-neologisms/
[17] https://twitter.com/RichardDawkins/status/365473573768400896
[18] Whitaker, Brian: "The right answer or the wrong question?" The Guardian, 27 March 2004. http://www.theguardian.com/uk/2004/mar/27/religion.world
[19] https://twitter.com/mjrobbins/status/327004128171679745
[20] http://old.richarddawkins.net/articles/596422-jedi-ism-britain-s-fourth-largest-religion-is-still-going-strong/comments?page=1#comment_596425
[21] http://old.richarddawkins.net/articles/4563-human-rights-ruling-against-classroom-crucifixes-angers-italy/comments?page=1#comment_411188
[22] http://old.richarddawkins.net/videos/476560-pat-condell-no-mosque-at-ground-zero/comments?page=2
[23] http://old.richarddawkins.net/articles/641974-islam-and-islamophobia-a-little-manifesto/comments?page=1#comment_845164
[24] Lean, Nathan: "Dawkins, Harris, Hitchens: New Atheists flirt with Islamophobia." Salon 30 March 2013. http://www.salon.com/2013/03/30/dawkins_harris_hitchens_new_atheists_flirt_with_islamophobia/
[25] Harris, Sam: "Head-in-the-Sand Liberals." Los Angeles Times, 18 September, 2006. http://www.samharris.org/site/full_text/the-end-of-liberalism/
[26] Blackford, Russell: "Islam and 'Islamophobia' – a little manifesto." The Hellfire Club blog, 30 June, 2011. http://metamagician3000.blogspot.co.uk/2011/06/islam-and-islamophobia-little-manifesto.html
[27] Author's interview and email exchange, July 2014.
[28] European Commission for Democracy through Law (Venice Commission): "Report on the relationship between freedom of expression and freedom of religion" CDL-AD(2008)026. http://www.venice.coe.int/webforms/documents/default.aspx?pdffile=CDL-AD(2008)026-e
[29] European Court of Human Rights, Gündüz v Turkey, 2003.
[30] Gey, Steven: "Atheism and the Freedom of Religion." Chapter in The Cambridge Companion to Atheism. New York: Cambridge University Press, 2007.